أ. د. محمد مؤنس عوض

مصر تروى تاريخها

ملامح من تاريخ مصر عبر العصور



مصر تروى تاريخها

ملامح من تاريخ مصر عبر العصور

© دار العالم العربي
19 شارع امتداد رمسيس ـ القاهرة
تليفاكس: 22616130
e-mail :af_madkour@yahoo.com
تجهيزات فنية: الإســـراء ـ تليفون: 33143632
رقم الإيداع: 26186 / 2007

الطبعة الأولى: المحرم 1429 هـ ـ يناير 2008 م .

مصر تروى تاريخها

ملامح من تاريخ مصر عبر العصور

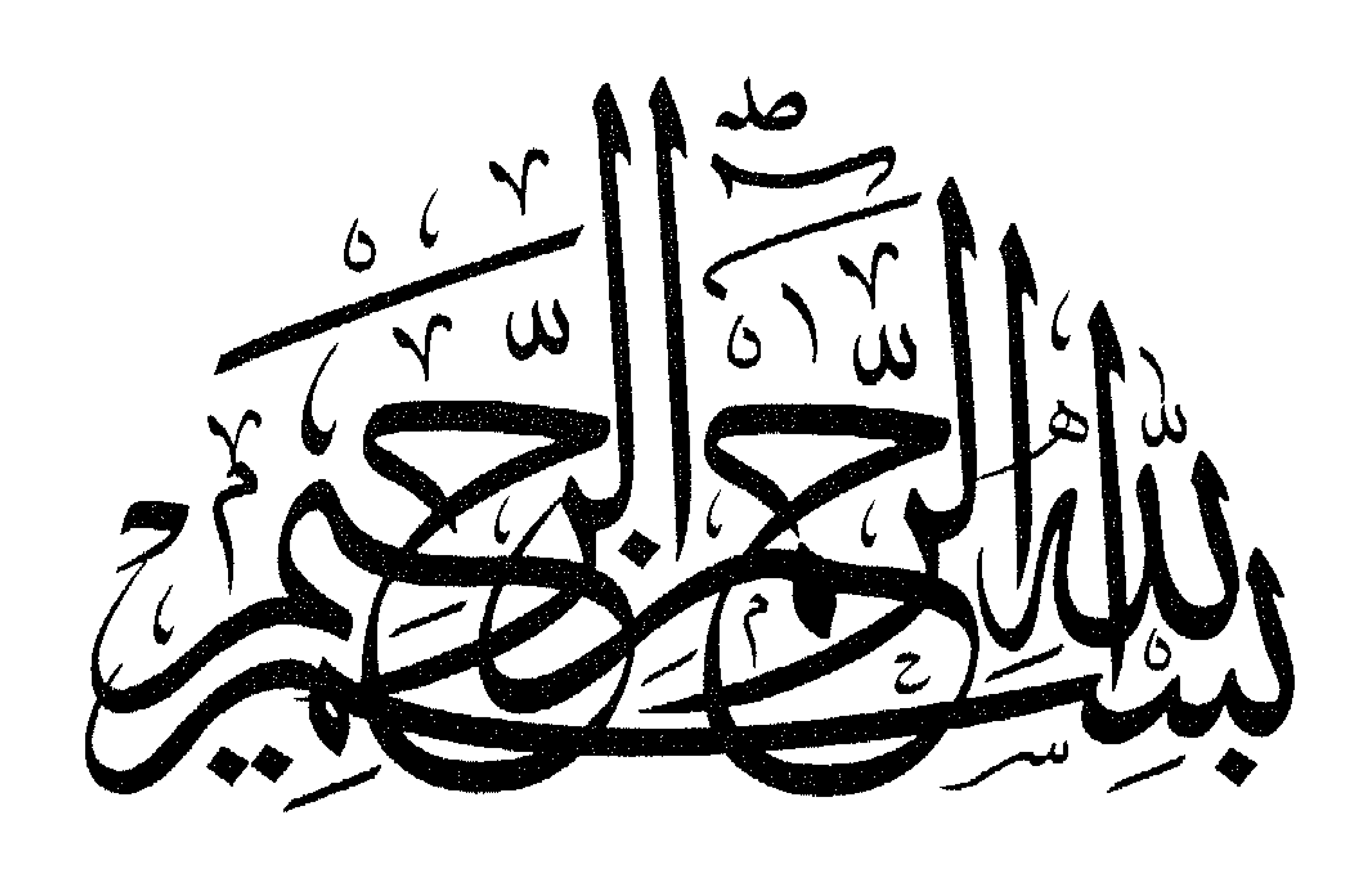
إعـــداد

أ.د. محمد مؤنس عوض

أستاذ تاريخ العصور الوسطى

بكلية الآداب – جامعة عين شمس




بسم الله الرحمن الرحيم

وَقَـفَ الخَـلْـقُ يَنْظُـرونَ جَـمِيعًـا

كَيْفَ أَبْنِي قَوَاعِدَ المَجْـدِ وَحْـدِي

وَبُنَـاةُ الأَهْرَامِ فِي سَـالِفِ الدَّهْـرِ

كَفَوْنِـــي الكَـلامَ عِنْـدَ التَّحَـدِّي

أَنَـا تَـاجُ العَلاَءِ فِي مَفْرِقِ الشَّـرْقِ

وَدُرَّاتُـــــهُ فَـرَائِـدُ عِـقْـــدِي

مَـا رَمَـانِي رَامٍ وَرَاحَ سَلِيْـمَـــا

مِـنْ قَـدِيـمٍ.. عِنَايَـةُ اللهِ جُنْـدِي

حافظ إبراهيم
شاعر النيل

إهـــداء

إلى أرض مـصرَ المقدّسـة..

التى ارتـوَت

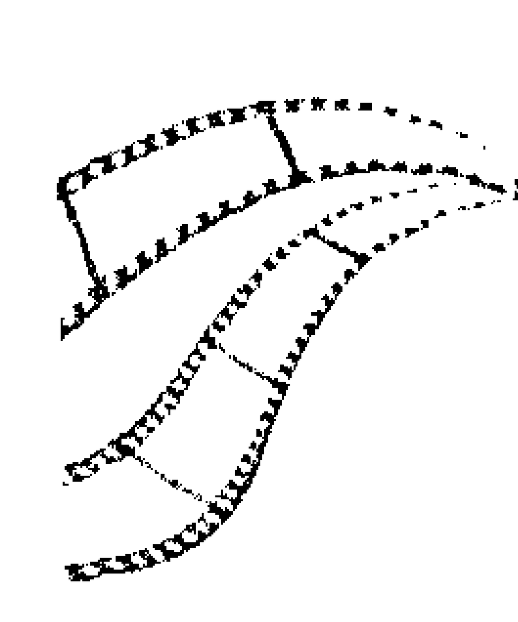
بدمـاء الشـهَـداء الأبـرار الأبطـال..

الذيـن سـقطوا فـداءً لأمّ الدُّنيـا

فى أكتـوبر عـام ١٩٧٣..

وهـم عند ربّهـم يُرزقُـون.

محمد مؤنس عـوض



مقدمة

عنوان هذا الكتاب «مصر تروى تاريخها». وهو قائم على فكرة أن مصر دولة الجغرافيا والتاريخ العظمى «عبر عصوره المختلفة» تتحدث بلسانها عن تاريخها برؤية بانورامية، وبنظرة الصقر المحلّق، من أجل تيسير هذا التاريخ لكافة القراء مهما اختلفت مستوياتهم الثقافية، وبالتالى يصبح ذلك التاريخ ذا نبض خاص لا يعنى بالتفصيلات الجزئية الصغيرة، وإنما بالقضايا العامة الكبرى التى مسّت أرض الكنانة.

ويلاحظ أن فكرة الكتاب راودتنى من خلال اغترابى عن مصر خلال الفترة من عام ١٩٩١ إلى ١٩٩٧م، إذ أدركت وأنا بعيد عنها كم هى قريبة جدًا منى! فكانت كالدماء التى تجرى فى عروقى، وراودتنى رغبة عارمة فى تأليف كتاب عن تاريخها بلسانها هى، على نحو يعمق الانتماء والارتباط بتلك البقعة الخالدة من هذا العالم.. قلبه النابض جغرافيًا وتاريخيًا.

ومن المنطقى أن يلاحظ القارئ ارتفاع نبرة الوطنية فى طيّات الكتاب، بل التحمس الشديد لمصر، وهو أمر أتصوره بديهيًا، فقد تحمّس لتاريخها المجيد كافة علماء علم المصريات Egyptology فى العديد من بقاع العالم، من اليابان شرقًا حتى الولايات المتحدة الأمريكية غربًا، وهم فى ذلك يقرّون واقعًا تاريخيًا جليًا لا يحتاج إلى تأكيد أو مزايدة.

ويلاحظ أن زاوية الوطنية أمر مقصود بعد أن لاحظ كاتب هذه السطور ابتعاد

قطاعات من شباب مصر عن الارتباط بأمّهم الكبرى، بل بالتباهى بكل ما هو غربى، أو أجنبى وافد عليها !

وعلى أية حال، ان الكتاب الذى بين يدى القارئ من قبيل «الثقافة التاريخية»، وهو بالتالى لا يعد كتابًا «أكاديميًا» بالمعنى الدقيق للكلمة، إذ إن مؤلفه ضاق ذرعًا بالمؤلفات الأكاديمية، ويجد أننا فى مسيس الحاجة للتأليف التاريخى التثقيفى؛ كى تخرج دراسة التاريخ من أروقة الجامعات الضيقة إلى أن تكون فى كل بيت من بيوت مصرنا الغالية؛ وتلك هى المهمّة الحقيقية للمؤرخين إلى جانب دورهم الأكاديمى بطبيعة الحال.

إن المؤلف يتصور أن المطالع لأقسام الكتاب ستزداد لديه زاوية عشق مصر التى هى الزاد الحقيقى لنا فى عصر تزايدت فيه طَعنات الأعداء على أم الدنيا من الداخل والخارج، وما أحوجنا الآن أكثر من أى وقت مضى إلى العودة إلى حضن مصر الذى ما ضَنَّ على أحد، حتى الذين عقّوها وعادوا إليها نادمين، وما زلت أتذكر عبارة مؤلمة خطها بقلمه أحد أساتذتى فى إهداء أحد كتبه، حيث كتب عبارة تقول: «إلى مصر... الحُبّ الذى نسيناه».

وعلى أية حال، لم تكن الكتابة فى الموضوع المذكور أمرًا سهلاً أو هينًا؛ إذ تطلب الرجوع إلى العديد من المصادر التاريخية، وكذلك المراجع الحديثة، كما أجريت عددًا من اللقاءات مع من شارك فى الأحداث، مثلما حدث بالنسبة لحرب أكتوبر المجيدة عام ١٩٧٣م، والتى أتمنى أن أخصص لها كتابًا مستقلاً إذا طال العمر بكاتب هذه السطور.

ومن زاوية أخرى، حرصت أصدق الحرص على إبراز عدة قيم أساسية فى تاريخ مصر قديمًا، ووسيطًا، وحديثًا، وأهمها التضحية والفداء، وأنها دومًا كانت وستظل مقبرةً للغزاة، وقد مضى حكامها إلى حال سبيلهم بسياساتهم المختلفة، الإيجابى منها والسلبى، وظلت مصر باقية بتاريخها الخصيب المديد، وأن حكم التاريخ سينال الجميع دون ما استثناء، وعندئذ ستذكر الحقائق دون ما مواربة أو رياء أو مجاملة.

والهدف من وراء التركيز على تلك الزوايا السابقة جليّ تمامًا؛ إذ إن الأبناء عليهم امتلاك بعض قيم الأجداد والآباء، وإدراك أنهم يعيشون فى خير بلاد العالم حضارة وتاريخًا، ولذا؛ فإن فدائها فريضة حب نقدّمه لأم العالم مصرنا الغالية، وفى نفس الحين، عليهم ألا ينبهروا بكل ما يأتى من الغرب حتى لا يكونوا مجرد دُمَى تحرّك عن بعد دون وعى، وبتجاهل للهوية المصرية التى هى الملاذ إذا ما تعاظمت الأخطار.

ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى أننى قُمت باختصار بعض المراحل التاريخية، والاهتمام بمراحل أخرى، وبالتالى لم يكن عرضى لمراحل ذلك التاريخ بصورة تقليدية معتادة، ولعل ذلك يرجع إلى الحيوية الخاصة لمرحلة ما عند مقارنتها بمرحلة أخرى، كذلك تراوح تاريخ أرض الكنانة بين تألق هنا وانحسار هناك، مع عدم إغفال أن كافة فترات تاريخها يمثّل امتدادًا طبيعيًا لنهر واحد لا يتجزأ.

ختامًا.. أتوجه بباقات الثناء، وأزاهير الشكر والتقدير لكل من قدّم لى نصحًا أو رأيًا نقديا فى الكتاب، وما مؤلفه إلا عاشق صغير فى محراب عشق أم الدنيا حتى الفناء!، ودائمًا وأبدًا أردد قول الحق تبارك وتعالى: «وفوق كل ذى علم عليم».

أ. د. محمد مؤنس عوض

أستاذ تاريخ العصور الوسطى

- ١ -

أنا مصر، أم الدنيا وسيدة هذا العالم أجمع. شهدَت أرضى أقدم حضارة فى التاريخ وشيّد أبنائى الأهرام والمعابد، وأخضعوا نهر النيل لإرادتهم، فصار عاشقًا لترابى المقدّس منذ آلاف السنين، وارتبطت بالزواج به بعد قصة عِشق طالت بطول ذلك النهر، لم يزل يتردّد صداها فى عروق أبنائى إلى الآن.

أنا مصر، قاهرة الغزاة ومقبرتهم، أتانى الأعداء من الشرق والغرب. منهم من ظل جاثمًا على صدرى مئات السنين، لكنى طردته فى النهاية شرّ طردة، لأننى أمتلك خاصية الامتصاص، والفلترة، واللفظ. ومنهم من تمصّر، فصار مصريًا، لقد انتصر علىّ بقوة السلاح الغاشمة، وهزمته بقوة الحضارة! ويا له من سلاح فتّاك لا تقوى عليه دولة إلا أنا.. مصر، أم الدنيا وأم الحضارة !!!

أنا مصر، وقف التاريخ أمامى تلميذًا صغيرًا يحبو، وطلب منى أن يتعلم فى مدرستى التى تعلّم فيها الجميع الأحرف الأولى، فأعطيته درس الخلود !!! واعترف لى أنه لن يكتب حرفًا واحدًا فى سفره العظيم دون إذن منى !! وقال مقولته الرائعة التى رددها «جيمس برستد» عالم المصريات الذى طَبقت شهرته الآفاق، «فجر الضمير ولد على أرض مصر»، كناية عن الطابع الأخلاقى الأصيل لحضارتى الخالدة.

أنا مصر، ترابى مقدّس، سقط دفاعًا عنه مئات الآلاف من الشهداء الذين لم يطمعوا إلا

فى لقب خالد واحد هو «شهيد أم الدنيا»، وما زلت أحتفظ فى ذاكرتى - التى لا و لم ولن تنضب - بأسمائهم واحدًا واحدًا من الرجال، والنساء والأطفال. لم أنس منهم شهيدًا، وهناك الملايين الذين ينتظرون الشهادة فورًا؛ دفاعًا عن ذلك التراب الذى لا يقترب منه غازٍ إلا وكان بحق مقبرته !!!.

فى الصفحات التالية سأروى قصتى مع التاريخ بصدق وأمانة، كى يعرف أبنائى أن تاريخى ملحمة بطولية كبرى على نحو يجعلنى متفردة على كافة دول هذا العالم شرقًا وغربًا، شمالاً وجنوبًا.

والآن، أدعو القارئ إلى تصفح قبسات من تاريخى؛ كى يزداد اقتناعًا أننى بالفعل « أم الدنيا »، وليفتخر كل مصرى يعيش على أرضى الطاهرة الخالدة الساحرة الجميلة بمصريته التى هى وسام إلهى حتى آخر لحظة فى عمر هذا الزمان، وليدرك أن تاريخى نبراس حى للجميع، ويُدرّس فى كافة مناهج التعليم فى العالم أجمع، هل هناك شرف أعظم أو أرفع من ذلك؟ لا، إنها الخصوصية الحضارية التى خصّها بى إلهى الواحد الأحد، الذى جعلنى قبلة الحضارة والإنسانية، وكعبة التاريخ دون منازع.

-٢-

وهبنى الله تعالى موقعًا جغرافيًا متوسطًا وفريدًا لم يكن ليتأتى لعشرات الدول. فأنا أقع فى شمال شرقى قارة أفريقيا، كما أن جزءًا منى يقع فى قارة آسيا فى صورة شبه جزيرة سيناء. وامتدت حدودى من رفح شرقًا إلى ليبيا غربًا فى الشمال وفى الجنوب من حلايب إلى جبل العوينات عند الحدود المصرية السودانية الليبية. وقد بلغ طول ضلعى الشمالى من البحر المتوسط حتى حدود السودان ١٠٧٣ كم، بينما طول العرض من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب عند ليبيا بلغ ١٢٢٦ كم، كما أن أرضى تطلّ على بحرين هما: الأحمر الذى يصلنى بآسيا، والمتوسط الذى يصلنى بأوربا.

إن تلك الحدود المعروفة قد ظلت لآلاف السنين كما هى، حقيقة كانت تتسع بين الحين والآخر، بل كانت لى أحيانًا فى عصر فراعنتى الأقوياء إمبراطورية عظيمة امتدت شمالاً إلى نهر الفرات، إلا أن حدودى السالفة الذكر ظلت دون ما تغيير على مدى عصور التاريخ، وهو أمر لم يتأت للعديد من دول العالم التى كثيرًا ما طرأ عليها التغيير والتبديل بالزيادة والنقصان، والاستثناء الوحيد الذى يشبهنى فى ذلك الصين الدولة الآسيوية العريقة التاريخ والحضارة.

ارتبط تاريخى أجمعه بنهر خالد هو نهر النيل الذى يوصف – وبحق – بأنه أبو الأنهار، والذى ينبع من أثيوبيا، وسار فى رحلة ساحرة رائعة طويلة إلى أن اختارنى أنا

من بين عدة دول، بل يقترن بى فى زفاف أسطورى متجدد نادر المثال لا تزال موسيقاه الساحرة الفاتنة الجميلة تعزف حتى اليوم وإلى آخر ثانية من عمر هذا الزمان، وصرت أنا مصر - دون غيرى- دولة المصب؛ كى يصب ذلك النهر الخالد فى البحر المتوسط «أبو البحار» كما وصفه ابنى الفذّ جمال حمدان.

ولكن ما هو نهر النيل هذا الذى يجرى فى دماء أبنائى، وكثيرون لا يعرفون عنه إلا القليل؟

نهر النيل يا أبنائى - بلا ريب- أعظم أنهار العالم وأطولها. ويبلغ طوله ٦٧٠٠ كم من منابعه فى بحيرة فيكتوريا بأثيوبيا حتى مصبه فى البحر المتوسط، ويمر بالعديد من الدول هى: أثيوبيا، تنزانيا، كينيا، أوغندا، الكونغو، رواندا، بورندى، السودان، وأخيرًا أنا مصر.. واسم النيل هو اسم مصرى موغل فى القدم، وكان أبنائى القدماء يسمونه (نى- ال) وتعنى باللغة المصرية القديمة النهر، ثم عرفت فيما بعد باسم «نيل»، وصار ذلك النهر يعرف بنهر النيل.

على أية حال، نهر النيل العظيم هذا يهبط من هضبة الحبشة، ومن بحيرتى: فيكتوريا وألبرت. وهناك فروع له مثل نهر «سمليكى» الذى يستمد مياهه من بحيرة ألبرت، ويطلق على أجزاء منه «بحر الجبل»، كما أن هناك نهرًا آخر يسمى «بحر الغزال» الذى يلتقى بنهر «السوباط»، وكلها تلتقى بنهر النيل عند مدينة الخرطوم بالسودان عندما يلتقى أكبر فرعين لنهر النيل هما «النيل الأبيض، و»النيل الأزرق»، ليكونا معًا نهر النيل الذى يمر على أرضى ويصب فى البحر المتوسط.

لا أغفل التنبيه على أبنائى بأن ذلك النهر يقدم لى حاليًا ٩٥٪ من احتياجاتى من المياه، وتبلغ حصتى منه نحو ٥٥,٥ مليار متر مكعب من المياه كل عام، وهى حصة تتناقص مع الزيادة السكانية الهائلة سنويًا.

ويلاحظ أن نهر النيل يتفرع بعد القاهرة إلى فرعين رئيسيين هما: فرع رشيد من جهة الغرب، وفرع دمياط من جهة الشرق، والاثنان يصبان فى البحر المتوسط. ومن الفرعين المذكورين تتفرع الرياحات، وهى فروع من النهر الأصلى. فهناك الرياح التوفيقى الذى يروى الأراضى الواقعة شرق فرع دمياط، ويخرج منه ترعتا بحر موسى والبحر الصغير. وهناك الرياح المنوفى ويروى الأراضى الواقعة بين فرعى النيل، ويتفرع منه بحر شبين. كذلك لا أغفل ما يعرف بالرياح البحرى الذى يقوم برى الأراضى الواقعة غرب فرع رشيد.

أما بالنسبة للترع، فهناك العديد منها، مثل ترعة الإسماعيلية التى تبدأ من القاهرة وتتجه إلى فرعين: فرع إلى بورسعيد والآخر إلى السويس. وهناك ترعة المحمودية، وتبدأ من فرع رشيد لتصل إلى الإسكندرية. كذلك أذكر ترعة السوهاجية ومياهها من النيل عند محافظة سوهاج لتروى أراضى أسيوط وسوهاج، أما ترعة الإبراهيمية، فمياهها من النيل عند قناطر أسيوط.

وإذا ذكر نهر النيل فلا بد من ذكر السد العالى الذى يعدّ - وبحقّ - أعظم السدود التى أقيمت على ذلك النهر الخالد إلى الآن، ويعد من أهم الإنجازات المعمارية فى القرن العشرين على مستوى العالم، وهو أعظم السدود فى منطقة الشرق الأوسط بأسرها، ويقع خلفه بحيرة ناصر، وهى أكبر بحيرة صناعية فى العالم، وتتوزع بين أرضى وأرض السودان الشقيق، ويطلق عليها بحيرة السد العالى أو بحيرة ناصر نسبة إلى جمال عبد الناصر الذى أدار معركة السد العالى باقتدار من أجلى، ولذلك فإن ذلك السد يمتاز على سائر السدود الأخرى بأنه عكس تاريخ أمة تريد الحرية والاستقلال، وصاحبت بناءه معركة سياسية لا تنكر.

إن ذلك السدّ يقدم لى نصف احتياجاتى من الكهرباء، ويعمل على التقليل من آثار الفيضان الذى كان يغرق أرضى من قبل، كما يعمل على حمايتى من أخطار الجفاف

المدمرة الذى عانت منها العديد من الدول الأفريقية الأخرى، وهو أمر أكّد أهمية ذلك الصرح المعمارى العملاق وجاء ردًا من السماء على حملات المتشككين فى جدواه.

ومن ناحية أخرى، كانت أرضى موزعة بين صحارى وسهول، من أمثلتها الصحراء الشرقية، وكذلك الغربية، والسهل الساحلى الممتد من بلاد الشام، ويمرّ بى حتى حدودى الغربية. وكان نهر النيل هو المركز الذى ارتبط به تاريخى بأسره قديمًا ووسيطًا وحديثًا، و لم يحدث أن نهرًا ما ارتبط بشعب من الشعوب كما فى حالة ذلك النهر عاشقى الخالد.

وقديمًا قال المؤرخ اليونانى هيرودوت، الذى عاصر القرن الخامس ق.م.، إننى «هبة النيل»، إلى أن جاء أحد أبنائى وهو محمد شفيق غربال وتنبه إلى أننى هبة النيل وهبة المصريين الذين تمكنوا من إخضاع ذلك النهر لإرادتهم بإقامة الترع والقنوات والجسور، وأخيرًا السدّ العالى. وهكذا، فإن أبنائى المصريين هم الذين لهم النصيب الأوفر فيما بلغته من رفعة وسؤدد على مرّ الزمان.

ويكفى للتدليل على عظمة أبنائى المصريين، أن ذلك النهر كان يأتى كل عام إلىّ بالطمى الذى يخصب أرضى، ويجعل ما يزرع بى على درجة عالية من الجودة، غير أنه أحيانًا أخرى قدم إلىّ قويًا بالغ القوة على نحو أدّى إلى إغراق البيوت والحقول، وتشريد الآلاف من أبنائى. كما أن ماءً غزيرًا تم إهداره على نحو بعث فى القلب الحسرة، وفى النفس الألم المؤلم. وظل الأمر هكذا لآلاف السنين، إلى أن أقام أبنائى المخلصين الذين رضعوا من حليب عشقى «السد العالى» السالف الذكر فى أسوان والذى اكتمل عام ١٩٧٠م. وبالتالى أمكن – لأول مرة – ترويض نهر النيل، وكبح جماح ثوراته المائية العارمة، وتأكّد للقاصى والدانى عظمة أبنائى المصريين الذين وهبهم الله لى ووهبهم إياى، وصار أمرًا واقعًا القول: إننى هبة النيل الخالد، وأبنائى الخالدين أيضًا خلود نهرهم الذى يجرى فى عروقهم فيوحدهم فى الأخطار، والأحاسيس، والمشاعر سواء كانوا من المسلمين أو الأقباط.

كذلك لا أغفل ناحية محورية، وهى أن الظروف المناخية أثرت على تطور تاريخى منذ القدم، فشمسى مشرقة طوال العام، ومناخى معتدل، وسمائى صافية. كل ذلك جعل أبنائى من المصريين اجتماعيين بطبعهم، ومترابطين معًا، وفى وحدة نفسية واحدة، بل إن تلك المظاهر الجغرافية جعلتهم يتفكرون فى القوة الإلهية الخالقة لكل ذلك العالم، فلا عجب إذا ظهر منذ القدم على أرضى الأنبياء والصالحون والرهبان والزهّاد والمتصوّفة، وما ذلك إلا انعكاسًا طبيعيًا للأحوال المناخية التى عاشت خلالها أرضى المقدّسة، وعلى حين كانت مناطق فى أقصى شمال غربى أوربا –حيث المناخ شديد البرودة إلى درجة التجمد والجليد يكسو الأرض– آخر المناطق التى ظهرت بها الحضارة، أما أنا، فأم الحضارة. ولو بحثت أيها القارئ عن السرّ فستجده فى الشمس المشرقة والمناخ المعتدل عمومًا، وبالتالى طبيعة أبنائى المصريين الذين كانوا مهيكين – أكثر من غيرهم _ من أجل تشييد صروح الحضارة.وقد سألنى البعض: كيف أثّر الموقع الجغرافى وطبيعة أرضك على تاريخك يا مصر؟ وأجيب من فورى: إن موقعى السالف الذكر جعلنى جزءًا لا يتجزأ من قارتى أفريقيا وآسيا، وأواجه قارة أوربا، وهكذا صرت أواجه ثلاث قارات فى آن واحد، وكان البحر المتوسط بمثابة الشريان الحيوى الذى يضخ الحياة بين القارات المذكورة. وفى أحيان ما كان التأثير الآسيوى أكبر من غيره، ونفس الأمر التأثير الأوربى على مر تاريخى قديمًا ووسيطًا وحديثًا، غير أن الطابع الأفريقى الأصيل ظل قائما دون أن يغيره أحد، وكان نهر النيل بمثابة الحبل السرّى الذى ربطنى بتلك القارة التى وصفت وصفًا استعماريًا بأنها قارة سوداء، والحقيقة أنها خضراء إذا حسن استغلال مواردها وثرواتها من جانب أبنائها، وتوقفت الأطماع الاستعمارية حيالها، وكذلك الانقلابات العسكرية من جانب بعض أبنائها عشّاق السلطة، وكذلك الصراعات العرقية.

وقد ردد البعض أمامى يومًا أن ذلك الموقع الجغرافى المتوسط والفريد ـ الذى تحكّم فى خطوط المواصلات بين الشرق والغرب، والذى مرّت عبره التجارة العالمية ـ جعلنى مطمعًا للعديد من الغزاة على مر حقب التاريخ المختلفة، وحرص الغزاة على نهب مواردى

الاقتصادية بصورة منظمة على نحو لم يكن ليحدث فى تاريخ عشرات الدول الأخرى على خريطة العالم.

غير أن ذلك القول ليس كامل الصواب؛ إذ إن الغزاة قدِموا إلىّ وأمضوا بى زمنًا طال أم قصر، ثم رحلوا، وبقيت أنا، وكانت كل تجربة تدعم شخصيتى التاريخية، وتدعم روح التحدى والمقاومة والفداء.

بالإضافة إلى أن أى موقع جغرافى لا يصنع تاريخًا بمفرده دون الشعب الذى يعيش من خلاله. وبصفة عامة، فإن شعبى اكتشف نفسه مرّات ومرّات من خلال ملاحم نضاله وكفاحه ضد الغزاة على مدى مراحل تاريخه المديد الزاهر.

وعلى أية حال، امتازت طبيعتى الجغرافية بالبساطة وعدم التعقيد، فلم تكن هناك جبال شاهقة وعرة التضاريس تسمح بوجود قوى انعزالية، أو تدعم حركات استقلالية انفصالية عن المركز الحاكم، وانعكس ذلك على طبيعة شعبى الساكن على أرضى المقدسة، إنه شعب مسالم ومتسامح وودود واجتماعى بطبعه، يرفض التطرف والتعصب والتشدد فى كافة صوره. وهكذا، فعلى حين استمرت بعض التيارات الدينية المتشددة فى بلاد الشام المجاورة لى، فإننى لم أحتضن أيًا منها، والتعليل الحقيقى من وراء ذلك، أن طبيعتى الجغرافية وشخصية شعبى التاريخية رفضت ذلك رفضًا باتًا لأنه – وببساطة – يتنافى مع ما جُبل عليه ذلك الشعب عبر حقب التاريخ المتعددة من حيث التسامح ونبذ التشدّد.

ومن البداية، أقرر لقراء تاريخى ما قاله أحد أبنائى العباقرة وهو جمال حمدان صاحب موسوعة «شخصية مصر دراسة فى عبقرية المكان»، إذ قرر أن مصر وإن كانت جغرافيًا أفريقية، إلا أنها تاريخيًا صنيعة آسيوية، وقد صدق فى ذلك، إذ إن قارة آسيا قدم منها كافة الغزاة، وكانت شبه جزيرة سيناء بمثابة الممر أو الجسر الذى مرّ عليه كافة الذين هاجمونى إلى أن هيأ الله تعالى لى العرب الفاتحين الذين أنقذونى من الجور البيزنطى، وأدخلونى فى مرحلة خالدة من مراحل تاريخى المديد.

ومن زاوية أخرى، يتركز تاريخى حول العلاقة المتبادلة بين البطل القائد الفرد، والبطل القائد الشعب. فإذا أرسل الله جل شأنه لى قائدًا فذًا موهوبًا يعرف نبض الجماهير ويقودها إلى ما تتمناه وتشتاق إليه دون التغرير بها، وترافق معه شعور وطنى جارف من أبنائى، عندئذ نجد تاريخى فى مرحلة مخاض وبعث جديد. أما إذا حدث العكس - لا قدّر الله تعالى - فاعلم أن تاريخى عندئذ يئن ويبكى ويشتكى مرارة الأيام الكئيبة.

ولا أغفل حقيقة محورية لعشاق تاريخى، وهى أن المحن والكوارث والنكبات التى حدثت على أرضى كانت من الكثرة على نحو يصعب وجودها فى تاريخ بلد آخر، وكأن قدرى أن أُصاب بمثل تلك الأحداث المؤسفة بل والمأساوية بين الحين والآخر. ومع ذلك، كنت أخرج سالمة معافة، وأمتص كل ذلك، وأتطلع إلى المستقبل بروح وثّابة عاشقة للحياة وقلب مفعم بالأمل الأخضر. لم يعرف اليأس الأسود طريقًا إلى قلبى البتة، وظل المجد حليفى، وصار الانتصار أخى الشقيق المخلص الذى لم يغدر بى يومًا، وكنت أخرج من كل محنة أو كارثة أو نكبة، وقد خُلقت خلقًا جديدًا، حتى إن الدهشة عقدت ألسنة أعدائى، وحاولوا البحث عن إجابة، فلم يجدوا، ولم يعرفوا أن وراء ذلك كله حيويتى وشبابى الذى لم ولن يشيخ، وقدرة أبنائى الذين هم عُشاقى وحُماتى، على الاستمرار وعشق الحياة مهما كانت الصعاب، وامتلاك الرغبة الصادقة فى التجدد وتجاوز الصعاب مهما كان حجمها.

وبالإضافة إلى ذلك فقد لعب الدين دورًا محوريًا فى شخصيتى التاريخية. فالتوحيد ظهر على أرضى من خلال فرعون مصر المصلح الدينى الأول أخناتون، وعلى أرضى أيضًا تعددت رحلة الأديان: اليهودية والمسيحية - ولا أغفل أن الرهبنة ولدت عندى - والإسلام، ولا يمكن كتابة تاريخ تلك الأديان السماوية الثلاثة دون كلمة «مصر». وهكذا يتأكد للقاصى والدانى أننى البوتقة التى انصهرت فيها تلك الديانات السماوية.

والملاحظ فى هذا الشأن أن تدينى من النوع المعتدل، الذى لا يعرف التطرف إليه

سبيلاً، أو التشدّد مقامًا. وبصفة عامة، كانت ولا زالت وستظل شخصية المصرى دعامتها الأولى التديّن، وإذا أردت إيجاز أو تلخيص تاريخ أبنائى فى كلمتين عبر عصوره المختلفة فإنى أحددهما فى: «الدين» و»الحرية»، لا يستطيع ابنى أن يحيا دونهما البتة، وليست الحياة لديه خبز فقط، بل «دين» و»حرية» و»خبز». وفى مقدوره الثورة من أجل دينه إذا شعر يومًا أنه مهدد بالخطر، لأن الدين بالنسبة للمصرى يعنى الهوية.

كذلك، فإن تاريخى على مدى أكثر من أربعة عشر قرنًا من عمر الزمان، لا يكتب البتة دون العناق الأبدى بين المسيحية والإسلام على أرضى المباركة. ألم تسمع أيها القارئ العزيز العبارة الرائعة: «مبارك شعب مصر»؟ وكذلك العبارة المنسوبة إلى نبى الإسلام عليه أشرف الصلاة وأزكى السلام: «استوصوا بقبط مصر»؟ لقد عاشت الديانتان على أرضى، وصار التعدد الدينى أساس تاريخى، ومن خلال روح التسامح كتب التاريخ لى ولأبنائى المسلمين والأقباط معًا أنصع الصفحات.

لقد قدم إلى أرضى الرحالة الأجانب، لا سيما فى القرون الوسطى، من جميع الأديان، ومنهم من لاحظ أنه لايمكن التفرقة بين القبطى والمسلم على أرضى، كذلك أدركوا أن كلاً من الطرفين يتعبّد لخالقه بالطريقة التى ارتضاها ضميره دون ما إكراه، فقد قال الإسلام منذ ألف وأربعمائة عام عبارته الخالدة: «لا إكراه فى الدين».

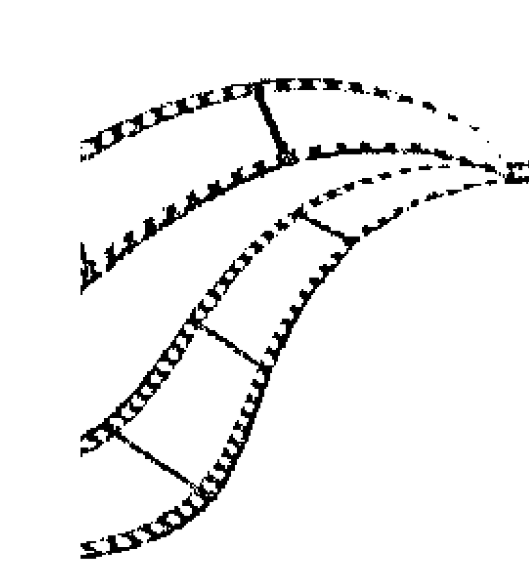
وهكذا يا أبنائى، إن نبض روحى فى التسامح، وإن أسوأ لحظات تاريخى فى التعصب الأسود الأعمى المجنون. اجعلوا التسامح نبراسكم الهادى إلى أمنى وسعادتى، وقدموا للعالم أجمع أفضل صورة لأم العالم التى يحيا على أرضها الإسلام والمسيحية فى عناق أخوى راق.

ولا يُفهم تاريخى دون «روح السخرية» الكامنة فى أعماق أعماقى، فالملاحظ أن الأعداء تكالبوا علىّ من كل حدب وصوب بصورة يندر وجودها فى تاريخ وطن آخر، وفى أحيان كثيرة لم يكن يستطيع أبنائى أن يدفعوا جحافل الغزاة وبطش آلتهم العسكرية

المدمّرة. وهكذا، كان أمامى طريق واحد لا مفر منه، هو التهكم من أولئك الذين قدموا لإخضاعى. وكذلك كان هناك الحكام الجائرون الذين أرادوا قهرى، فقهرتهم بالنكات وعبارات السخرية المريرة، التى تناقلتها الألسن فى سرعة البرق، بل وتوارثتها الأجيال كابرًا عن كابر!!! واعلموا يا أبنائى أننى ما رأيت سلاحًا ماضيًا يطلق فى لحظات معدودة فيجلب السعادة إلى قلوب الساخرين، وفى الحين نفسه العار على من سخر منه، مثل ذلك السلاح!.

لقد أدرك عدد من الباحثين الغربيين تلك الزاوية فى شخصيتى التاريخية، وعملوا على دراستها وأدركوا كيف أن المصرى يملك روح الدعابة والتنكيت، وهى بمثابة نهر ما جفّ يومًا ولن يجفّ. ومع ذلك، لم يكن ذلك بمثابة الحلّ الوحيد، بل ثار أبنائى ضد الطغاة على اختلاف أشكالهم وصورهم. ولذا فإن تاريخى عامر بالثورات العارمة إذا ما اشتدّ الظلم من الحكام. وهكذا، تتحول النكات إلى جزء لا يتجزأ من «تسليح» شعبى الذى ما ارتضى بالضيم يومًا وإن حدث كاضطرار، اختزن ثورته إلى يوم ترصده السماء فكانت كالبركان الثائر الذى لا يوقف طريقه أحد فى سبيل تحقيق أهدافه العليا المنشودة التى تاقت نفسه طويلاً إليها.

تلك قصة روح السخرية التى عُرف بها شعبى الخالد على مر العصور. رحل الطغاة والغزاة، وبقيت النكات تبعث فى نفوس أبنائى الأمل فى أن جبروت القوة لن يجدى، فها هى عبارات التندر تطلق بين الحين والآخر، لقد كانت السلاح والعزاء والأمل فى الليالى الكئيبة الطويلة، ذات الظلام الدامس إلى أن بزغ الفجر بعد طول انتظار، حاضنًا معه نهارًا جديدًا جميلاً مشرقًا بالأمل الأخضر.



– ٣ –



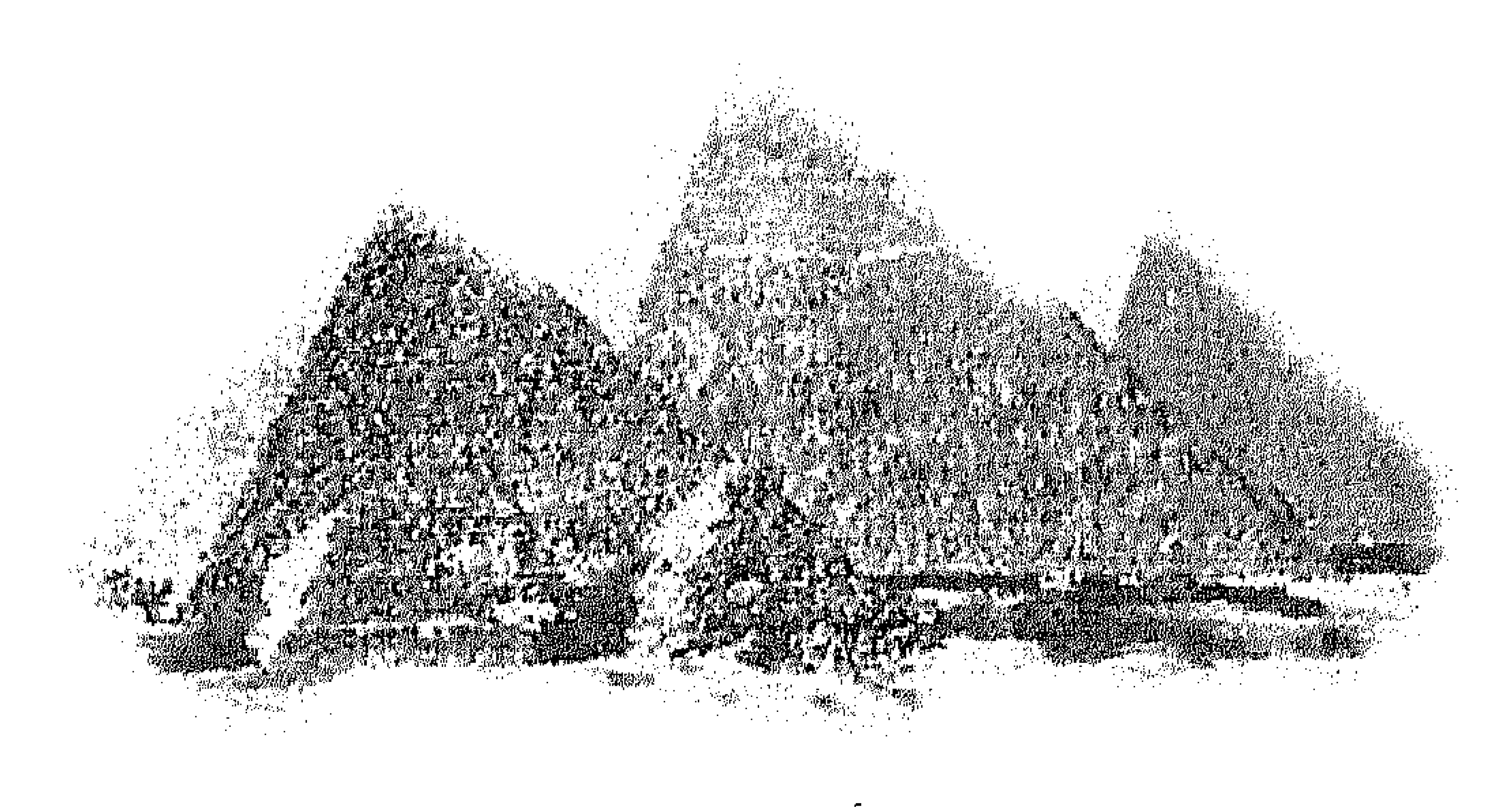
لوحة نارمر

فى مرحلة تاريخية بالغة القدم، حوالى عام ٣٢٠٠ ق.م، تمكن أحد أبنائى ويدعى نارمر فى طيبة (الأقصر حاليًا) من توحيد القسم الشمالى والجنوبى من أرضى الطاهرة، ولدىّ لوحة تذكارية عرفت بلوحة نارمر تصوره ممسكًا بأسير من أهل الشمال، ويلاحظ أن ذلك الملك – مينا بعد التوحيد – قام باختيار عاصمة له سميت منف (ميت رهينة– مركز البدرشين بالجيزة حاليًا)، وبصفة عامة، يطلق المؤرخون على حكم الأسرتين الأولى والثانية ـ الذى امتدّ من عام ٣٢٠٠ إلى عام ٢٧٨٠ق.م ـ عصر توحيد أرضى تحت قوة سياسية واحدة، فى وقت كان العالم لا يُعرف له تاريخ حقيقى.

أما عصر الدولة القديمة، الذى شمل الأسرات من الثانية حتى السادسة، فقد شغل المرحلة الزمنية من عام ٢٧٨٠ إلى عام ٢٢٨٠ ق.م، وفيه نجد تشييد الأهرام الثلاثة: خوفو وخفرع ومنكاورع، التى تعدّ من عجائب الدنيا السبع. وهناك من يقرر أن الهرم الأكبر احتوى على ٢,٣٠٠,٠٠٠ حجر، وقد استغرق تشييده ٢٠ عامًا، والواقع أن الهدف من تشييد الأهرام أن تكونُ بمثابة مقبرة ملكية. أما فيما يتصل بتمثال أبى الهول،

فقد قام أبنائى فى عهد الملك خفرع بنحت ذلك التمثال من صخرة ضخمة على صورة أسد رابض له رأس إنسان، وطول ذلك التمثال ٥٧ مترًا، وارتفاعه ٢٠ مترًا، وطول وجهه ٥ أمتار.

إن من يطالع تلك الأهرام يدرك من فوره عظمة أبنائى الذين رحلوا وتركوا تلك الآثار شاهدةً عليهم، وجعلوا الصخور تتحدث عن مجدهم التليد. ويتملك المرء العجب



أهرام الجيزة

والدهشة كيف أمكن للمصرى القديم إنجاز ذلك العمل الإعجازى الذى يصعب على البشر تقليده الآن، على الرغم من الفارق التكنولوجى الشاسع. وكيف أمكنهم نقل قطع الحجارة الضخمة إلى ذلك الموقع فى الجيزة، إنها عزيمة المصريين التى هى أقوى من الحجارة، وهناك من الأدعياء من ردد أن مخلوقات فضائية هبطت من السماء وأعانت أبنائى المصريين بصورة أو بأخرى على تشييد تلك العمائر الإعجازية!، ولعمرى إنها فرية رددها بعض السذّج، وصدّقها البعض الآخر دون إدراك أن أبنائى يملكون العبقرية التى تدهش العالم، وما زال الملايين من أبناء هذا العالم يتمنون القدوم إلى أرضى المباركة من أجل مشاهدة الأهرام التى هى الشاهد على عظمة أبنائى وخلود إنجازاتهم الباهرة.

أما الأسرات من السابعة إلى العاشرة، فقد أطلق عليها عصر الاضمحلال الأول، وامتد

زمنيًا بين عامى ٢٢٨٠ إلى ٢٠٥٢ ق.م وقد انتشرت فيه مظاهر الفوضى والاضطراب، وزادت مطامع قبائل البدو والآسيويين فى خيراتى، لقد كان ضعفى دائمًا مغريًا لأعدائى على مرّ عصور التاريخ.

وبعد ذلك، ظهرت إلى الوجود الأسرتان الحادية عشرة والثانية عشرة فى صورة ما عرف بعصر الدولة الوسطى، وامتد بين عامى ٢١٢٤ إلى ١٧٧٨ ق.م، ومن أشهر ملوك تلك المرحلة امنمحات الأول الذى نصّب نفسه ملكًا على شعبى حوالى عام ٢٠٠٠ ق.م. وهناك سنوسرت الثالث وامنمحات الثالث. ويقال عن سنوسرت الثالث إنه قام بحفر قناة وصلت بين نهر النيل والبحر الأحمر عرفت بقناة سيزوستريس (وهى التسمية اليونانية القديمة لسنوسرت)، واعتبرت أقدم طريق مائى يصل بين البحرين الأحمر والمتوسط من خلال نهر النيل فى ذلك الزمن البعيد، على نحو عكس عقلية أبنائى المبتكرة دومًا.

أما الأسرات من الثالثة عشرة إلى السابعة عشرة، فقد أُطلق عليها عصر الاضمحلال الثانى، وامتد من أعوام ١٧٧٨ إلى ١٥٧٠ ق.م.، وقد شهد غزو الهكسوس لأرضى الذى كان بمثابة أول غزو أتعرض له من جانب قوة أجنبية غاشمة، وبالتالى عُدّ مقدمةً لحملات من الغزاة علىّ مدى العصور القديمة والوسطى حتى الحديثة.

والهكسوس قبائل بدوية، ولذلك أطلق عليهم أبنائى حينذاك الملوك الرعاة، وكانت أحوالى مضطربة على نحو مهّدت للغزاة الطريق، وقد قدموا إلى أرضى ومعهم العجلات الحربية التى تفوّق بها الغزاة على أبنائى، وقد اتخذوا من مدينة أواريس (صان الحجر بمحافظة الشرقية حاليًا) عاصمة لهم. وقد سيطروا على الجزء الشمالى، أما منطقة طيبة (الأقصر)، فقد ظل بها أبنائى الذين دافعوا عنها. لقد أسسوا الأسرة السابعة عشرة، وقاد المقاومة الملوك سقنن رع، وكاموزه، وأحمس، وقد اتجه الأخير إلى الشمال، وحاصر عاصمة الهكسوس فى صان الحجر، وتعقبهم بعد خروجهم من مصر إلى فلسطين فى أول محاولة فى التاريخ لتوحيد مصر وبلاد الشام. وقد عاد ابنى أحمس إلى أرضى بعد أن حقق

حلم شعبى البطل فى التحرير.

لقد أثبت الغزو الأجنبى، من جانب الهكسوس لأرضى، أن الفوضى والاضطراب تُطمع أعدائى فى أرضى وثرواتى، وأن الوحدة هى أساس القوة، ولذلك فعلى أبنائى فى كل عصر الاستفادة من تجارب الماضى حتى لا تتكرر مآسى الاحتلال الأجنبى لترابى المقدس ويدفع أولئك الأبناء الثمن فادحًا.

لقد تأكد لى ولأبنائى بعد ذلك أن ضعفى يغرى أعدائى بمهاجمتى، وأن شبه جزيرة سيناء هى المدخل النموذجى للعديد من الأعداء الذين طمعوا فى أرضى العامرة، وقد اغتنموا فرصة أنها صحراء مخلخلة السكان باستثناء عناصر محدودة من البدو تسكنها، كذلك تأكد لى أيضًا أن امتلاكى لجيش قوى يعدّ بمثابة الدرع الواقى الذى من شأنه إيقاف مطامع الطامعين فى خيراتى، وما أكثرهم عبر حقب التاريخ.

إن تجربة الهكسوس معى أثبتت، بما لا يدع مجالاً للشك، أن حضارتى تفرض نفسها على الأعداء، فها هم غزاتى يتمصّرون فاتخذوا ألقاب الفراعنة، كما أنهم ارتدوا ملابسهم، ومع ذلك لم يكن لأبنائى أن ينخدعوا بأولئك الغزاة إذ عملوا على محاربتهم إلى أن تمكنوا من طردهم من أرضى الطاهرة، فتنفّست الصعداء بعد طول احتلال واغتراب، وحزن أسود جارف مقيم.

ومن ناحية أخرى، اتضح لكل من طالع تاريخى خلال تلك المرحلة العصيبة، أننى بالفعل مقبرة للغزاة، وكان الهكسوس أول من انطبق عليه ذلك القول الخالد، واستمر الأمر

هكذا حتى مجيء الإسرائيليين فى العصر الحديث فنالوا نفس المصير، وتمت كلمة التاريخ الخالدة الصادقة التى لا يحيد عنها قيد أنملة مهما تعاقبت القرون.

على أية حال، مع مقدم الأسرات من الثامنة عشرة حتى العشرين، كان عصر الدولة

الحديثة، وقد امتدّ على مدى المرحلة من عام ١٥٧٠ إلى عام ١٠٨٥ ق.م، وخلاله حكم عدد من كبار الفراعنة ـ نساءً ورجالاً ـ على حد السواء، فهناك الملكة حتشبسوت من أشهر ملكات مصر الفرعونية، وقد نعمت أرضى وشعبى خلال حكمها بمرحلة ازدهار واضحة المعالم، وعملت على تشييد معبد الدير البحرى غربى طيبة (الأقصر). كذلك يذكر عنها قيامها بإرسال بعثة محملة بالهدايا إلى بلاد بونت التى يرجح أنها الصومال حاليًا، ويقال إنها عادت محملة بالأخشاب والأحجار الكريمة، والبخور والعاج، وغيرها من المنتجات. ودلّت تلك البعثة على روح الارتياد والاكتشاف التى توافرت لدى الإنسان المصرى منذ القدم، وعلى مكانتى الدولية بحيث إنها لم تكن تقتصر على حدودى الإقليمية فقط، بل دخَلتُ فى علاقات خارجية لها شأنها على الصعيد التجارى مع القوى القريبة منى.



الملكة حتشبسوت

على أية حال، حرصت تلك الملكة المصرية ـ حتشبسوت ـ على تسجيل رحلتها إلى بلاد بونت على جدران معبدها فى الدير البحرى بالأقصر؛ كى تظل خالدة على مدى الزمان. ومن يذهب إلى هناك يدرك مدى ذلك النشاط التجارى الذى ظهر جليًا فى عهد تلك الملكة المصرية، التى دخلت التاريخ من أوسع أبوابه فى عصور لم يكن هناك أى شأن للمرأة فيها، فأنا متحضرة وأبنائى كذلك، وقيمة المرأة لدى تاريخى قيمة عليا سامية. فتاريخى صنعه الرجال والنساء على حد السواء حتى من آلاف السنين.

من ناحية أخرى، يُذكر عن تلك الملكة المصرية الخالدة فى التاريخ قيامها بتشييد مسلّتين من الجرانيت تم جلبهما من أسوان، ونجد إحداهما فى معبد الكرنك فى الأقصر، ولا ريب أن ذلك أثبت لنا أن عهدها عهد ازدهار وعمران على نحو شهد به ما تم تدوينه على جدران معبدها فى الدير البحرى، وكذلك المسلّة السالفة الذكر.

ومن ملوك تلك الدولة تحتمس الثالث الذى يوصف بالعسكرى البارع والسياسى المحنّك، وقد استطاع تكوين امبراطورية لى امتدت من نهر الفرات شمالاً حتى الجندل الرابع جنوبًا، وقام بشنّ (١٦) حملة فى أنحاء سوريا وفلسطين، من أجل تأمين حدودى من تلك الناحية. ولا شك فى أن الدرس الذى تعلمته من الهكسوس كان ماثلاً فى ذهن ذلك الفرعون الفذّ، وبالتالى أدرك أن الهجوم خير وسيلة للدفاع. ويروى أنه ألقى برمح من رماحه على ضفة الفرات وقال: "من هنا يبدأ أمن مصر".

وارتبط اسم تحتمس الثالث فى تاريخى بمعركة مجدّو التى تمكن خلالها من إلحاق الهزيمة النكراء بأمراء البلاد الآسيوية فى سوريا والعراق، والذين تزعمهم أمير قادش. ودلّ ذلك على أن تاريخى القديم، ومن بعد ذلك الوسيط والحديث، احتوى العديد من المعارك الحاسمة التى كان لها دورها التاريخى البارز، فها هى -على سبيل المثال لا الحصر- قادش، وفى العصور الوسطى معارك الفتح العربى لأرضى، وفى العصور الحديثة معارك تحرير سيناء فى أكتوبر ١٩٧٣م من الإسرائيليين، وكلها تثبت بما لا يدع مجالاً لارتياب مرتاب كفاءة جيوشى على

تحتمس الثالث

مر العصور، وأنها بمثابة الدرع الواقى من إغارات الأعداء، كما أن الهجوم يعد -بحق- خير وسيلة للدفاع. وهكذا، ليس على أبنائى إلا أن ينظروا إلى تاريخى الحربى كى يدركوا كم كنت وما زلت وسأظل عظيمة، وهو أمر لم يتأت لعشرات من دول العالم على مدى تاريخها.

ولا يغفل تاريخى لذلك الفرعون الجسور، الذى أثبت مهارة عسكرية برية فائقة، أنه لم يقتصر على تلك الجبهة فقط، بل تطلع بناظريه صوب البحر المتوسط الذى أطلق عليه أبنائى المصريون القدامى "البحر الأخضر"، وقام بتشييد أسطول قوى؛ من أجل فرض كلمته على الجزر الموجودة هناك، وكذلك ساحل لبنان وفلسطين، ولا مراء فى إدراكه الصلة الوثيقة بين تأمين حدودى من جهة الشمال والشرق، ليس بريًا فقط، بل وبحريًا أيضًا.

لقد دلّ ذلك الفرعون القوى على أنه إذا كانت أخته حتشبسوت قد وجّهت اهتمامها صوب البحر الأحمر من خلال التجارة، فإنه وجه عنايته إلى البحر المتوسط من خلال القوة البحرية لإخضاع سواحله الشرقية، وكذلك جزراستراتيجية فيه، وعَكَس ذلك اهتمام أبنائى منذ ذلك العهد المبكر لبسط سيادتهم على مناطق مجاورة مطلة على ذلك البحر.

ويذكر التاريخ جيدًا لابنى تحتمس الثالث دهاءه السياسى، فقد حرص كل الحرص على أن يستدعى أبناء أمراء البلاد الآسيوية إلى طيبة لينالوا قسطًا من التعليم فى مدارسها، وليتأثروا بالعادات والتقاليد والقيم المصرية الأصيلة، فى وقت كنت أنا فيه سيدة العالم المتحضر، وعندما عاد أولئك الأبناء إلى بلادهم، وتولوا مناصب رفيعة فيها، كانوا خير أعوان لفرعون مصر القوى الذى أحسن إليهم فى أرضه؛ فأحسنوا إلى بلده عندما عادوا أدراجهم إلى أوطانهم. ودلّ ذلك على حصافته وبعد نظره السياسى، ورؤيته المستقبلية فى ذلك الزمن الموغل فى القدم.

ومن أعلام تلك المرحلة من تاريخى ، مفكر دينى بارز لم ولا ولن ينساه التاريخ، إنه أمنحتب الرابع أو أخناتون، وقد تزوج من نفرتيتى، ويوجد تمثال لرأسها وهى ترتدى تاجًا جميلاً محفوظ فى متحف برلين بألمانيا –ومرة أخرى، آثارى منها قسم لدى الغرب، وعودته إلى أرضى واجب مقدس– إنها لم تكن مجرد ملكة من الزاوية السياسية فقط، بل من ناحية الجمال أيضًا، إذ هى "موناليزا مصر"، انظر إلى ذلك التمثال وإلى تلك البشرة السمراء الرائعة وإلى ملامح ذلك الوجه الجميل والعنق الطويل؛ كى يعرف العالم أننى مصر الخالدة، وأن بعضًا ممن حكمنى قد تمتع بنصيب وافر من الجمال الأسطورى النادر التكرار الخالد عبر آلاف السنين!!!

وقد اتجه أخناتون إلى القول بوجود إله واحد بدلاً من تعدد الآلهة، وأسماه آتون، وقد رمز له بقرص الشمس، وقام بتسمية نفسه أخناتون أى المخلص أو المفيد للإله آتون.

كما قام بتشييد عاصمة جديدة أطلق عليها اسم "أخيتاتون" وتقع الآن فى منطقة تل العمارنة التابعة لمحافظة المنيا، وذلك بدلاً من طيبة التى تركزت فيها عبادة الإله آمون، ولا مراء فى أن ما أقدم عليه أخناتون يعد ثورة دينية بكافة المقاييس فى ذلك الزمن البعيد.

أخناتون

ولدىّ من عهد ذلك الفرعون المفكر ما عرف بنشيدى أخناتون، وعند مطالعتهما نجد الميول "الصوفية" واضحة، فهو يوحّد الإله آتون ويذكر عنه أنه مصدر النور والحياة فى هذا العالم، وقد كتبت تلك العبارات بأسلوب أدبى بالغ

الرقى، ويلاحظ وجود تأثير من جانبها فى المزمور (١٠٤) من مزامير النبى داود فى العصر القديم، وهو أمر لاحظه عالم المصريات البارز آلان جاردنر فى كتابه : "مصر الفراعنة - المدخل"، وكذلك جيمس برستد فى كتابه "فجر الضمير" مما عكس عِظَم تأثير أبنائى على التيارات الدينية فى عصرهم وفيما بعده.

وأقدم للقارئ الآن بعضًا من نصوص أخناتون وعنوانها:

بهاء آتون وقوته العالمية

تشرق وتضىء

.. أنت تبزغ بجمالك فى أفق السماء

أنت آتون الحى الذى كنت فى أزلية الحياة

فحينما كنت تطلع فى الأفق الشرقى

كنت تملأ كل البلاد بجمالك

أنت جميل، وعظيم، ومتلألئ ومشرق فوق كل الأرض

وأشعتك تحيط بالأرضين حتى نهاية جميع مخلوقاتك

ورغم أنك قصى جدًا فإن أشعتك فوق الأرض

ورغم أنك تجاه البشر فإن خطواتك خفية عنهم.

والعجيب أنك تجد تشابهًا واضحًا بين أناشيد أخناتون وبين بعض المزامير فى العهد القديم، وهاك مقارنة بينها:

١ - «كل أسد يخرج من عرينه وكل،
الثعابين تنساب لتلدغ
والظلام يخيم
والعالم فى صمت.
فى حين ان الذى خلقهم فى أفقه»
٢ - «الارض زاهية حينما تشرق فى
الأفق
وعندما تضىء بالنهار مثل آتون
فإنك تقصى الظلمة إلى بعيد
وحينما ترسل أشعتك
تصير الأرض فى عيد والناس
يستيقظون ويقفون على اقدامهم
عند إيقاظك لهم»

الأشبال تزمجر»
لتخطف ولتلتمس
«من الله طعامها
المزمور (١٠٤ - ٢١)

تشرق الشمس فتنصرف»
.وفى مآويها تربض
الإنسان يخرج إلى عمله
«وإلى شغله إلى المساء
المزمور (١٠٤ - ٢٢، ٢٣)

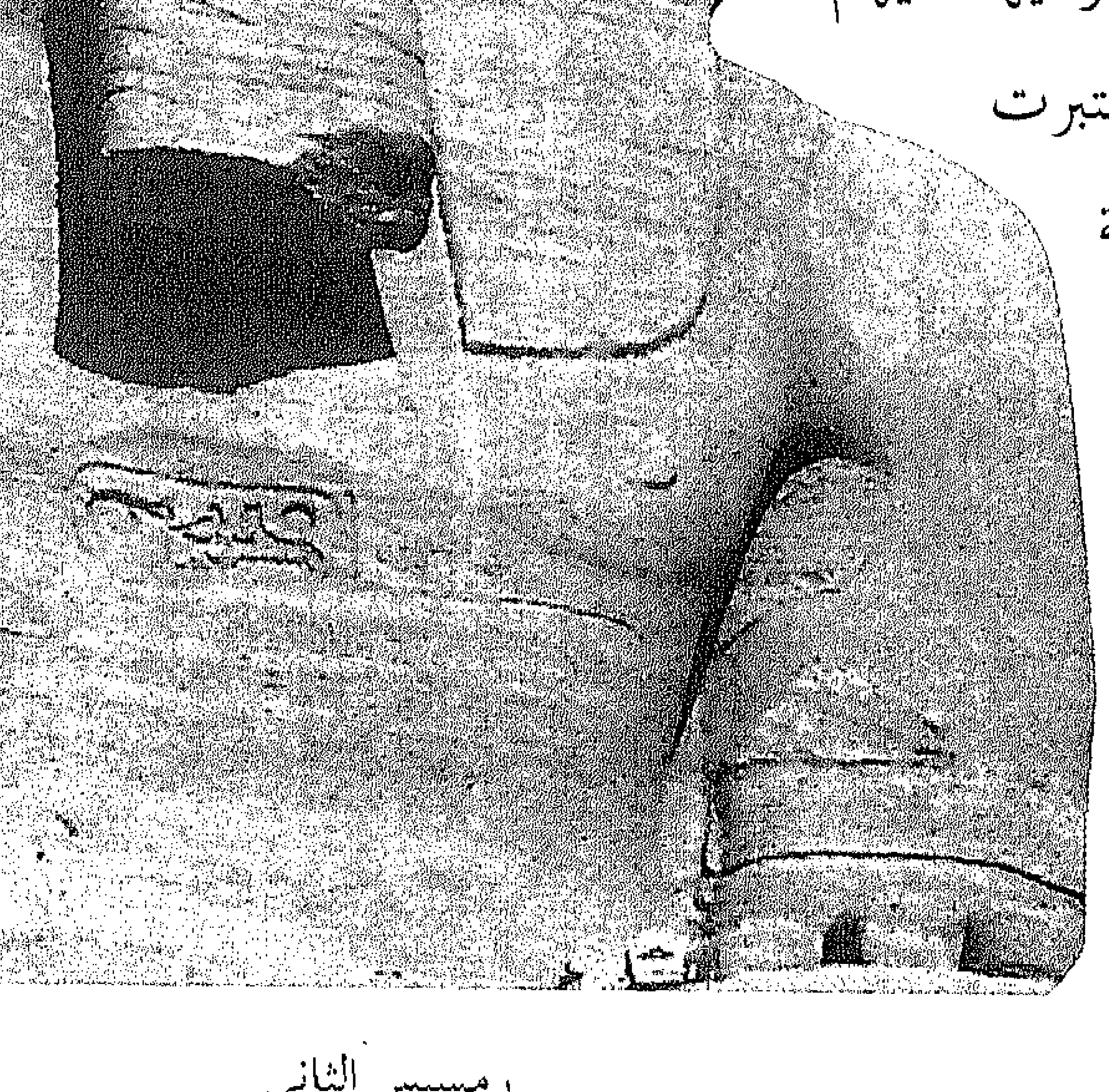
وبعد أخناتون، تولى العرش توت عنخ آمون، الذى أعاد العاصمة إلى طيبة، وأعاد عبادة الإله آمون مرة أخرى، ومات فى سن صغير، وترجع شهرته الفائقة إلى اكتشاف مقبرته عام ١٩٢٢م من جانب الأثرى هوارد كارتر، فكان حدثًا مدويًا إذ إنها من المقابر القليلة والنادرة التى نجت من عمليات السلب والنهب التى قام بها اللصوص، دون أية اعتبارات إلا للمال وسرقة تاريخى الذى لا يقدر بثمن.

لقد عكست تلك المقبرة - التى احتوت على متعلقات ذهبية عديدة - ما وصلت إليه مهارة الصانع المصرى القديم من قمة ودقة وبراعة غير مسبوقة! وهو أمرليس بجديد أو غريب على من وضع الخالق جل شأنه فى قلبه قبسًا من نوره الخالد، وأهم ما احتوته المقبرة القناع الذهبى للفرعون الشاب، وكذلك كرسى العرش، وكلها بهرت العالم منذ وقت اكتشافها حتى الآن. ويأتى إلى أرضى الملايين من السياح من كافة أنحاء العالم من أجل مشاهدة تلك المقتنيات الذهبية فى المتحف المصرى، والدهشة تعقد ألسنتهم، ولا تعليل لذلك كله سوى عبقرية تاريخى.

وأود أن ألفت نظر أبنائى إلى حقيقة محورية، وهى أن اكتشاف تلك المقبرة تم أثناء

الاحتلال - البريطانى - لأرضى الطاهرة، وقد أدى ذلك الحدث التاريخى إلى تنامى شعور أبنائى بعظمة أمهم، وزادت ثقتهم فى أنفسهم، وفى تاريخهم المجيد، وفى نفس الحين ضآلة تاريخ دولة الاحتلال إنجلترا مقارنةً بى، ففى الوقت الذى كان أبنائى فيه يضعون القناع الذهبى، وباقى المستلزمات لذلك الفرعون الخالد، لم يكن لدولة الاحتلال إنجلترا أى ذكر فى التاريخ، وأتذكر هنا كلمات رائعة للمؤرخ البريطانى الشهير أرنولد توينبى Arnold Toynbee حيث خصص فى موسوعته "دراسة التاريخ" A Study of History قسمًا كبيرًا عنى أنا مصر، بينما أورد قسمًا صغيرًا للغاية عن إنجلترا، وعندما سُئِل عن سبب ذلك، أشار لسائليه عن أن دورى يفوق عشرات المرات فى التاريخ دور إنجلترا، وكانت شهادة حق من مؤرخ أقرّ واقعًا اعترف به التاريخ من قبل.

ومن كبار فراعنتى من الأسرة التاسعة عشر، الملك رمسيس الثانى الذى يعتبره البعض أعظم الفراعنة، والذى خاض مع أعدائه الحيثيين معركة قادش، التى انتصر فيها عليهم، واضطر الأعداء إلى توقيع معاهدة معه اعتبرت أول معاهدة سلام فى التاريخ. ومن زاوية أخرى، لم يكن ذكر ذلك الفرعون فى التاريخ قاصرًا على الأعمال الحربية فقط، بل إنه قام أيضًا بأعمال عمرانية أخرى، إذ قام المصريون فى عهده بنحت عدد (٦) معابد، منها معبد "أبو سمبل"، كذلك شيد عددًا من المسلات منها ما هو موجود على أرضى، ومنها ما تم إرساله إلى فرنسا



رمسيس الثانى

وبالتحديد باريس.

وقد تزوج رمسيس الثانى من الملكة نفرتارى التى أحبها فرعون مصر الذى طبقت شهرته الآفاق. وهكذا، صار فى تاريخى القديم ثلاث ملكات شهيرات هن: حتشبسوت، ونفرتيتى، ونفرتارى، على نحو يؤكد أن تاريخى لا يُكتب دون "حواء المصرية" الخالدة التى كانت دومًا الملكة القوية، والأم الرؤوم، والزوجة الوفية، والأخت المعينة لأخيها.

الإسكندر الأكبر

دارت الأيام دورتها، وبلغت بتاريخى العصر المتأخر الذى يشمل الأسرات من الحادية والعشرين حتى الثلاثين، ووقع على مدى الأعوام من ١٠٨٥ إلى ٣٣٢ ق.م، ويلاحظ أن تلك المرحلة تعرف باسم العصر المتأخّر أو عصر الاضمحلال والضعف الثالث، وتدهورت خلالها أوضاعى من كافة الجوانب الاقتصادية والسياسية، والثقافية. وقد اشتهر من حكام تلك المرحلة بسماتيك الأول الذى كان أميرًا على مدينة سايس.

وفيما بعد، قام الفرس بغزو أرضى غزوًا وحشيًا مدمرًا عام ٥٢٥ ق.م، وقضوا على الأسرة السادسة والعشرين، ومن بعدهم توالى الغزاة فى صور: البطالسة والرومان، إلى أن قدم إلىّ الفاتحون العرب لتخليصى من رحلة الأسر الطويلة السوداء التى عشت فيها على مدى قرون عديدة، كنت فيها أتلهف إلى سماع خبر المنقذين الذين قدموا إلىّ من شبه الجزيرة العربية.

كليوباتره

ثم قدم إلى أرضى الإسكندر الأكبرعام ٣٣٢ ق.م، وهو ابن فيليب المقدونى، الذى تمكن من توحيد بلاد اليونان تحت قيادته، وحكمنى من بعد ذلك البطالسة ومؤسسها بطليموس الأول سوتر، ومن بعد البطالسة حكمنى الرومان على أثر معركة أكتيوم التى

وقعت بين كليوباتره السابعة وحليفها أنطونيوس من ناحية، وأوكتافيوس من ناحية أخرى.

وفى أول أغسطس من عام ٣٠ ق.م، `دخل أوكتافيوس عروس البحر المتوسط الإسكندرية، وقد صدر قرار من مجلس السناتو بأن يعد ذلك اليوم بمثابة عيد من الأعياد، وتم سكّ عملة كتب عليها عبارة "فتح مصر" Aegypto Capta، و لم تنهب المدينة احترامًا لذكرى مؤسسها الإسكندر، ويلاحظ أنه رفض أن يقوم السكندريون بممارسة أنشطة سياسية، كذلك اتجه إلى منح اليهود امتيازات متعددة، ثم إنه عمل على وضع ثلاث فرق فى أماكن مهمة من أرضى هى: أسوان وقفط والفيوم.

وفى يوم ١٦ يناير عام ٢٧ ق.م، منح السناتو أوكتافيوس لقب أوغسطس Augus-tus، أى الجليل، كذلك منح لقب إمبراطور Imperator، ومعناه المنتصر. ولقد اهتم أغسطس بى اهتمامًا خاصًا لعدة اعتبارات، فهناك أهميتى الاقتصادية، حيث زودت روما بثلث ما احتاجته من غلال، وثقلى السياسى والاستراتيجى من خلال موقفى المركزى.

ومن الأحداث المهمة حينذاك، إصدار أوغسطس أوامره لحاكمى الرومانى بإعداد حملة على اليمن من أجل تأمين مدخل البحر الأحمر الجنوبى، وكذلك لتأمين طرق التجارة مع الهند. ويلاحظ أن تلك الحملة أخفقت عسكريًا، غير أنها نجحت سياسيًا وتجاريًا.

توفى أوغسطس عام ١٤ ق.م، وتولى العرش بعده لابنه بالتبنى تيبريوس Tiberius، وفى عهد الإمبراطور جايوس (كاليجولا) الذى حكم بين عامى ٣٧، ٤١م، حدثت ثورة لليهود عام ٣٨م، ويلاحظ أن أحداث العنف التى حدثت حينذاك تمثل استثناءً بالنسبة لجو التسامح العام الذى عرف به تاريخى بصفة عامة.

وهناك من المؤرخين من يقرر أن المرحلة الممتدة بين عامى ٩٦ و ١٨٠م قد شهدت بعض

الأحداث المأساوية، مثل ما اتصل بانخفاض منسوب نهر النيل على نحو أدى إلى أزمة اقتصادية، وكذلك ثورة قام بها أبنائى فى عصر الإمبراطور ماركوس أورليوس Marcus Aurelius عام ١٧٢م التى عرفت بثورة الرعاة، وإن تمكن الرومان من قمعها، وهى تثبت بصفة عامة أن أبنائى كانوا يثورون إذا ما حاق بهم الضيق وساءت أحوالهم.

أيضًا تعرضت أرضى للغزو الخارجى على يدى زنوبيا ملكة تدمر عام ٢٦٩م، إلا أن الرومان تمكنوا فيما بعد من أسر زنوبيا واقتيادها إلى روما، واستعيدت أرضى لتعود للسيادة الرومانية عام ٢٧١م.

على أية حال؛ دخل تاريخى مرحلة جديدة خلال المدة الواقعة بين عامى ٢٨٤ و٦٤١م، فى صورة العصر البيزنطى، وأهم أحداثه استمرار العلاقة النفعية بينى وبين روما، ثم القسطنطينية فيما بعد بشأن الغلال، وحدوث صراعات مذهبية ومعارضة مثّلها أثناسيوس الأسقف السكندرى ضد اتجاهات الدولة البيزنطية، ولا أغفل تعرضى لغزو فارسى عام ٦١٦م، ثم مقدم الإمبراطور هرقل من أجل استردادى وعودتى للإمبراطورية البيزنطية مرة أخرى.

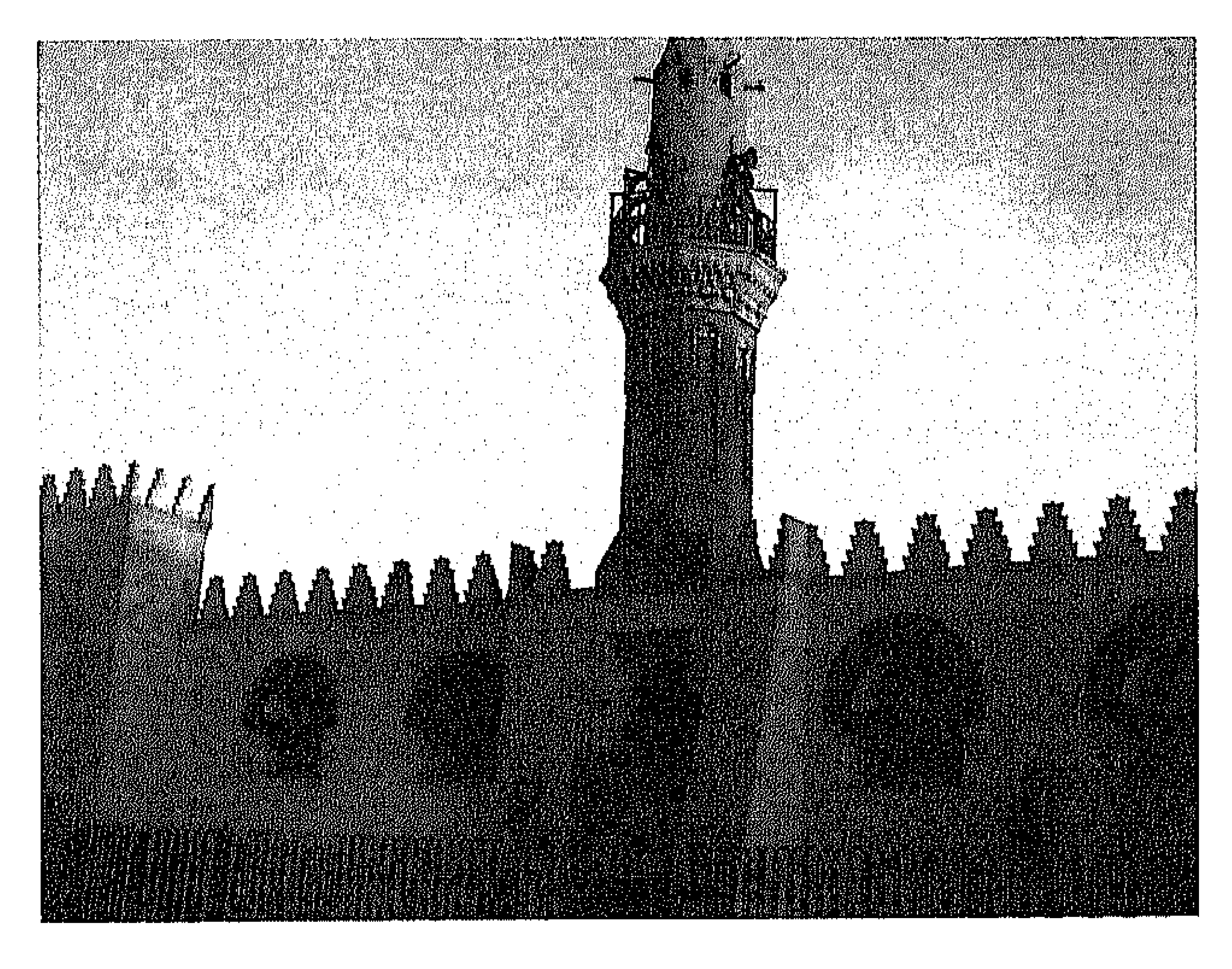
وفى خلال تلك الأحداث، لا أغفل أن أرضى شهدت منذ قرون سابقة بعدًا دينيًا مؤثرًا فى صورة ظهور المسيحية، ومقدم المسيح طفلاً، ومعه أمه السيدة مريم العذراء إلى أرضى، وقد سارت العائلة المقدسة فوق ترابى ووصلت صعيدى، وبذلك سطرت صفحات جديدة من الخلود على أرضى الطاهرة.

ولا أنسى أن الرهبانية ظهرت على أرضى من خلال القديس بوخوميوس، ومنها انتقلت إلى كافة بقاع العالم، مما عكس ريادتى لعالم المسيحية من تلك الناحية.

وفى عهد الإمبراطور هرقل، تعاظمت الخلافات العقائدية بين أنصار الطبيعة الواحدة والطبيعتين للسيد المسيح، وحاول التوفيق بين الطرفين فى صورة ابتداع مذهب المشيئة

الواحدة. غير أن أبنائى رفضوه، وأصروا على مذهب الطبيعة الواحدة؛ فاضطهدهم البيزنطيون اضطهادًا بشعًا، وتم الفتك بعشرات الآلاف، و لم ينقذ أبنائى إلا مقدم العرب الفاتحين. وهنا أستعير عبارة قالها ابنى البار أ. د. إسحق عيد أستاذ تاريخ العصور الوسطى حيث قال: "شمس العرب تسطع على أرض النيل"، ولذلك حديث آخر.

- ٤ -



كنت مهيأة أكثر من أى وقت مضى من أجل استقبال فاتحين جدد من نوع فريد لم يعرفه تاريخى من قبل!، كانوا من عرب شبه الجزيرة العربية، ودانوا بدين سماوى خاتم جديد هو الإسلام الذى دعا إليه رسول الله وخاتم النبيين محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام. لقد امتازوا بالشجاعة، والفروسية، وكانوا يعرفون قدرى المعرفة الحقة، لذلك استمروا أكثر من غيرهم من الذين قدموا إلى أرضى الطاهرة، تعايشوا معى، وتحولت معهم إلى نسيج واحد فريد، وكانت قصتى معهم، وقصتهم معى حافلة بالصور والأشكال، أشبه ما تكون بلوحة خطها الزمان بقلمه العجيب، ولونتها الأيام بريشتها الرائعة، ولكن ما هى قصة الفتح العربى لأرضى الطاهرة؟ وكيف كانت مسيرة التاريخ على ضفتى النيل الخالد؟

أشرقت شمس الإسلام فى جزيرة العرب الذين تمكنوا من إسقاط دولة الفرس

الساسانية، وإلحاق الهزيمة بالبيزنطيين فى بلاد الشام، واتجهوا صوب أرضى من أجل إكمال فتوحاتهم هناك.

وفى الواقع، كانت الظروف المختلفة التى مررت بها من الزوايا الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية جميعها بالغة السوء، إذ إن الإمبراطورية البيزنطية التى كانت تسيطر علىّ فرضت مذهبًا خاصًا بها فى صورة مذهب المشيئة الواحدة، ورفض أبنائى الأقباط قبوله، كذلك عملت على استغلال مواردى الاقتصادية خاصة ما أنتجه من الغلال.

وبصفة عامة، اضطهد البيزنطيون الأقباط الذين فرّ منهم من فرّ إلى الصحراء فرارًا بعقيدتهم، بل إن رأس الكنيسة المصرية بنيامين، فرّ هو الآخر من وجه البطش البيزنطى، ولم ييأس المصريون أبنائى من صراعهم مع الإمبراطورية البيزنطية وريثة الإمبراطورية الرومانية، وقاوموها مقاومة بطولية، وجاء الفتح العربى لأرضى ليقدم لأبنائى فرصةً ذهبية للخلاص من عسف وجور البيزنطيين.

كان عمرو بن العاص هو بطل فتح تحريرى وتخليصى من القبضة البيزنطية، وكانت لديه معرفة سابقة بمناطقى المختلفة، وقد قاد جيشًا عام ٦٣٩م قوامه أربعة آلاف مقاتل، وتمكن من الاستيلاء على مدينة العريش بشمالى شبه جزيرة سيناء، وتقدم إلى الفرما Pel-lusium (شرقى بورسعيد حاليًا)، وحاصرها مدة شهر، وتمكن من إخضاعها فى نهاية المطاف، ووصل إلى بلبيس، وأسقطها فى قبضته. وبعد ذلك، تقدم إلى منطقة وقعت شمالى حصن بابليون أطلق عليها العرب اسم أم دنين، وقد حدث صراع عنيف بين المسلمين والبيزنطيين عند الحصن المذكور، ودافع عنه الأخيرون دفاعًا مستميتًا، وقد طلب عمرو بن العاص المدد العربى من الخليفة العادل عمر بن الخطاب، فأرسل له قوة جديدة قوامها أربعة آلاف مقاتل بقيادة الزبير بن العوّام العوام. وفيما بعد، تمكن المسلمون من فتح الحصن المذكور. وصار الطريق ممهدًا أمام الفاتحين إليه، ونحو الوجه البحرى

والإسكندرية التى كانت حينذاك عاصمتى فى العصر البيزنطى، ثم عقدت معاهدة الإسكندرية التى بمقتضاها تم الاتفاق على جلاء الحامية البيزنطية عن المدينة الأخيرة، وألا يتم تعرض المسلمين للكنائس.

وهناك زاويتان على جانب كبير من الأهمية فى أمر دخول العرب أرضى، تتمثل الأولى فى قيام أبنائى الأقباط بتقديم العون للفاتحين الجدد، بأن قدموا لهم المؤن، والإمدادات بالإضافة إلى إرشادهم إلى المناطق المختلفة من خلال معرفتهم بجغرافية أرضى. وأقرر هنا، أن تلك المساعدة كان لها دورها الفاعل فى حسم الصراع بين المسلمين والبيزنطيين مع عدم إنكار أهمية العوامل الأخرى بطبيعة الحال، متمثلة فى استبسال المسلمين فى القتال، وإدراكهم أهمية إخضاعى لدولتهم الوليدة، ناهيك عن تسامحهم الدينى على نحو بلغ أسماع أبنائى الأقباط، ولذلك أدركوا أنهم خير بديل عن البيزنطيين الذين اضطهدوهم.

أما الزاوية الأخرى، فهى ما تردد من أن العرب يتحملون مسئولية إحراق مكتبة الإسكندرية التى كانت عامرة بنفائس المخطوطات، والتى اعتبرت أكبر مكتبة فى العالم القديم، والواقع أن تلك فرية لا تقوم على أساس علمى حقيقى، وقد وردت إشارات عن ذلك فى بعض المصادر التاريخية العربية المتأخرة، مثلما نجد ذلك لدى عبد اللطيف البغدادى وابن العبرى. والحقيقة أن المكتبة المذكورة أحرقت من قبل الفتح العربى لمصر، وبالتحديد فى عام ٤٨ ق.م فى ظروف صراع يوليوس قيصر مع أعدائه، حيث حدث حريق فى الأسطول المصرى، وامتدت ألسنة اللهب إلى رصيف الميناء.

ولذلك فإن القول بمسئولية العرب عن إحراق المكتبة المذكورة ما هو إلا فرية غير صادقة، ولا تقف على قدميها، غير أن قطاعًا من الباحثين الغربيين حرصوا على ترديدها دون ما تمحيص لأغراض فى نفوسهم.

كان لفتح العرب لأراضىّ نتائج بالغة الأهمية، إذ ضم العرب لسيادتهم منطقة ذات أهمية استراتيجية كبرى، وواقعة على خطوط التجارة العالمية بين الشرق والغرب حينذاك،

ناهيك عن وفرة مواردى البشرية والاقتصادية، وقد أدرك العرب مكانتى، ووردت أحاديث نبوية تؤكد أن أبنائى خير أجناد الأرض، وأن نهر النيل من أنهار الجنة.

لقد عامل الفاتح البارز عمرو بن العاص أبنائى الأقباط معاملة طيبة، وأعاد للبطريرك بنيامين منصبه بعد فراره من الجور البيزنطى، ويعد ذلك الفاتح العظيم أفضل مَن قدم إلى أرضى على مدى مئات السنين من قبل.

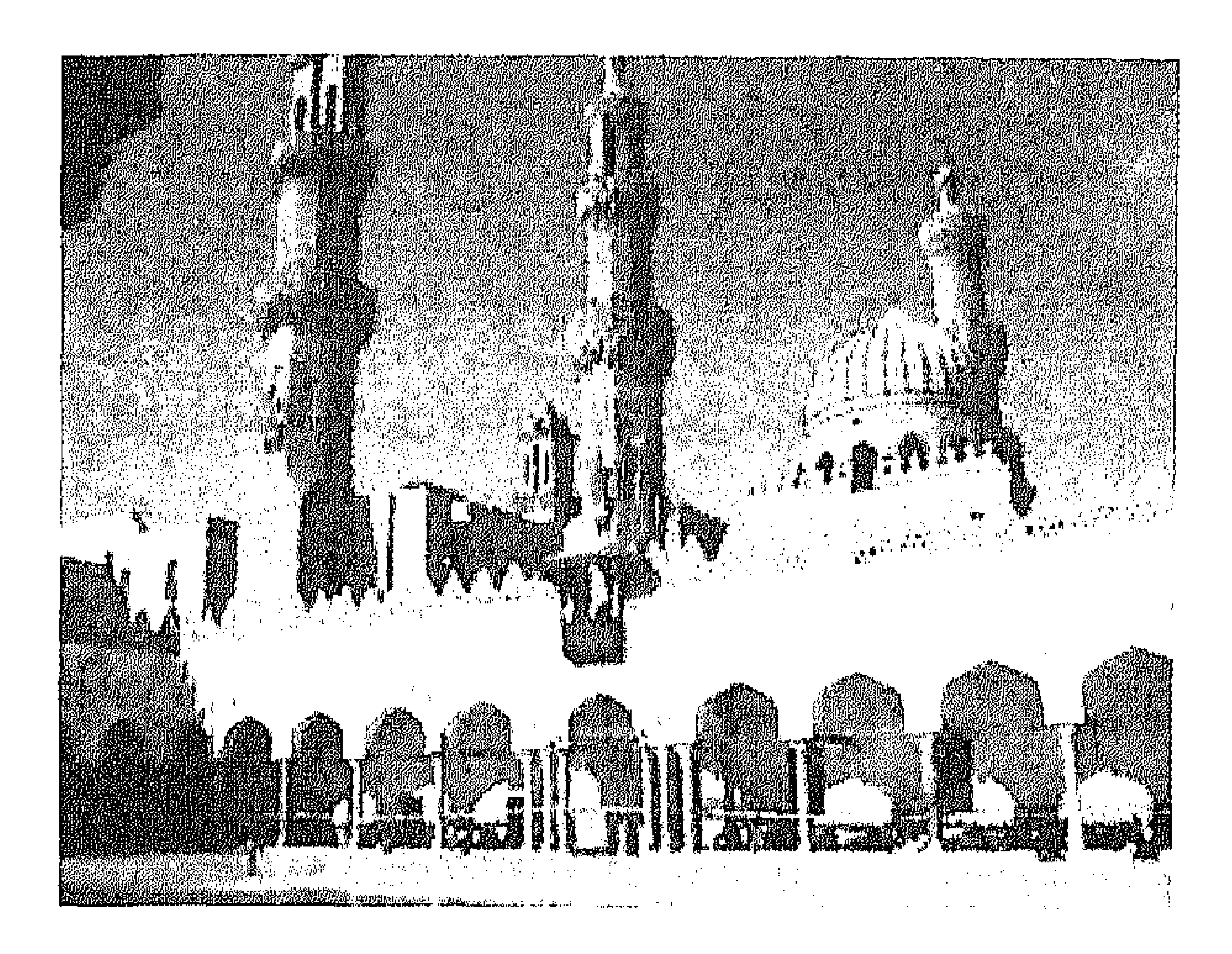
توالت الأحداث. وبعد الخلافة الراشدة ظهرت إلى الوجود الخلافة الأموية، وفى عهد الأخيرة، وجد عدد من الولاة الجائرين الذين اهتموا بجمع الأموال أكثر من أى شيء آخر، مع وجود من هو من أصحاب الجدارة. وفى أخريات عهد تلك الخلافة قدم إلى أرضى مروان بن محمد آخر خلفائها، وقد تم الفتك به فى عام ٧٤٩م على أيدى العباسيين.

ثم ظهرت الخلافة العباسية، وتوالى خلفاؤها. ووجد من عمالها من أساء إلى معاملة أبنائى الأقباط، ولذلك حدثت أحداث عنيفة، كالذى حدث من الأشمونيين، حيث ثار الأقباط ثورة عارمة استدعت مقدم الخليفة المأمون شخصيًا، وقام بقمع تمرّدهم فى عنف ظاهر، وأقرت المصادرأن الخليفة المذكور عاب على رجال إدارته سوء مسلكهم، وإخفائهم أخبار المعارضة الشديدة لأسلوبهم فى الإدارة، على نحو عجّل بأحداث الثورة ضد العباسيين.

لقد أدركت حينذاك الفارق الشاسع بين تسامح الفاتح العظيم عمرو بن العاص، وسياسته تجاه أبنائى الأقباط، ونواب ذلك الخليفة العباسى الذين أساءوا السيرة، وبصفة عامة، دلت ثورة الأشمونيين على أن أبنائى لا يقبلون الظلم البتة، وأنهم يثورون عندما تزيد معاناتهم ويطفح الكيل.

وقد مرت الخلافة العباسية بمرحلتين من تاريخها: مرحلة القوة والازدهار، فى صورة العصر العباسى الأول، ثم مرحلة أخرى عم فيها الضعف بتلك الخلافة، وأطلق عليها

العصر العباسى الثانى. وخلاله زاد نفوذ الأتراك، وصار الخلفاء مجرد واجهة فقط، أما الأمر فكان بيد القيادات التركية. وهكذا



ظهر إلى الوجود فى تاريخى ما عرف بالدولة الطولونية خلال الأعوام من ٨٦٨م إلى ٩٠٥م، التى أسسها أحمد بن طولون، وهى أول دولة إسلامية مستقلة على أرضى، وإن دانت بالولاء للخلافة العباسية، وكان الحكم فيها وراثيًا، حيث تولى من بعده ابنه خمارويه، غير أن تلك الدولة لم تدم طويلاً، وانهارت فيما بعد، وعملت الخلافة العباسية على إخضاعى لسيطرتها، وبالفعل تمكنت من ذلك فى عام ٩٠٥م.

ومن بعد الدولة الطولونية تأسست على أرضى دولة أخرى فى صورة الدولة الإخشيدية خلال المرحلة من عام ٩٣٥ إلى عام ٩٦٩م والتى أسسها محمد بن طغج الإخشيد، ومن أبرز حكامها كافور الإخشيدى. وقد زارنى خلال هذه الحقبة الشاعر العربى الكبير أبو الطيب المتنبى الذى طمع فى إمارة و لم ينلها؛ فهجا كافورًا هجاءً مرًا لاذعًا يفيض بالسخرية ظل التاريخ يتذكره، ومن أشعاره فى ذلك:

صَارَ الخَصِىُّ إِمَام الآبقينَ بهَا

فالحُرّ مُسْتَعْبـدٌ والعَبدُ مَعبودُ

لا تَشْتَرِ العبدَ إلاّ والعَصَـا مَعَهُ

إنّ العَبِيـدَ لأَنْجَـاسٌ مَنَاكِيـدُ

مَن عَلّمَ الأسْوَدَ المَخْصِيّ مَكْرمةً

أقومُه البِيضُ أم آباؤهُ الصيدُ

أم أُذنُه فِي يَدِ النخّاسِ دَامية

أم قَدرهُ وهو بالفِلْسَينِ مَرْدودُ

وقد كانت نهاية الدولة الاخشيدية على أيدى الفاطميين الذين أقاموا دولتهم فى بلاد المغرب، وتطلعوا إلى ضمّى إلى دولتهم نظرًا لمواردى المتعددة الاقتصادية والبشرية، بالإضافة إلى رغبتهم فى الوصول إلى العراق قلب الخلافة العباسية، والعدو التقليدى لهم بحكم الصراع السنى– الشيعى. وبالفعل تمكن القائد الفاطمى جوهر الصقلى من دخول مصر، والوصول إلى الفسطاط فى عام ٩٧٢م، وأقيمت أول صلاة للفاطميين بها فى ٢٢ يونيو ٩٧٢م. وفيما بعد، تم تأسيس مدينة القاهرة، وشُيّد بها الجامع الأزهر. وقد غدت تلك المدينة من أعظم المدن فى العصور الوسطى، وظلت تداعب خيال كافة الرحالة المسلمين والمسيحيين واليهود على مدى تلك العصور. وما زالت ذات سحر خاص ينبهر به كافة من قدم إليها حتى بعد أن بلغ تعدادها السكانى عدة ملايين.

حكم الفاطميون أرضى مدة قرنين من الزمان، ولأول مرة أتحول لأكون مركزًا لخلافة مستقلة عن الخلافة العباسية فى بغداد. بل حدث صراع عنيف بين الفاطميين والعباسيين. ويلاحظ أن الفاطميين اتبعوا سياسة التسامح الدينى مع غير المسلمين سواءً من الأقباط أو اليهود. وهكذا وصل فى عهدهم إلى أعلى المناصب عدد منهم، ودلّ ذلك على أن المسلمين فى العصور الوسطى كانوا من التسامح بحيث لم يمنعوا غير المسلمين من بلوغ أرفع المناصب طالما أثبتوا كفاءة.

يبقى أن أُشير هنا إلى أن العصر الفاطمى شهد انشقاقًا مذهبيًا فى صورة المذهب الدرزى الذى اتجه إلى تأليه الحاكم بأمر الله، ذلك الخليفة صاحب السياسات المضطربة والمتناقضة.

و لم يستوعب أبنائى ذلك المذهب المتطرف. ولذلك خرج من أرضى واستقر فى لبنان حيث المناطق الجبلية الوعرة، التى تسمح بوجود كيانات مذهبية وسياسية منعزلة، وتكرر ذات الأمر فى عهد المستنصر حيث حدث انشقاق بين المستعلية، أنصار الخليفة المستعلى، والنزارية أتباع نزار، الأجدر بتولى الخلافة، وبالفعل اتجه النزاريون خارج أرضى واتجهوا إلى إيران، وكانت لهم فروع فى مناطق أخرى مثل بلاد الشام، وغيرها.

لقد أصاب الضعف الخلافة الفاطمية التى انقسم تاريخها إلى قسمين: الأول عصر القوة والازدهار، والثانى عصر الضعف والانهيار. وفى العصر الثانى وجدنا زيادة نفوذ الوزراء العظام الذين فوض لهم الخلفاء مقاليد الحكم، كذلك حدثت كوارث اقتصادية كتلك التى جرت فى عهد الخليفة المستنصر لدين الله، والتى دامت سبع سنوات، وتمثلت فى نقص منسوب نهر النيل، وحدثت مجاعة أصابت شعبى فكانت محنة، وأى محنة! وقد تفاعل الخطر الصليبى ـ الذى كشف ضعف القاطميين مع التحالف العباسى– النورى فى بلاد الشام، من أجل الإجهاز على الدولة الفاطمية، وهو أمر حدث عام ١١٧١م.

وبانتهاء الدولة الفاطمية، شُيدت على أرضى دعائم الدولة الأيوبية، التى أسسها صلاح الدين الأيوبى، والتى استمرت خلال المرحلة من عام ١١٧١ إلى عام ١٢٥٠م، وهى دولة تكشف لنا أن مؤسسها كان قويًا، ومجاهدًا بارزًا بينما من أتى من بعده لم يكن على نفس الدرجة من الكفاءة السياسية والعسكرية. وتصارع الأيوبيون مع الصليبيين، كذلك حدثت صراعات داخلية خاصة بعد رحيل المؤسس البارز عام ١١٩٣م وفى عهد تورانشاه، آخر السلاطين الأيوبيين، سقطت تلك الدولة عام ١٢٥٠م بعد أن اتضح لى الفارق الشاسع بين المؤسس البارز وآخر السلاطين، نظرًا لضعفه وعدم توافر خبرة سياسية لديه، ناهيك عن عبثه.

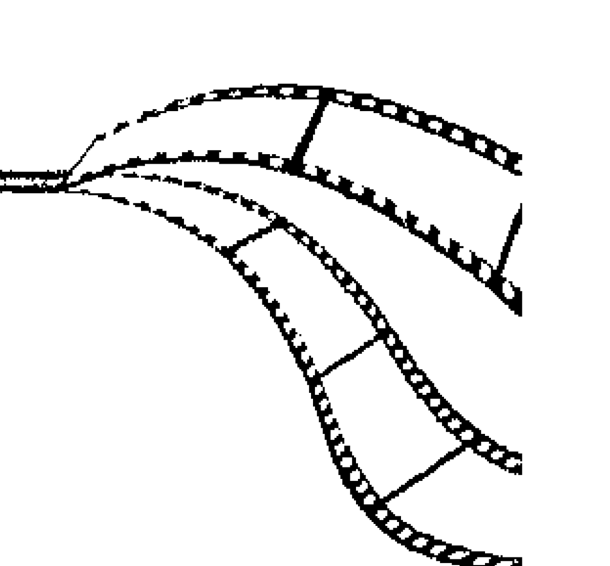
ثم حكم المماليك أرضى، بعد الأيوبيين، خلال المرحلة من عام ١٢٥٠ إلى عام ١٥١٧م. وانقسمت دولتهم إلى المماليك البحرية ثم المماليك البرجية. ومن أبرز أعلامها:

الظاهر بيبرس البندقدارى المؤسس الفعلى لدولتهم على أرضى، وكذلك هناك الناصر محمد الذى تولى السلطنة ثلاث مرات، وتحققتُ فيها مرحلة بالغة الازدهار من مراحل حكم المماليك لى. وعندما زارنى الرحالة المغربى الشهير ابن بطوطة، أوضح مدى الثراء الذى تمتعت به، والازدهارالحضارى الواسع النطاق الذى حدث لى.

وفى أخريات عهد دولة المماليك؛ أُصيبت بالوَهَن، وتولى أمرها سلاطين ضعاف، ودخلت فى أواخر عهدها فى صراع مرير مع البرتغاليين الذين توصلوا إلى طريق رأس الرجاء الصالح من أجل تدمير مقدراتى الاقتصادية، على نحو أصابنى فى مقتل. ودخلت دولة المماليك فى صراع مع قوة فتيّة فى صورة الدولة العثمانية، التى تمكنت من القدوم إلى بلاد الشام، وألحقت الهزيمة بالمماليك فى معركة مرج دابق عام ١٥١٦م ومن بعد ذلك حسمت معركة الريدانية عام ١٥١٧م أمر خضوع أرضى للعثمانيين، وذلك فى عهد السلطان العثمانى سليم الأول، وكان آخر السلاطين المماليك طومانباى الذى حزن أبنائى المصريين على شنقه على أيدى أعدائه العثمانيين حزنًا شديدًا.

يبقى أن أذكر للقراء أن المماليك واجهوا الخطرين المغولى والصليبى بنجاح وعجزوا عن مواجهة البرتغاليين والعثمانيين، كذلك فإنهم شيدوا أكبر عدد من الآثار الإسلامية فى صورة المساجد والمدارس والخانقاوات والزوايا، وهى أماكن مخصصة أصلاً لعناصر الصوفية الذين تزايد عددهم خلال ذلك العصر.

تلك قصتى مع القوى الحاكمة بعد الفتح العربى حتى عام ١٥١٧م. والآن أتساءل: أين ذهب أولئك الحكام؟ لقد مضوا، وبقيت أنا مصر، قائمة شامخة لم تنحن لى هامة، وسأظل قائمة إلى آخر الزمان.



- ٥ -

فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى، اندلعت فى الغرب الأوربى الحرب العالمية فى العصور الوسطى، متمثلةً فى "الحروب الصليبية" وذلك من خلال عدة دوافع سياسية واقتصادية واجتماعية ودينية. وبصفة عامة، رفع الصليبيون شعارًا براقًا هو تحرير الأراضى المقدسة لدى المسيحيين فى فلسطين. وفى الحقيقة، كانت عيونهم موجهة صوب ثروات الشرق وخيراته، وإحكام قبضتهم على خطوط التجارة العالمية التى تصب فى غربى آسيا، حيث ازدهرت تجارة التوابل والرقيق والذهب والحرير، وغيرها من السلع التجارية التى درّت الأموال الطائلة على المتاجرين فيها.

وأدركت أنا مصر أن جانبًا من النيران المشتعلة فى الغرب الأوربى حتمًا سوف يصيبنى، وجاء ذلك فى وقت كان فيه الفاطميون الشيعة فى صراع مرير مع خصومهم من الأتراك السلاجقة السنيين الذين أمكنهم طرد الفاطميين من بلاد الشام.

لقد أيقنت أن الصراع بين الطرفين سيؤدى حتمًا إلى دعم القوة الصليبية الغازية الوليدة، وهذا بالفعل ما جرى. وقد حدث أن أرسل الفاطميون سفارة إلى الصليبيين أثناء حصارهم لمدينة أنطاكية بشمالى بلاد الشام؛ من أجل التحالف مع الأخيرين ضد السلاجقة. وقد دل ذلك على قصر نظر حكّامى من الفاطميين الذين عجزوا عن إدراك أن الغزاة الذين قدموا من الغرب الأوربى أرادوا تكوين مملكة مترامية الأطراف على حساب كل من الطرفين

السنى والشيعى فى آن واحد، وأن مصلحتهم العليا وأطماعهم التى لم تكن تُحدّ كانت بمثابة المحرك الوحيد لهم فى صراعهم مع أبناء عالم الإسلام.

لقد تعاقبت الأحداث وأنا أراها بعينى، وقلبى يعصف به الحزن ويحرقه الأسى. فها هى شقيقتى التى لم تفارقنى لحظة - بلاد الشام - تتعرض لخطر داهم فى صورة الغزو الصليبى. وحيث إن الفُرقة سادت المسلمين هناك بعد تفكك دولة السلاجقة؛ فقد تساقطت المراكز الإسلامية واحدًا تلو الآخر، ووصل الأمر بالغزاة أن دخلوا بيت المقدس فى ١٥ يوليو ١٠٩٩م، محدثين مذبحة مروعة اعترف بها الصليبيون أنفسهم قبل المسلمين. لقد كان قلبى فى حزن عام؛ إذ إن المدينة المقدسة للأديان السماوية الثلاثة: اليهودية، والمسيحية، والإسلام، ارتكبت فيها المذابح وتساقط الآلاف قتلى، وهى التى عرفت بمدينة السلام!. لقد أدركت من فورى أن الخطر الذى دهم أختى الشقيقة بلاد الشام، حتمًا سيصل إلىّ يومًا ما، إذ إن الفصل بين مصير كل من الإقليمين أكذوبة كبرى صدّقها البعض فى عصور التاريخ المختلفة، ودفعت شعوبهم الثمن فادحًا من حريتها وشرفها.

إننى لم أتوقف عن مطالعة ما كتبه أولئك الغزاة الذين كانت لديهم الرغبة العارمة فى الذبح والتدمير وتحطيم كل جميل فى المناطق التى وطأتها أقدامهم. وعرفت أن المؤرخ الصليبى، رايموند جيل، قرر أن الغزاة أرادوا الهجوم علىّ فى الأصل من خلال غزو الإسكندرية، وذلك قبل غزوهم لبلاد الشام، إلا أن نقص الإمكانات حالت دون قيامهم بذلك، وإن ظل الأمر فى أذهانهم قائمًا.

يا للمأساة !!! لأول مرة تتعرض بلاد الشام منذ زمن بعيد لاستعمار استيطانى يريد الأرض والبشر الذين يعيشون عليها، ويهدف إلى سرقة كل شىء لصالح الدول الغربية: فرنسا وانجلترا وإيطاليا وألمانيا. لكن هل وقف حكامى صامتين أمام ما يحدث؟

الواقع أن الأفضل بن بدر الجمالى وزير التفويض حينذاك حاول مواجهة الصليبيين عدة مرات دون جدوى، وجاءت تلك الهزائم، الواحدة تلو الأخرى، لتؤكد أن الصليبيين

تمكنوا من تحقيق انتصارات عسكرية مهمة خلال تلك المرحلة المبكّرة من تاريخهم فى بلاد الشام.

وهكذا دفعت بلاد الشام الثمن فادحًا من خلال تصاريح حكامها، والسُبات العميق الذى عاش فيه الفاطميون، وقصر نظرهم، وتوهمهم إمكانية التحالف مع الصليبيين، وكان ذلك عين السراب.

وعلى أية حال، لقد حكم الصليبيين حاكمان مؤسسان هما: جودفرى دى بويون (١٠٩٩- ١١٠٠م)، وبلدوين الأول (١١٠٠- ١١١٨م)، وهما من فرنسا. ويلاحظ أن الأخيرة هى أم الحروب الصليبية. ولا يمكن أن يكتب تاريخ تلك الحروب دونها، ثم إن تلك الحروب هى تعبير عن أطماع فرنسا نحو تكوين مملكة خاصة بها فى شرق البحر المتوسط، مع عدم اكتمال أطماع غيرها من دول أوربا، وهى أطماع لن تُحدّ. حاولت تلك الدولة من خلالها بسط سيطرتها علىّ، وعلى بلاد الشام، وغيرها من القوى العربية المسلمة فى المنطقة.

انظروا يا أبنائى كيف استطاع الغزاة المستعمرون إقامة كيان يسمى: "مملكة بيت المقدس الصليبية" خلال ١٨ عامًا من عمر الزمان!، واحتاج المسلمون إلى قرنين كاملين من أجل طردهم!، وهكذا، فإن غياب الوعى التاريخى والانقسام والفرقة، جميعها عملت ضد الصالح العام لأبناء العراق، وبلاد الشام، وكذلك أبنائى.

أيها القارئ العزيز، إن قصتى مع تاريخ الحروب الصليبية طويلة ممتدة. ففى عام ١١١٨م وطأ ثراى الطاهر الملك الصليبى السالف الذكر، بلدوين الأول، الذى يعدّ المؤسس الفعلى لمملكة الصليبيين. لقد رتّب أوراق البيت الصليبى من الداخل، وتطلّع إلى تأمين حدود مملكته واكتشافى، أنا مصر أم العالم وأم الدنيا، وقدم إلىّ بحملة استكشافية برفقة عدة مئات من الجنود والفرسان، وقطع طريق حورس القديم الذى سار فيه كافة الفاتحين والغزاة، ويقال إنه وصل إلى مصب نهر النيل فى دمياط، ومن اللافت للانتباه

أنه لم يلق مقاومة تذكر، وأدرك الصليبيون أننى ثرية ثراءً عريضًا، وضعيفة ضعفًا شديداً، وبالفعل كانت حملة الاستكشاف للتمهيد للغزو فيما بعد فى عهد الملك الصليبى عمورى (١١٦٣- ١١٧٤م).

ألم أقل لك أيها القارئ العزيز إنها خطوات تمّت دراستها بدقّة من أجل إيقاعى فى شباكهم؟! إذ إن شقيقتى - بلاد الشام - قد سُرقت. والآن يأتى الغزاة ليدنسوا أرضى المقدّسة الطاهرة لاستكشاف عملية الاقتناص، طالما أن حكامى من الفاطميين بالصورة التى أشرت إليها من قبل.

وعلى الرغم من أن السُحُب الداكنة كانت فى الأفق، والصليبيون يرسخون كيانهم يومًا بعد آخر، إلا أننى سعدت سعادة بالغة عندما تناهى إلى علمى خبر مدوٍ فى صورة سقوط أولى إمارات الصليبيين التى زرعت فى الشرق وهى إمارة الرها، وذلك عام ١١٤٤م، بأيدى المسلمين بقيادة أتابك الموصل البطل عماد الدين زنكى. كم سررت بذلك النبأ الذى جعلنى أتنفس الصعداء، وشعرت أن شقيقتى الأخرى بلاد العراق، وبالتحديد مدينة المُوصل كانت المدرسة التى خرّجت أبطال حركة الجهاد الإسلامى ضد الغزاة الصليبيين، وأدركت من فورى أن اليوم تسقط الرها، وغدًا – بإذن الله تعالى– ستسقط باقى دعائم الكيان الصليبى الدخيل، الذى تأسس على الدماء وسار فوق جماجم وجثث القتلى من المسلمين، دون أن يقدم للمنطقة أية رسالة حضارية.

ومن ناحية أخرى، حاول الفاطميون، بالاعتماد على مواردى البشرية والعسكرية والاقتصادية، مواجهة الصليبيين دون جدوى فاعلة حقيقية. وفى عام ١١٢٤م سقطت "صور" المدينة اللبنانية فى قبضة الغزاة فى عهد الملك بلدوين الثانى، ومن بعد ذلك سقطت عسقلان عام ١١٥٣م فى عهد الملك بلدوين الثالث، وبسقوطها افتقدت أنا مصر آخر أملاك لى فى بلاد الشام.

وهكذا عدت للانحسار فى حدودى الأفريقية، وفقدت أملاكى فى قارة آسيا باستثناء

شبه جزيرة سيناء التى كانت وما زالت وستظل البوابة الشرقية التى من خلالها قدم كافة غزاتى وفاتحىّ من قديم الزمان حتى عصرنا الحالى.

ومهما يكن من أمر، فإن الأحداث فى بلاد الشام لا أستطيع أن أفصلها عن تاريخى ذاته. ففى عام ١١٤٦م اغتالت طعنات الغدر القائد عماد الدين زنكى، وانقسمت دولته بين أبنائه، وأبرزهم نور الدين محمود (١١٤٦- ١١٧٤م) الذى أخضع مدينة حلب بشمالى بلاد الشام لسيطرته. وبعد ذلك، وصلت إلى مسامعى أخبار انتصاره بإخضاع دمشق الشقيقة الشامية للقاهرة فى عام ١١٥٤م، ليحدث من بَعد التسابق بين ذلك القائد التاريخى لحركة الجهاد الإسلامى وبين الملك الصليبى عمورى، إذ إن الوزير الفاطمى شاور تصارع مع أحد السياسيين، ويدعى ضرغام، وبحث كلٌّ عن حليف، فلجأ شاور إلى نور الدين محمود، غير أن ضرغامًا طلب مساعدة الملك الصليبى السالف الذكر، وحدث التسابق بين نور الدين محمود وعمورى على أرضى. والآن عندما أتذكر تلك الأحداث الصاخبة، وتعدد الحملات من جانب ذلك القائد المسلم وغريمه الصليبى، أعرف تمامًا كيف أن الصليبيين أدركوا أننى مفتاح المنطقة، فلا أمان لهم طالما أننى لم أخضع لسيطرتهم. وانتهى الأمر بانتصار نور الدين محمود وقائده الفذ أسد الدين شيركوه، وابن أخيه صلاح الدين الأيوبى، البطل الأشهر لحركة الجهاد الإسلامى ضد الصليبيين فى القرن الثانى عشر الميلادى.

تولى أسد الدين شيركوه الوزارة للخليفة الفاطمى الأخير - العاضد - لمدة قصيرة، ومن بعدها توفى ليتولى أمرها صلاح الدين الأيوبى، الذى كان يمثل نور الدين فى مصر. وهنا لاحظت مدى عبقريته فى مجَالَى السياسة والحرب. وقد عمل على الإجهاز على الدولة الفاطمية التى عمّرت قرنين من الزمان، ولا ريب فى أن عوامل الضعف الداخلى كانت تعمل على الإسراع بالقضاء عليها، واستغل صلاح الدين الأيوبى ذلك أجمعه خير استغلال.

وبالنسبة إلى الفاطميين، فقد سقطت دولتهم بصورة سلمية لافتة للانتباه. وتعليل ذلك أن الشعب المصرى الذى عاش على أرضى فى ظل حكم تلك الدولة لم يعتنق المذهب الشيعى بأعداد كبيرة، و لم يحدث تعاطف حقيقى مع الدولة الزائلة، خاصة أنها عجزت عن مواجهة الصليبيين بصورة حاسمة، كما أنها – من ناحية أخرى– قدّمت النموذج الحيّ للدولة التى تنتحر من خلال ضعفها الداخلى.

لقد أحدث سقوط تلك الدولة نتائج بالغة الأهمية، إذ صِرت فيما بعد قاعدة لتوحيد بلاد الشام معى وكذلك شمالى العراق؛ من أجل مواجهة الصليبيين بصورة غير مسبوقة. وذلك قدرى على مدى تاريخى: أن أضطلع بدور الشقيقة الكبرى الرائدة، التى توحد أخواتها، لا سيما فى ساعات الأخطار، وما أكثرها!!!.

لاحظت كيف أن صلاح الدين الأيوبى انطلق من القاهرة –خاصة بعد وفاة أستاذه مهندس حركة الجهاد الإسلامى فى القرن ١٢م، وأعنى به نور الدين محمود عام ١١٧٤م– واتجه لإخضاع دمشق وحلب، ودانت له الموصل بالولاء، واستغرق إعداده لقوة رادعة عسكرية غير مسبوقة خلال المرحلة بين عامى ١١٧٤، ١١٨٧م. لقد استفاد من موارد‌ى الاقتصادية والبشرية الضخمة؛ فى تحقيق الهدف الأسمى للجهاد الإسلامى حتى ذلك العصر، فى صورة تحرير أراضى المسلمين من قوى البغى والعدوان الصليبى، وكذلك أفاد من إمكانات بلاد الشام بالطبع.

تمتع ذلك الفارس الكردى ـ الذى تعلم الكثير والكثير من خلال عمله مع الفاطميين على أرضى المباركة ـ بذكاء فطرى نادر. و لم يورط نفسه فى أى صدام كبير مع الصليبيين، إلى أن حانت ساعة الصفر التى اختارها هو، و لم يفرضها أعداؤه عليه. وكان ذلك يوم ٤ يوليو ١١٨٧م. والذى عرف فى التاريخ بيوم حطّين، وفيه التقى الجيش الأيوبى مع الجيش الصليبى إلى الغرب من بحيرة طبرية، وحقق المسلمون انتصارًا عسكريًا رائعًا اعترف به الخصوم قبل الأصدقاء، وتم الفتك بالجيش الصليبى وسقط فرسانه وجنوده

بين قتيل وجريح وأسير، حتى إن الملك الصليبى ذاته جى لوزينيان وقع أسيرًا هو الآخر، ومعه مقدمو هيئتى الإسبتارية والداوية الصليبيتين. وهناك من يقرر أن المسلمين لم يأخذوا بثأرهم من الغزاة الصليبيين منذ مقدمهم إلى المنطقة إلا فى ذلك اليوم المشهود الذى وقف التاريخ أمامه معجبًا به، وله الحق كل الحق!!!.

لقد أحدث يوم حطّين نتائج باهرةً. من ذلك: فتح مدن الساحل الشامى وإخضاعها للسيادة الإسلامية، وأيضا إسقاط القلاع والحصون الصليبية التى كانت تثبت الجسد الصليبى فى الأرض العربية. وجاءت النتيجة الثالثة بالفعل رائعة فى صورة دخول المسلمين مدينة بيت المقدس فى ٢ أكتوبر ١١٨٧م، وبالتالى تم تحريرها من الصليبيين الذين أسقطوها فى ١٥ يوليو ١٠٩٩م. وهنا نجد الفارق الشاسع بين الموقفين، فإذا كان الغزاة الأوربيون أحدثوا فى المدينة المقدسة مذبحة مروعة، فإن صلاح الدين الأيوبى، فارس الإسلام الخالد، لم يُقم بها إلا أسس السلام والمحبة. فلم يُرق بها قطرة دماء صليبية واحدة، وافتدى من ماله الخاص من عجز من الصليبيين عن تسديد الفدية اليسيرة التى فرضت على الرجال والنساء والأطفال. فلا عجب إذا وقع الصليبيون أنفسهم أسرى الإعجاب بذلك الفارس النبيل المتسامح، فى عصر اشتهر بالتعصّب وإراقة الدماء !!!.

كانت سعادتى أنا مصر بتحرير مناطق من بلاد الشام من الغزو الصليبى لا تقدّر. لقد تنفست الصعداء، وكنت وما زلت وسأظل أؤمن طوال تاريخى الممتدّ بأن شقيقتى الجغرافية، والتاريخية هى بلاد الشام، وأن ابنى الفذّ أ. د. محمد عبد الهادى شعيرة لم يخطئ البتة عندما نحت تعبيره الرائع "الشامصر" كدليل على وحدة بلاد الشام ومصر. فما يحدث لدىّ يؤثر فى شقيقتى والعكس صحيح. وهكذا، عمّت الفرحة أرجائى، وسعد المصريون جميعهم بما أصاب الصليبيين من هزيمة يوم حطّين، وأدركوا أن انتصار بلاد الشام ما هو إلا انتصارى أنا مصر. وبذلك تأكد أن عاصمتى القاهرة عندما سقطت فى قبضة التحالف النورى–العباسى الذى مثّله باقتدار نور الدين محمود وصلاح الدين

الأيوبى كان ذلك يعنى أن الطريق بدأ من أجل إسقاط بيت المقدس، وهو الأمر الذى حدث فعلاً كما شاهدتم معى يا أبنائى.

جنّ جنون الغرب الأوربى عندما وصلت إليه أنباء سقوط بيت المقدس فى قبضة المسلمين، ولذلك؛ قدمت الحملة الصليبية الثالثة على مصر، وعلى رأسها كل من الإمبراطور الألمانى فردريك باربروسا (١١٥٢-١١٩٠م)، والملك الفرنسى فيليب أغسطس (١١٨٠- ١٢٢٣م)، والملك الإنجليزى ريتشارد قلب الأسد (١١٨٩-١١٩٩م). أما الأول، فقد غرق فى أحد أنهار آسيا الصغرى، و لم تصل أغلب قواته إلى فلسطين، وبالتالى، أزاح الله جلّ شأنه خطرًا داهمًا عن شقيقتى بلاد الشام وعنّى أيضًا. وقد قرر أحد المؤرخين المعاصرين أنه فى حالة وصول تلك القوات إلى المنطقة لقيل إن بلاد الشام ومصر كانتا من أملاك الصليبيين، كناية عن اشتداد خطرها فى حالة بلوغها المنطقة.

أما الملكان الفرنسى والإنجليزى فقد وصلا إلى فلسطين، وشاركا الصليبيين المحليين فى حصار عكّا، دُرّة الساحل الشامى، خاصة من خلال أهميتها التجارية التى لم تنافسها فيها أية مدينة ساحلية شامية أخرى.

بعد طول صراع سقطت عكّا فى قبضة الصليبيين عام ١١٩١م، كذلك هُزم الفارس الأيوبى فى معركة أرسوف فى العام المذكور. وأخيرًا، اضطر الطرفان الأيوبى والصليبى إلى دخول مفاوضات أدت إلى ما عرف بصلح الرملة، والذى نصّ على هدنة لمدة ثلاث سنوات وثلاثة شهور وثلاثة أيام. و لم يفرط السلطان الأيوبى فى القدس- زهرة المدائن- و لم يقدمها على طبق من ذهب للغزاة، بل سمح لهم بالحج إليها تكرمًا ومنّة، مما عكس سموّ أخلاقه.

وفيما بعد، مرض ذلك الفارس النبيل، وفاضت روحه فى مارس ١١٩٢م. كم حزنت عليه مناطق من بلاد الشام حرّرها المسلمون بقيادته من الغزاة الصليبيين!، وكم حزِنت

عليه أنا، وما زلت أتذكر العبرات فى عيون أبنائى الذين صعقوا بالخبر الذى ملأ قلوبهم بالحزن الأسود المقيم ليل نهار.

وعلى الرغم من أن ذلك السلطان ولد فى العراق، وبالتحديد فى تكريت، إلا أننى تعلّقت به واعتبرته ابنًا من أبنائى. لقد كان يعشقنى ويدرك أهميتى فى التاريخ، ولما لا؟ ألم يدخل بيت المقدس من خلال تعاونى مع شقيقتى بلاد الشام إلى أن أمكن الإجهاز على الغزاة فى حطّين؟ لقد أدرك أهمية تعاون قاهرتى ودمشق وحلب والموصل من أجل استرداد بيت المقدس.

وما زلت أتذكر ذلك الفارس بكل اعتزاز، كيف شيّد قلعة الجبل فوق جبل المقطّم، تلك القلعة الرائعة التى لا تزال شاهدة حتى اليوم على عبق التاريخ وذكريات السنين الخوالى. إذ يمضى الرجال وتبقى الآثار شاهدة عليهم. لقد رحل صلاح الدين وبقيت قلعة الجبل التى وقع كبار الأثاريين - بينهم الأوربيون- أسرى هواها، مثل: كريزويل وكازانوفا وغيرهما، مع عدم إغفال قلاع أخرى شيدها ذلك البطل المقدام. ويلاحظ أنه منذ أن خرج من ديارى واتجه إلى بلاد الشام، لم يعد ذلك الفارس الذى عشقنى إلا ليقيم بى عامًا واحدًا، شغل فيه ببناء تلك القلعة، وتلك حياة الرجال العظام الذين يغتربون لتحقيق الأهداف الكبرى.

لقد أحبّه أبنائى، ولاحظوا كيف كان متسامحًا لم يكن ليفرّق بين مسلم ومسيحى ويهودى. بل من العجيب أن كبير الأطباء فى عصره كان موسى بن ميمون الطبيب والفيلسوف اليهودى ذائع الصيت، مؤلف "دلالة الحائرين"، والذى أحدث أثرًا لا يمحى فى الفكر الدينى اليهودى فى القرون الوسطى، وعاش أعوامًا عديدة على أرضى، وفيها أبدع أغلب مؤلفاته. وكذلك أُعجب بصلاح الدين الأيوبى أقباط مصر ورفضوا الحج إلى بيت المقدس طالما هى تحت السيادة الصليبية، وبذلك أثبتوا لنا - وما زالوا - كيف أننى جسدٌ واحدٌ يعيش فوق ثراه مسلم وقبطى لم يفترقا أبدًا عنه طيلة أربعة عشر قرنًا. وإن

وجدت أحداث مؤسفة صغيرة تحدث بين الحين والآخر، فإنها لا تكدّر العلاقة الأزلية الأبدية بين عنصرى الأمة المصرية الخالدة خلود التاريخ ذاته.

ولك أن تعلم أيضًا أن أقباطى قد قاموا برسم صلاح الدين الأيوبى، والصور التى لدينا عنه رسمها رسامون أقباط واحتفظوا بها فى الأديرة والكنائس إعزازًا وإكبارًا للفاتح البارز.

لقد أدرك الغزاة أن إمكاناتى الهائلة، المادية والبشرية، أعانت قائد حركة الجهاد الإسلامى حينذاك من أجل استرداد الأرض السليبة. وهكذا، فخلال المرحلة من عام ١٢١٨- ١٢٢٢م قدم إلىّ الملك الصليبى حنا دى برين فيما عرف بالحملة الصليبية الخامسة، التى باءت بالخسران المبين بفضل بسالة أبنائى الذين استغلوا موسم الفيضان، من أجل استخدام سلاح المياه وإغراق الغزاة وإجبارهم على الاستسلام. كذلك هناك أخطاء عسكرية وقع فيها الصليبيون، منها البقاء مدة طويلة فى دمياط بعد أن سقطت فى قبضتهم، ثم هناك أيضًا التنافس بين الملك الصليبى سالف الذكر، والمندوب البابوى بلاجيوس. غير أن العامل الأهم تمثل فى مقاومة أبنائى البواسل، ومعهم الأسرة الأيوبية المجاهدة. ولا ريب فى أن أبنائى دومًا كانوا بمثابة السهام الموجهة إلى صدور غزاتى. وبفضل الله تعالى وفضلهم كُتب لى النصر.

هرولت الأعوام سراعًا، وجاء عام ١٢٢٩م، فوجدت أحداثًا مأساوية تحدث فى بلاد الشام فى صورة معاهدة مشئومة أُبرمت بين السلطان الكامل الأيوبى، والإمبراطور الألمانى فردريك الثانى. وفيها قدّم الأول للثانى بيت المقدس على طبق من ذهب، وهادن الصليبيين لمدة عشر سنوات، وكانت حادثة مشهودة ثار فيها كل دم حُرّ أسِف على ضياع بيت المقدس -زهرة المدائن- التى تصارع من أجل تحريرها صلاح الدين الأيوبى على مدى تاريخه النضالى المشرّف.

بكيت وانتحبت مثل أهل دمشق تمامًا، وحزنت حزنًا ما بعده حزن على ضياع المدينة

المقدسة حيث المسجد الأقصى أولى القبلتين، ومسرى الرسول عليه الصلاة والسلام. و لم أجد من يدافع عن ذلك السلطان الأيوبى "الضعيف" إلا من ينافقه حينًا، أو من يجمّل وجهه القبيح بعد وفاته، غير أن الجماهير قالت كلمتها بالرفض والإدانة، وذاك عَارٌ يكفيه.

و لم يَعُد بيت المقدس إلى أيدى المسلمين إلا عام ١٢٤٤م، وذلك عندما قدم الخوارزميون الذين اندفعوا إلى بلاد الشام على إثر الضغط المغولى على العديد من حواضر المشرق الإسلامى. لقد أحدث المغول خرابًا شاسعًا، وتم تدمير المكتبات، وفُتِك بالعلماء، ولحقت خسائر كبرى بتراث أمّة الإسلام بصورة مأساوية غير مسبوقة، وكأن التاريخ يدّخر لى دورًا حضاريًا بالغ الأهمية سأعرض له فى الصفحات التالية، وذلك قَدَرى الذى لا فكاك منه.

لم ييأس الغزاة الصليبيون. وكنتُ فى قلب اهتماماتهم وأطماعهم التى لم تكن تُحدّ. لقد أبوا الاستسلام، وكانت فرنسا فى غربى البحر المتوسط تحيك ضدّى المؤامرات تلو الأخرى، ولا تتوقّف. لقد حركتها رغبة مسعورة للفتك بى دون أن تدرك أننى خالدة خلود التاريخ، وأن غزاتى سيلفظون أنفاسهم الأخيرة على أرضى الطاهرة.

من هنا، فكّر الملك الفرنسى لويس التاسع (١٢٢٦–١٢٧٠م) فى غزوى، من أجل دعم نفوذ أسرة آل كابيه التى كانت تحكم فرنسا حينذاك، كذلك أراد فتح أسواق جديدة تدعم اقتصاديات فرنسا فى شرقى البحر المتوسط، وقام بشنّ حملة صليبية جديدة علىّ، إلا أن الهزيمة لحقته فى فارسكور عند المنصورة، وألقى القبض عليه، وأُسر فى دار القاضى ابن لقمان، وما زال ذلك الموضع بمثابة متحف قائم إلى اليوم شاهدًا على إذلال فرنسا على أرض النيل الخالدة فى العصور الوسطى.

لقد كتب مؤرخ سيرته ـ جان دى جوانفيل ـ كتابًا بعنوان: "سيرة القديس لويس"، وهكذا جعله قدّيسًا!.. وأقول إنه مُستعمر عتيد أراد نصب شباكه حولى، ودعم نفوذ دولته

على حساب أبنائى الشرفاء، غير أن الله أرسل إلىّ فرسانًا أشداء، هم المماليك الذين اشتراهم الأيوبيون، وقد أبلوا بلاءً حسنًا فى معركة فارسكور السالفة الذكر، وهم وإن كانوا من الرقيق إلا أنهم صاروا أساتذة حركة الجهاد الإسلامى ضد الخطرين المغولى والصليبى فى آن واحد. وهكذا، فإن الجهاد فى عالم العصور الوسطى كان يدعم -وبحقّ- شرعية حكم حتى أولئك الذين لم يعتمدوا على أصول نبيلة.

والآن، لا أستطيع يا أبنائى إلا أن أذكركم بحجم الأخطار البالغة التى كانت تحيط بشقيقاتى فى العراق، وبلاد الشام، وكذلك بى أنا. فقد ظهر فى الأفق خلال القرن الـ ١٣م الخطر المغولى، إذ تمكن القائد المغولى جنكيز خان من توحيد القبائل المغولية، واستولى على الصين، وهاجم المغول مناطق الدولة الخوارزمية. وفيما بعد، أسقطوا قلاع الحشاشين فى إيران، واتجهوا إلى الخلافة العباسية لتسقط بغداد الخالدة فى قبضتهم عام ١٢٥٨م، وقاموا بقتل آخر الخلفاء العباسيين الخليفة المستعصم. ثم تم التقدم إلى بلاد الشام، وسقطت العديد من المدن فى قبضتهم الواحدة تلو الأخرى على نحو مأساوى، لقد كان قلبى ينزف دمًا حزنًا على تساقط المدن العراقية والشامية فى قبضة أولئك البرابرة.

على إثر حدوث ذلك، صرت أنا مصر البديل الحضارى الاستراتيجى عن بغداد حاضرة العباسيين المدمّرة. وقدم إلىّ العلماء من كل حدب وصوب من أقاليم المشرق؛ كى يلوذوا بى، وقد أدركوا أننى المعقل الأخير فى مواجهة المغول البرابرة. ومن بين العلماء الذين أتوا إلىّ أذكر من المؤرخين عز الدين بن شدّاد (ت. ١٢٨٥م)، مؤلف "سيرة الظاهر بيبرس"، وكذلك كتاب "الأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة"، ثم قدم إلىّ المؤرخ كمال الدين بن العديم (ت. ١٢٦١م) مؤلف العديد من الكتب مثل "بغية الطلب فى تاريخ حلب"، و"زبدة الحلب من تاريخ حلب"، وغيرها من المؤلفات التى عكست عبقرية أهل الشام، وهم أشقاء لعبقرية أبنائى الأعزاء من المصريين.

وبصفة عامة، بلغ الخطر المغولى شقيقتى بلاد الشام، وأرسل القائد المغولى المتغطرس

هولاكو رسالة تهديد لأحد قيادات المماليك وهو الملك المظفر قطز، الذى كان يحكم مصر حينذاك، أخبره فيها أنه قدم بجيش عدده كالحصى، وأنه لا قبل له بمواجهة الإعصار القادم من الشرق فى صورة جحافل الجيوش المغولية. وقبل قطز التحدى، وقام بشنق سفراء الأعداء الذين اعتدوا علىّ، وتوهموا أننى لقمة سائغة، والتقى المماليك مع المغول فى عين جالوت عام ١٢٦٠م، وهناك تأكد للجميع أن المماليك داوية الإسلام، كما وصفهم المؤرخ الكفيف صاحب البصيرة ابن واصل، وتم إلحاق الهزيمة الشنعاء بالمغول، وتحقق الانتصار لى ولشقيقتى بلاد الشام.

لقد كان الانتصار فى عين جالوت تأكيدًا عمليًا حيًا لدورى التاريخى، ودعمًا "للشامصر"، أى الرابطة الجغرافية والتاريخية بين الإقليمين المتجاورين، لقد دافعت عن شقيقتى بلاد الشام، وقمت بحمايتها، وكانت - من قبل- تقدم لى المؤن والإمدادات عندما يضيق الصليبيون علىّ الخناق.

إذًا، فهناك معركتان خالدتان، على مدى القرنين الـ ١٢، ١٣م، ضد الصليبيين والمغول هما: حطّين عام ١١٨٧م، وعين جالوت عام ١٢٦٠م، ولم يكن النصر إلا من عند الله تعالى الذى خلقنى متفرّدة. النصر فى ركابى، والمجد قبلتى، والخلود شعارى، وأهلاً بالتحدى فالاستجابة فورية، وأبنائى المدافعين عنى على أهبة الاستعداد للتضحية بالأرواح سعداء؛ لأن الشهيد لا يدركه الموت، إنه الوحيد الذى يقهره. أيها القارئ، هل هناك أروع من ذلك؟ لا أتصور!.

بعد ذلك، اتجه المماليك إلى تصفية بقايا الوجود الصليبى فى بلاد الشام، فكان المسلمون بقيادة الظاهر بيبرس يواجهون إمارة أنطاكية الصليبية، وبالفعل تمكنوا من إسقاطها عام ١٢٦٨م. وبالتالى، سقطت تلك الإمارة التى مثلت مفتاحًا لبلاد الشام من الجهة الشمالية، كذلك أقدم المسلمون بقيادة المنصور قلاوون على إسقاط إمارة طرابلس عام ١٢٨٩م. واتجهوا بعد ذلك بقيادة ابنه الأشرف خليل إلى إسقاط عكّا عام ١٢٩١م.

وبذلك سقط آخر المعاقل الصليبية الكبرى هناك.

لقد ظلّ الصليبيون فى المنطقة قرنين من الزمان، والآن تم طردهم، مثل غيرهم من الأعداء، وسيتكرر نفس الأمر مع الكيان الصهيونى فى فلسطين العزيزة، وهو كيان لقيط ولد ليموت كالطفل السفاح، والتاريخ خير برهان وشاهد، ولنترك الأيام تثبت وتؤكد!.

و لم يكن طرد فلول الصليبيين من عكّا هو نهاية الحروب الصليبية، بل إنها استمرت عن طريق جزر البحر المتوسط. ومن أمثلة ذلك، حملة بطرس لوزينيان ملك قبرص على الإسكندرية عام ١٣٦٥م، حيث أحدث فيها وأتباعه موجة عارمة من القتل والسلب والنهب. لقد دخلها لصًا، وخرج منها لصًا. وتوالت حملات الصليبيين حتى فى العصر الحديث، وما تاريخى مع أعدائى الفرنسيين والإنجليز سوى صراعى مع صليبيى العصر الحديث الذين هم أشدّ فتكًا فى أسلحتهم من أولئك الذين عاصروا العصور الوسطى!. وحتى دويلة إسرائيل، زرعوها بجوار حدودى الشرقية؛ كى أستهلك طاقاتى فيما لا يجدى فى البناء والتعمير، وتبقى تلك المنطقة الإستراتيجية بعيدة عن السيادة والسياسة الإسلامية بأى حال من الأحوال، وليتم فصل المشرق العربى عن المغرب العربى بزرع ذلك الكيان الدخيل، وتلك مغامرات الإنجليز ومن بعدهم الدعم الأمريكى غير المحدود من أجل إعاقة تنمية المنطقة العربية، واستمرار الاعتماد على الغرب الماكر الخبيث، الذى يحيك من حولى المؤامرات تلو الأخرى.



على مدى العصور الوسطى نبغ على أرضى العديد من الأعلام فى مختلف المجالات على نحو أكّد ريادتى الحضارية، وأننى دومًا حبلى بالأفذاذ بصورة عجزت عنها دول أخرى خلال تلك المرحلة من تاريخى المديد.

ففى مجال التصوّف، أذكر ابنى المعروف بذى النون المصرى (ت. ٣٥٣هـ)، الذى ولد فى أخميم (محافظة سوهاج حاليًا)، وقد وصف بالتقوى والورع، وعُدّ من أقطاب التصوّف، وأشاد به وبتجربته الروحية العديد من كبار الصوفية الذين أتوا من بعده، بما فيهم الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى (ت. ١٢٣٦م). كذلك لا أغفل ذكر عمر بن الفارض (ت. ٦٣٢هـ) الذى وصف بأنه "سلطان العاشقين"، وله ديوان شعر صوفى وصل به إلى درجة عالية من الوَجْدْ على نحو بهر به حتى المستشرقين الذين تخصصوا فى دراسة التصوف الإسلامى فى العصور الوسطى.

أما فى مجال التأريخ، فأُشير إلى ابن يونس (ت. ٩٥٨م) ومن المعروف أنه ولد فى الفسطاط، وقد ألّف عدة مؤلفات منها ما اتصل بتاريخ الصعيد، وكذلك أذكر الكندى (ت. ٩٦١م)، وله عدة مؤلفات فى صورة كتاب "ولاة مصر"، وكتاب "قضاة مصر"، ولا أغفل ذكر ابن زولاق (ت. ٩٩٧م) الذى ألف "فضائل مصر"، و "سيرة محمد بن طغج الإخشيد"، و "أخبار سيبويه المصرى"، وقد ضاعت مؤلفاته باستثناء الكتاب الأخير، غير

أن هناك من المؤرخين المتأخرين من أفاد من تلك المؤلفات المفقودة مثلما نجد ذلك لدى تقى الدين المقريزى شيخ مؤرخى مصر الإسلامية، كما وصفه ابنى البار الراحل جمال الدين الشيّال.

ثم هناك أيضًا القضاعى (ت. ١٠٦٢م)، وقد ألّف عدة مؤلفات أذكر منها: "مناقب الإمام الشافعى وأخباره"، وكتاب "المختار فى ذكر الخطط والآثار"، ولا أغفل ذكر ابن الصيرفى (ت. ١١٤١م) مؤلف كتاب "قانون ديوان الرسائل".

وبالإضافة إلى أولئك المؤرخين، هناك مؤرخ بارز هو القفطى (ت. ١٢٤٨م.) الذى ولد فى قفط (التابعة لمحافظة قنا)، وقد ألّف كتابين على جانب كبير من الأهمية فى صورة "إخبار العلماء بأخبار الحكماء"، و "إنباه الرواة على أنباه النحاة".

ولا أغفل كذلك الإشارة إلى تقى الدين المقريزى (ت. ١٤٤٢م)، الذى أثرى المكتبة العربية بالعديد من المؤلفات؛ أذكر منها: "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار" المعروف باسم "الخطط"، و "إغاثة الأمة بكشف الغُمّة"، و "السلوك لمعرفة دول الملوك"، و "المقفّى"، و "إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحَفَدَة والمتاع" و "البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب"، و "نحل عبر النحل" و "الذهب المسبوك بذكر من حج من الخلفاء والملوك" و "إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا". ويمتاز ذلك المؤرخ على نحو خاص بالتحليل والرؤية الشمولية، وقد تتلمذ على يدى المفكّر والمؤرخ البارز ابن خلدون صاحب المقدمة الشهيرة، ونجد أنه أفاد من ذلك الأمر الذى انعكس على مؤلفاته التاريخية.

وهناك أيضًا ابن حجر العسقلانى (ت. ١٤٤٨م) مؤلف كتاب "إنباء الغمر بأبناء العمر"، و "الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة"، وأذكر فى هذا الصدد المؤرخ البارز جمال الدين أبو المحاسن ابن تغرى بردى (ت. ١٤٦٩م) الذى ألّف عدة مؤلفات أذكر منها: "النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة"، و "حوادث الدهور فى مدى الأيام

والشهور"، و "المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى"، ويعد ابن تغرى بردى من أبرز مؤرخى العصر المملوكى. ولا أغفل ذكر السخاوى (ت. ١٤٧٩م.)، مؤلف "التبر المسبوك فى ذيل السلوك"، و "الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع".

كذلك هناك المؤرخ ابن إياس (ت. ١٥٢٤م) مؤلف كتاب "بدائع الزهور فى وقائع الدهور". ولا أغفل أيضًا السيوطى (ت. ١٥٠٥م)؛ وهو من كبار أعلام المؤرخين الذين أعنيهم، وقد ألّف مئات الكتب والرسائل، ومن مؤلفاته: "القول المضبوط فى تاريخ أسيوط"، و "حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة"، و"كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة"، و "الكاوى فى الرد على السخاوى"، ويلاحظ دخوله فى خصومة صارت ثأرية مع السخاوى، وألّف الرسالة الأخيرة فى الهجوم عليه والتنديد به.

وفى مجال الطب، أذكر الطبيب ابن رضوان (ت. ١٠٦٨م) صاحب العديد من المؤلفات أذكر منها: شرح كتاب الفرق لجالينوس، وكتاب الأصول فى الطب، ورسالة علاج الجذام،وكتاب فى تتبع مسائل حنين، وشرح كتاب المزاج لجالينوس، وكتاب فى الأدوية المسهّلة، وغيرها من المؤلفات، وقد دخل ابن فضلان فى تنافس شديد مع الطبيب العراقى ابن بطلان على نحو انعكس على مؤلفات كل منهما.

ومن أبنائى البارزين فى مجال الاختراعات العلمية فى العصور الوسطى، قيصر بن عبد الغنى الأصفونى (ت. ١٢٥١م)، وقد ولد فى أصفون من أعمال محافظة قنا، ووصف بأنه كان عالمًا فى الرياضيات والفلك والهندسة والموسيقا. ويقال إنه صنع كرة فلكية (سماوية)، انتقلت إلى متحف نابولى الوطنى الذى يشهد بعبقرية أبنائى.

يتضح من كل ذلك أننى لم أكن فى عُقم خلال العصور الوسطى، وأبنائى الذين أشرت إليهم فى إيجاز فى السطور السابقة عكسوا حجم إنجازاتى حينذاك، وما أبنائى المبدعين فى العصور الحديثة إلا الامتداد الطبيعى لأعلامى فى عصور التاريخ السابقة. وما ذكرته فى الصفحات السابقة، ماهو إلا قطرة فى بحر، إذ إن الأعلام الذين برعوا فى العديد من

العلوم والمعارف خلال مرحلة القرون الوسطى كانوا من الكثرة بحيث يصعب إحصاؤهم، وها هى كتب الطبقات والتراجم والوفيات تشير إلى أعلام عديدين منهم.

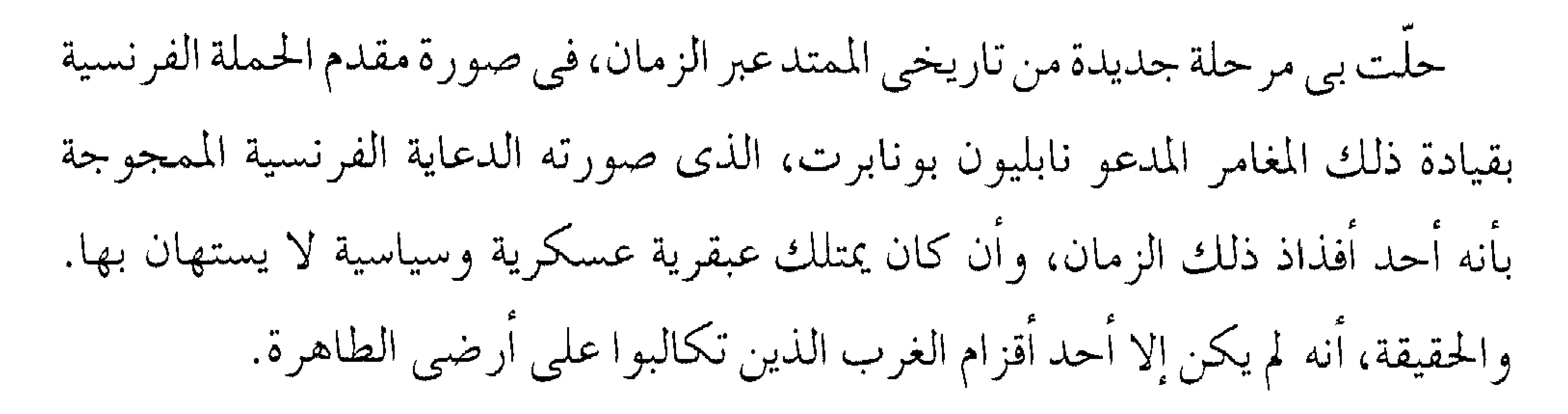
وبصفة عامة، تأكد لى خلال تلك المرحلة أننى أنا مصر، وبلاد الشام، والعراق بمثابة القلب النابض للعالم العربى، والأجزاء الأخرى هى الأجنحة التى تحرّك ذلك الطائر العربى المحلّق عبر رحلة الزمان والمكان. ومن اللافت للانتباه أن يأتى إلىّ الرحّالة والعلماء والمفكّرون من أقصى الشرق، وكذلك الغرب، بل إن منهم من أبدع على أرضى. ولا تعليل لذلك سوى خصوصيتى الحضارية والإبداعية التى تجعل العقول تتفتح وتبدع وتخرج أقصى ما لديها من إمكانات، ولا ريب أن إبداع أبنائى خلال القرون الوسطى ما هو إلا الامتداد الطبيعى لإبداعهم فى العصور القديمة والحديثة.

وجديرٌ بالذكر أن كل عَلَم من الأعلام الذين أنجبتهم له إنتاجه المتميّز المستقلّ الخاص به، ولم يكن نسخة مكررة من الآخرين، وهنا تكمن زاوية الإبداع الحقيقى. كذلك ألاحظ تعدد المؤلفات وتفوقها كمًا ونوعًا، مما عكس جلَد أصحابها ومقدرتهم الفذة على التأليف، وذلك شأن أبنائى دومًا الذين إذا صحت فيهم العزائم أقدموا على جليل الأعمال التى تجعل التاريخ يحنى هامته لهم تقديرًا وإعجابًا.

إن دورى الحضارى فى العصور الوسطى تمثّل فى ظهور العديد من الأعلام- كما أسلفت- كذلك تجلّى فى حركة التشييد العمرانى من مساجد وكنائس وربط، وخوانق وزوايا ومدارس. وفى التصدّى للأعداء حماية لما تبقى من تراث الحضارة العربية الإسلامية، كما حدث فى معركة عين جالوت عام ١٢٦٠م. وهكذا، لا ينفصل إنتاج الأعلام السابقين عن رسالتى الحضارية العامة الشاملة التى لا نجد دولة أخرى فى المنطقة العربية لها ذات الرسالة خلال تلك المرحلة البالغة الأهمية من تاريخى المديد.

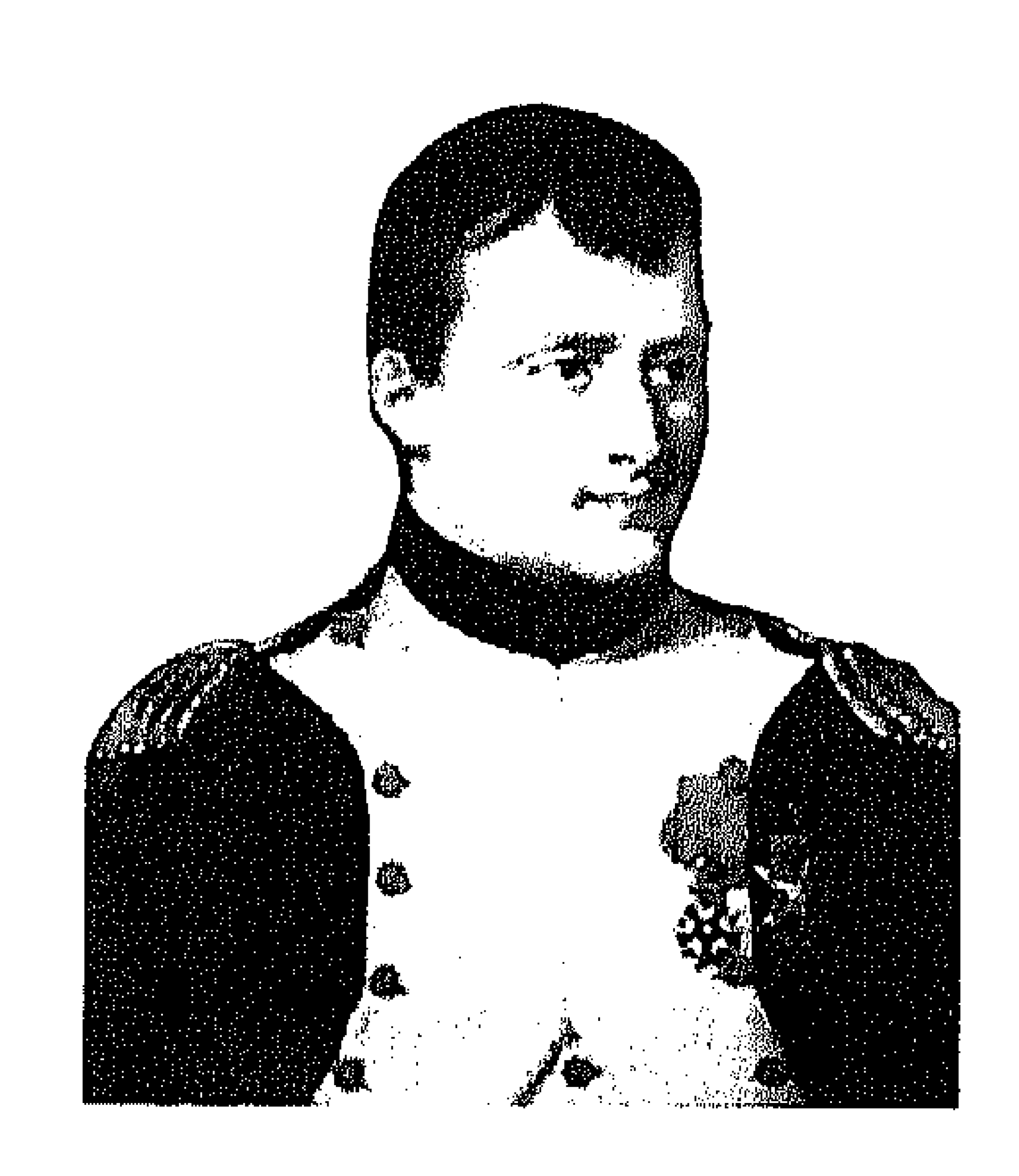
والآن، أنتقل إلى مرحلة أخرى من مراحل ذلك التاريخ فى صورة الصدام مع الغرب على أرضى الطاهرة فى العصر الحديث، من خلال الحملة الفرنسية التى واجهها أبنائى دفاعًا عن ترابى المقدّس.

- ٧ -



حلّت بى مرحلة جديدة من تاريخى الممتد عبر الزمان، فى صورة مقدم الحملة الفرنسية بقيادة ذلك المغامر المدعو نابليون بونابرت، الذى صورته الدعاية الفرنسية الممجوجة بأنه أحد أفذاذ ذلك الزمان، وأن كان يمتلك عبقرية عسكرية وسياسية لا يستهان بها. والحقيقة، أنه لم يكن إلا أحد أقزام الغرب الذين تكالبوا على أرضى الطاهرة.

لقد أوضحت سَلَفًا أن فكرة احتلالى من جانب فرنسا فكرة قديمة، وقد أوردتها لقرائى خلال العصور الوسطى، وأبرزها حملة الملك لويس التاسع التى باءت بالخسران المبين عام ١٢٥٠م، وفيما بعد فى عهد الملك لويس الرابع عشر (١٦٧٢- ١٧١٤م)، ظهرت الفكرة فى الأفق مرة أخرى؛ من أجل ضرب المصالح التجارية الهولندية فى الهند عن طريق مصر. أما فى عهد الملك لويس الخامس عشر (١٧١٥- ١٧٧٤م)، فقد أراد أن تتنازل الدولة العثمانية -التى كانت تسيطر على أرضى- عنى لفرنسا، أما فى عهد الملك لويس السادس عشر، فقد تجدّدت تلك الفكرة؛ من أجل تدعيم تجارة فرنسا فى شرق آسيا من خلال موقعى الفريد.



نابليون بونابرت

لقد ارتبط تاريخى بما يحدث فى عالم البحر المتوسط، وفى القسم الغربى منه حينذاك، إذ وقعت أحداث الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩م، ضد الملكية هناك، ورفعت شعارات (الحرية - الإخاء - المساواة)، والحقيقة الجليّة أن تلك الشعارات كانت أبعد ما تكون عن التنفيذ الحقيقى الموضوعى، إذ إن أبناء تلك الثورة تعاملوا مع الشعوب الشرقية الأخرى بمنتهى التعصّب على نحو دلّ على أن تلك المبادئ كانت لهم هم وحدهم، أما أنا وشقيقاتى العربيات فلنا الهوان والدماء، والدمار، وكأنهم امتداد طبيعى لصليبيى العصور الوسطى فى العصر الحديث.

لقد رأى الفرنسيون أن الوسيلة المثلى من أجل إلحاق الهزيمة بأعدائهم التقليديين، الإنجليز، تتمثل فى ضرب مستعمرات إنجلترا فى الشرق، والفتك بتجارتها الشرقية من خلال تحويلها إلى البحرين الأحمر والمتوسط؛ وذلك بدلاً عن طريق رأس الرجاء الصالح الخاضع لسيطرة إنجلترا!.

وهكذا لاحت فى الأفق أحلام الفرنسيين بتكوين إمبراطورية فى الشرق أكون أنا قاعدتها، وجاء ذلك فى وقت كانت أحوالى فيه - بصفة عامة متردية- خلال الحكم العثمانى سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا، ولا ريب فى أن ذلك كلّه شجّع الغزاة على تحقيق أهدافهم الاستعمارية واحدًا وراء الآخر.

ومهما يكن من أمر، هناك من أبنائى من يتوهّم حاليًا أن ما يعرف "بنظرية المؤامرة" أكذوبة كبرى، وأن علينا التعامل مع الغرب بشفافية، ودون ما حقد، وبقلب وعقل مفتوحين، وإلى أولئك المخدوعين الذين لم يقرأوا التاريخ جيدًا، أقدّم لهم السطور التالية كى يتأكد للقاصى والدانى كيف أن تاريخى لا يكتب دون الإشارة إلى تآمر الغرب علىّ وعلى أبنائى؛ من أجل سلب خيراتى وتحويلها إلى بلاده، كى يتقدّم هو وأتخلف أنا!؛ وأقع فى دائرة الاحتياج إليه باستمرار زراعيًا وصناعيًا وتجاريًا، وتلك هى المؤامرة المكررة والمعادة التى على الجميع من أبنائى إدراكها الإدراك الأمثل؛ حتى لا يقعوا فى أكذوبة

العقل المفتوح والقلب المفتوح فى التعامل مع ذلك الغرب الماكر.

لقد أبحرت الحملة الفرنسية الصليبية من فرنسا فى مايو ١٧٨٩م بقيادة المغامر الفرنسى نابليون بونابرت، ووصلت إلى الإسكندرية فى أول يوليو ١٧٨٩م، وقد توهّم الغزاة أننى لقمة سائغة فى أفواههم، فإذا بأبنائى يقاومونهم بعنف وضراوة ليدخلوا التاريخ من أوسع أبوابه، فقاومت الإسكندرية، وحمل أبناؤها السلاح ضد الغزاة الفرنسيين الذين أرادوا تكملة دور أجدادهم خلال الحملة الصليبية السابقة بقيادة الملك لويس التاسع عام ١٢٥٠م، وقاد السكندريين فى ذلك أحد أبنائى البررة وهو الزعيم محمد كُريّم، وفيما بعد اعتقله الغزاة، وتم إعدامه رميًا بالرصاص فى القاهرة يوم ٦ سبتمبر ١٧٩٨م وجاء استشهاده ليؤكد أن شعارات الحرية والإخاء والمساواة الفرنسية، ذهبت أدراج الرياح!!، وروى دمه الطاهر تراب أرضى المقدس، ولا زال تاريخى يتذكّر البطل محمد كُريّم الذى قاوم المغامر الفرنسى نابليون بونابرت على أرضى الطاهرة.

وهناك صفحة أخرى من صفحات المقاومة فى صورة مقاومة البحيرة، إذ إنه خلال زحف الفرنسيين فى محافظة البحيرة، أثناء تقدّمهم إلى القاهرة، التقوا بقوات أحد القيادات، وهو مراد بك، فى معركة شبراخيت فى ١٣ يوليو ١٧٨٩م، وكان أغلب المقاتلين من الفلاحين وعرب البحيرة الذين قاموا بالتطوع لقتال الغزاة الفرنسيين، وكانت أسلحة الفريق الأول بدائية مقارنة بآلة الحرب، والدمار المتقدمة التى جلبها معه المغامر الفرنسى سالف الذكر، وهُزم جند مراد بك وتقهقروا مع من بقى من قواته للدفاع عن قاهرتى الحبيبة.

ويتذكر تاريخى جيدًا مقاومة إمبابة، حيث حشد المماليك قواتهم، وانضم إليهم الآلاف من أبنائى الذين هبّوا للدفاع عنى ضد الأخطبوط الفرنسى الذى يريد الفتك بى بكل وسيلة ممكنة. غير أن الهزيمة لحقت بهم فى معركة إمبابة فى ٢١ يوليو ١٧٨٩م، لقد كانت فجوة التسليح تقف كالوحش الكاسر لتعوق قدرة المماليك على مواجهة الغزاة

الفرنسيين.

والذى حدث أعقاب معركة إمبابة أن المغامر الفرنسى لم يجد صعوبة فى دخول القاهرة الغالية، لقد استبدّ بى الحزن الشديد وأنا أرى القاهرة مقهورة !!! وصارت مقرًا لحكمه، وقد توهّم أن الأمور ستسلس له، وأننى سأغدو قطعة ذهبية فى تاجه، غير أن تاريخى أبى إلا أن أكون شوكة فى حلق فرنسا المستعمرة التى تلطخت يداها بدماء أبنائى البررة الذين هبّوا للدفاع عنّى ورووا بدمائهم الطاهرة ترابى المقدّس.

أما أبناء الصعيد الشرفاء فقد رفضوا الخضوع لفرنسا الغازية، وثارت فيهم روح الوطنية، و لم يتصورونى للحظة محتلّة من أولئك اللصوص القادمين من الغرب المتآمر، فقاوم الصعيد مقاومة بطولية ذكرها له التاريخ. ومما ساعد على ذلك وجود اتصالات بين أهالى الصعيد والبقية المتبقية من المماليك. ويضاف إلى ذلك، مقدم قوة من عرب الحجاز لدعم دفاعاتى، على نحو أثبت بجلاء أن شرقى البحر الأحمر، وغربيه، الاثنيْن معًا، شقيقان لا ينفصلان، كما الحال فى علاقتى ببلاد الشام، وأن رابطة الإسلام والعروبة أقوى من أية رابطة أخرى خاصة إذا داهمتنا الأخطار. بالإضافة إلى بعد الصعيد عن مركز الحكم الفرنسى الغاشم فى القاهرة. وهكذا كانت أرضى ترفض الاحتلال وتعرف أن أيام الفرنسيين محدودة ومعدودة، وتهتف قائلة إننى مصرية إلى آخر الزمان.

ولا أغفل هنا الإشارة إلى أن إنجلترا لم تترك فرنسا تنعم بوجودها على أرضى؛ إذ رغبت فى الفتك بالحملة بأية وسيلة، وكانت أحداث معركة أبى قير البحرية فى الأول من أغسطس عام ١٧٩٨م، إذ تمكّن الأسطول الإنجليزى بقيادة القائد نلسون من تدمير الأسطول الفرنسى فى تلك المعركة، وبالتالى، صارت الحملة دون دعم بحرى، وتم حرمانها من الإمدادات القادمة لها من الوطن الأم فرنسا المستعمرة المعتدية.

إن شعبى الأبى، الذى ما رضخ يومًا للظلم والعدوان، كان يدّخر لحملة اللصوص الفرنسيين الكثير، فقد اندلعت ثورة القاهرة الأولى فى ٢١ أكتوبر ١٧٩٨م، التى كان

من أسبابها وجود الاحتلال الفرنسى ذاته، ثم الإسراف فى الضرائب لنهب المصريين، وهدم العديد من المساجد والمبانى، وتحجج الفرنسيون الغزاة فى ذلك كلّه بأنهم يحصّنون القاهرة! من أجل بقاء الاحتلال لأعوام طويلة.

اندلعت شرارة الثورة، وفتك أبنائى بالغزاة فقتلوا نحو مائتين منهم، وسقط ألفان من فلذات كبدى شهداء لينضموا إلى القافلة الطويلة الممتدة عبر أعوام التاريخ، وتم قتل الجنرال "ديبوى" الذى عينه المغامر نابليون حاكمًا على القاهرة. وقد كان الجامع الأزهر قلب الثورة، مما يُؤكّد لنا أن ذلك الموقع كان ولا يزال وسيظل بقعة لا تتجزأ من تاريخى. فمنه خرج العلماء والفقهاء، ومنه ظهر قادة الثورة.

ولم يتردد أبناء فرنسا الذين رفعوا شعارات الحرية- الإخاء- المساواة!!! فى التعامل مع الثوار الذين يطالبون بأبسط الحقوق الإنسانية، فكانت آلة الحرب الجبّارة فى صورة المدافع تضرب قاهرتى الغالية، وتم اقتحام الجامع الأزهر بالخيول الفرنسية الدنيئة، وأدرك أبنائى المصريون أنها الروح الصليبية المتعصّبة، وأن المغامر الفرنسى لا يريد تحريرهم كما ادعى بل استعمارهم وإذلالهم، وإهانة أماكن عبادتهم ذات المكانة الخاصة فى النفوس.

لقد تم قمع ثورة القاهرة الأولى، غير أنها أكدت أن شعبى لا يسكت على الضيم، كما أن كراهية أبنائى للغزاة الفرنسيين البرابرة صارت متأصّلة، لا سيّما بعد ضرب الجامع الأزهر.

واتجه فكر المغامر الفرنسى إلى التوجه لغزو بلاد الشام شقيقتى وجارتى. ودفعه إلى ذلك عدة عوامل، منها: مواجهة الجيش العثمانى القادم عن طريق البرّ، للقضاء عليه قبل وصوله إلى أرضى، كذلك رغب نابليون فى إبعاد الأسطول الإنجليزى إلى السواحل الشامية لتخفيف الحصار المفروض حينذاك على الشواطئ المصرية.

ولكن، كان الدرس القاسى ينتظر تلك الحملة المغرورة عند عكّا، إذ إن حاكمها أحمد

باشا الجزّار، أحد أبطال بلاد الشام، دافع عنها دفاع الأسود عن عرينها، وشاركه فى ذلك أبناؤها الصناديد، كذلك كان لتزويد إنجلترا حامية عكّا بالمؤن والإمدادات الأثر المهمّ فى دعم دفاعها فى مواجهة الفرنسيين الغزاة.

ومن ناحية أخرى، وصلت أخبار سيئة من فرنسا لنابليون، عكَست ظهور حلف مضاد له بقيادة النمسا، ولذلك قرّر العودة إلى بلاده، وغادر الإسكندرية سرّا كاللصوص فى ١٨ أغسطس ١٧٩٩م، خوفًا من أن يفتك به أحد، خاصة من الإنجليز أو المصريين، وعهد بقيادة الحملة لقائد فرنسى آخر سمّى كليبر، والذى فى عهده حدثت ثورة القاهرة الثانية فى مارس– أبريل ١٨٠٠م، وقد تزعّم أحداثها السيد عمر مكرم نقيب الأشراف، وامتدّت نيرانها إلى مناطق أخرى من الدلتا وصعيد مصر. وفى كافة تلك الأحداث أثبت أبنائى للتاريخ أننى لا أقبل أى محتلّ يدنّس أرضى، وأننى بمثابة مصنع البطولات المدافعة عن حياضى، وما جفّ ذلك النهر يومًا بل مايزال يتدفّق.

لقد كانت هناك صفحة جديدة من تاريخ تلك الحملة الفرنسية تسطّر على يد طالب أزهرى يدعى سليمان الحلبى، حيث سدّد طعناته الرائعة إلى صدر القائد الفرنسى كليبر فى يوم ١٤ يونيو ١٨٠٠م فأرداه قتيلاً.

وظل المصريون يتذكّرون بإكبار ذلك الشاب الحلبى الذى تربّى فى الأزهر، مما أثبت ويثبت وسيثبت دومًا أنه الجامعة الكبرى لتخريج العلماء والأبطال، ولا ريب فى أن الفتك بذلك القائد الفرنسى على أرضى أكّد للتاريخ كيف أن أبناء بلاد الشام وأبنائى، جميعهم فى زورق واحد، وما يصيب فريق يتأثر به الفريق الآخر حتمًا.

سليمان الحلبى

حوكم سليمان الحلبى البطل، وتم إعدامه بالتخزيق، وأُحرقت يداه، وتلك عدالة فرنسا تنفذ على أرض النيل! فبوركت مبادئ الثورة الفرنسية التى تريد من شعوب الشرق أن تكون كقطعان الماشية للراعى الأوربى الذى قدم من أجل بسط نفوذه واستعراض قوّته على حساب أبناء البلاد الأصليين !!!

وفى النهاية، غادرت الحملة الفرنسية أرضى الطاهرة عقب سلسلة إخفاقات كاملة، ومقاومة شعبية من الداخل، وعداءات إنجليزية عثمانية من الخارج، وتأكّد للعالم بالفعل أننى "مقبرة الغزاة". وكما يقال فإن نابليون بونابرت انهارت قوّته بفعل ثلاث مناطق: مصر وموسكو وواترلو.

وهناك زاوية على جانب كبير من الأهمية لا يمكن إنكارها فى معرض الحديث عن الحملة الفرنسية، فى صورة أنها عكست الاستعمار من خلال العلم. فقد قدم المغامر نابليون بونابرت ومعه مجموعة من كبار العلماء الفرنسية (١٤٦ عالما)، وقد تخصّصوا فى العديد من العلوم والمعارف مثل الرياضيات والكيمياء والفلك والمعادن والنبات والاقتصاد والتاريخ والجغرافيا... وغيرها، وقد عمل على إقامة ما عرف بالمجمع العلمى المصرى الذى هدف إلى دراسة الجوانب الطبيعية والصناعية، وتقديم المشورة للقيادة الفرنسية فيما يواجهها من صعاب فى مجال استعمار أرضى المقدّسة. وهدف فيما هدف إليه إلى الربط بين السياسة والعلم؛ حتى لا تكون الأولى مرتجلة دون أساس علمى حقيقى يضمن لها الاستقرار والاستمرار، وبالتالى النجاح، ولكن هيهات!!!.

والجدير بالذكر أن الحملة أقامت مطبعتين: إحداهما بالعربية، والأخرى بالفرنسية، كما تمّ إصدار جريدتين: إحداهما سياسية، والأخرى اقتصادية. غير أن الإنجاز الأكبر والأهمّ، عُرف باكتشاف حجر رشيد، وتم فكّ رموزه على نحو كان له دور حاسم فى معرفة نصوص الحضارة المصريّة القديمة، ونظرًا لأهميّة ذلك الأمر سأسلّط الضوء على

حجر رشيد وقصة اكتشافه.

الواقع أن حجر رشيد حجر من البازلت الأسود، ويوصف بأنه ذو شكل غير منتظم يبلغ ارتفاعه ١١٣سم، وعرضه ٧٥ سم، أما سمكه فيبلغ ٢٧,٥٠سم، وتم فقد أجزاء من أعلاه، وكذلك أسفله. وقد سجّل عليه عام ١٩٦ق.م. نص فى عهد الملك بطليموس الخامس، من جانب كهنة مدينة منف (الواقعة الآن فى ميت رهينة- مركز البدرشين- محافظة الجيزة) يقدّمون الشكر للملك المذكور لقيامه بوقف الأوقاف على المعابد، وكذلك إعفاء الكهنة من بعض الالتزامات.

حجر رشيد

لقد تمّ العثور على الحجر المذكور الذى نجده الآن فى المتحف البريطانى بلندن فى عام ١٧٩٩م، وقد بذل العالم الفرنسى الفذّ جان فرنسوا شامبليون (١٧٩٠- ١٨٣٢م) عاشق اللغة المصرية القديمة جهدًا مضنيًا إلى أن تمّ فكّ رموز ذلك الحجر الخالد، لقد مات شامبليون وهو لا يزال شابًا، ودخل التاريخ من أوسع أبوابه - بفضلى أنا مصر قبل عبقريته - بتوصّله إلى فكّ رموز ذلك الحجر على نحو سلّط الأضواء الكاشفة - لأول مرة - على تراث المصريين القدماء أبنائى الذين شيّدوا حضارة لا تزال تبهر العالم بلا استثناء.

تلك كانت قصّة حجر رشيد. كما أن الحملة قامت بعمل آخر على جانب كبير من الأهمية هو أن علماءها قد ألّفوا كتابًا بعنوان " وصْف مصر" La Description de l'Egypte وهو كتاب موسوعى ضخم تم فيه وصفى من كافة جوانبى السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، كما تم تقديم لوحات متعددة للآثار فى وقت وجود الحملة الفرنسية بها. ويعكس هذا الكتاب أمرين: ثرائى الكمّى والنوعىّ على المستوى

الحضارى، ورغبة الفرنسيين الشديدة فى رصد كل ما تقع عليه أعينهم من أجل إحكام قبضتهم على أرضى المباركة.

ومن الأمور المؤكدة أن الحملة الفرنسية التى استهدفت ثرواتى، ودعم المشروع الاستعمارى الفرنسى شرقى البحر المتوسط فى العصر الحديث، قد تركت آثارها السلبية والإيجابية. أما الحديث عن السلبيات، فيكفى الحديث عن آلاف الشهداء الذين سقطوا دفاعاً عنّى ضد الغازى الفرنسى بقيادة عصبة المغامرين: نابليون وكليبر ومينو، ومن شابههم. كما لا نغفل كذلك أن تلك الحملة نبّهت الأذهان إلى أهميّة موقعى الجغرافى كحلقة اتصال بين الشرق والغرب، على نحو سيكون له أكبر الأثر فى اهتمام الدولة الأوربية المنافسة لفرنسا، وأعنى بها إنجلترا بالقدوم إلىّ، ومن ثم تضع أقدامها على أرضى، ودخولى مرحلة جديدة من مراحل الاحتلال الأوربى فيما بعد. وأما الإيجابيات، فقد ذُكرت فى صورة أمرين أولهما: حجر رشيد، والتوصّل إلى فك رموز اللغة المصرية القديمة، كذلك تأليف "وصف مصر"، وهو كتاب عكف على ترجمته فى علم وصبر وتصوّف فى آنٍ واحد، أحد أبنائى الأفذاذ وهو زهير الشايب رحمه الله تعالى رحمة واسعة على ما أسداه لى من جهد علمى بارز لا ينسى.

ولا ريب أن الحملة المذكورة لفتت انتباه المصريين إلى الفجوة العلمية الشاسعة بينهم- فى ظل الوجود العثمانى- وبين الغرب الأوربى، وخاصة فرنسا، وكان ذلك دافعًا -فيما بعد- عندما قام محمد على بمشروع نهضته إلى إرسال البعثات إلى هناك من أجل الإفادة من التطوّرات العلميّة الفرنسيّة.

ولى هنا ملاحظة، وعتاب!! فقد ظهر فى الأعوام الأخيرة عدد ممن انتسبوا إلىّ اسمًا، وارتبطوا بفرنسا روحًا وعقلاً، وحاولوا الاحتفال بذكرى الحملة الفرنسية ومقدمها إلىّ، على اعتبار أنها كانت فاتحة عصر التنوير!! ويا للعجب! أهكذا أيها الأبناء تحتفلون بالغزاة؟، كيف أغفلتم أن كافة الإنجازات العلمية لتلك الحملة ما كان لها أن تحدث لو لم

أكن أنا مصر عملاقة الحضارة القديمة والمتوسطة؟! لقد اكتشفوا حجر رشيد وفكّ أحد أبنائهم رموزه، ودلّ ذلك على عظمتى مع الاعتراف بجهد شامبليون، وكتاب "وصف مصر"، يدلّ دلالة واضحة على أنه كان على أرضى من الثروات الطبيعية والبشرية والآثارية الحضارية الضاربة فى عمق التاريخ ما احتاج من الغزاة أن يصفوه فى ذلك الكتاب الرائع. فكيف أيها الأبناء تحتفلون بالغزاة؟ وهل انقلبت الأمور على هذا النحو بحيث تحتفل الضحية بمقدم القصّاب؟ إن تاريخى ليبكى!، وإن حضارتى تنتحب!، وإن آثارى عابسة فى وجوه أولئك المصريين الذين تفرنسوا، وفكّروا بعقول فرنسية لا مصرية.

لقد قيّض الله تعالى من يدافع دفاع المخلصين عنّى وعن تاريخى؛ وهم مجموعة صادقة من الباحثين والباحثات الذين كشفوا النقاب عن الوجه القبيح الحقيقى لتلك الحملة الاستعمارية وما لها وما عليها.

فالحذر...!! الحذر...! يا أبنائى من التبعية العمياء للغرب، كونوا أبناءً لى، كونوا عشّاقى أعطكم من خيرى الذى لا يحصى بإذن ربى الوهّاب. أما أن يحيا بعضكم فوق ترابى المقدّس الذى ما ضنّ عليكم بالخير، ولا تكونوا مستهدفين من جانب دولة ما فيما وراء البحار، فالحسرة المتحسّرة عندئذ، والنكبة النكباء، والألم المؤلم!! خذوا من الغرب أفضل ما فيه.. لا أسوأ ما لديه..!

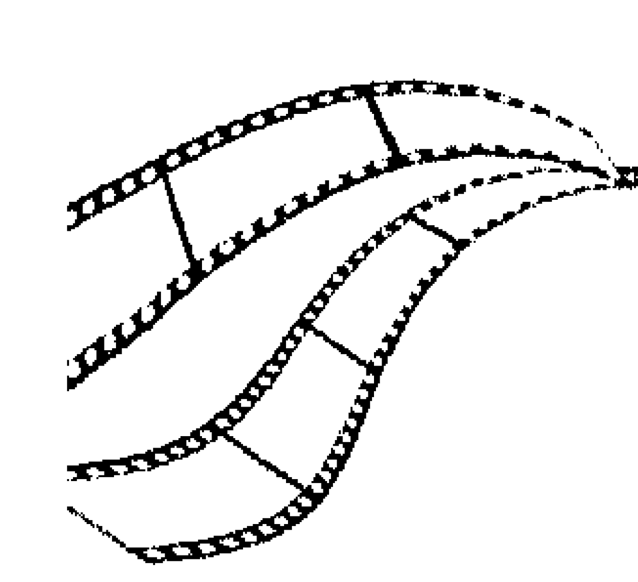
ومن الأهمية بمكان أن أورد هنا رأى أحد المؤرخين المعاصرين من أبنائى فى الحملة الفرنسية، وهو عبد الرحمن الجبرتى، فقد نظر إلى أهدافها على أنها "من الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة والوقائع النازلة والنوازل الهائلة وتضاعف الشرور وترادف الأمور وتوالى المحن واختلال الزمن"!! ومع ذلك، فبعد مدة قصيرة من استقرار الغزاة الفرنسيين فى القاهرة، اتجه ذلك المؤرخ إلى مكتبة المجمع

الجبرتى

العلمى، وتردد عليها مرات عديدة، وطالع ما احتوته، وقال عبارته الشهيرة: "لا يسعها عقول أمثالنا".

كذلك نلاحظ أن ذلك المؤرخ أُعجب بالفرنسيين فى زوايا، كما نقم عليهم فى جوانب أخرى. فمن زوايا الإعجاب: إبطالهم للسخرة، حيث إنهم قاموا بدفع الأموال للعمال مقابل عملهم، وعدم ميلهم إلى الغشّ، إلى غير ذلك. ويقرر أ. د. عبد الخالق لاشين أن ذلك المؤرخ لم يتردد فى العمل مع الفرنسيين من خلال عضوية الديوان الثالث فى أكتوبر عام ١٨٠٠م. وقد نقم الجبرتى على الفرنسيين لشعوره بالخطر على الدين والأخلاق كنتاج للتجديدات الغربية التى قام الفرنسيون بإدخالها على النظام الشرعى، وتقديمهم صلاحيات واسعة للضباط، كذلك تسليح بعض شبابهم وانضمامهم إلى فرق للعمل مع عناصر الفرنسيين ضد المصريين.

من ناحية أخرى، أظهر ذلك المؤرخ السخط من خروج المرأة فى ذلك العصر على كل ما هو مألوف ومعتاد. وقد كشف أ.د. عبد الخالق لاشين عن توافر الزاويتين المذكورتين فى كتابات ذلك المؤرخ البارز. وأيًا ما كان الأمر، فإن تلك الحملة كانت على نحو خاص بداية الاصطدام مع الغرب، خاصة أنها قدّمت النموذج الغربى على أرضى. ولن يكون تاريخى بعد تلك الحملة مثلما كان من قبل، وهى تعدّ نقطة تحوّل فارقة.



- ٨ -

فى تاريخى الحديث، أيها القراء، رجلان تمكّنا - مع الفارق الشاسع - من اكتشاف قدراتى الذاتية، وبالتالى، جعلا منى قوة إقليمية ودولية عظيمة الشأن. ولكن مشروعهما تحطّم بسبب وقوف الغرب ضدّهما:

هما محمد على، وجمال عبد الناصر.

فلا يستطيع كائن ما أن ينكرهما.

وفى الصفحات التالية سأعرض لتاريخى من خلال القائد الأول.

لقد اضطربت أوضاعى السياسية فى أعقاب خروج الحملة الفرنسية من أرضى الطاهرة. وتصارع الأتراك والمماليك والإنجليز معًا، إلى أن وصل إلى سدّة الحكم رجل يدعى محمد على، الذى ولد عام ١٧٦٩م فى مدينة قوَلة إحدى مدن مقدونيا ببلاد اليونان، التى كانت خاضعة للسيادة العثمانية. وقد انضمّ إلى صفوف الجيش العثمانى، وغادره إلى تجارة الدخّان، وحقّق من وراء ذلك خبرة تجارية، ناهيك عن ذكائه الفطرى وخبرته العسكرية السابقة، وقَدم إلىّ مع الأسطول العثمانى لطرد

محمد على

الفرنسيين من مصر. لقد عرف عن ذلك الرجل الدهاء، والقدرة على تحقيق الأهداف بأية وسيلة ممكنة، حتى لو كان ذلك على حساب اعتبارات عديدة.

إن محمد على قد استطاع التودد إلى الزعامات الشعبية التى اختارته حاكمًا علىّ أنا مصر، وذلك عام ١٨٠٥م، على شريطة أن يحكم بالعدل، ويُقيم الشرائع والأحكام، وألاّ يرتكب المظالم، وأن يشاور العلماء، غير أنه بعد أن حقّق مآربه بالوصول إلى السلطة، عمل على التخلّص من تلك الزعامات.

وفى عام ١٨٠٧م تعرّضت أرضى لحملة انجليزية وهى التى عُرفت بحملة فريزر، التى تمكنت من احتلال مدينة الإسكندرية، عروس البحر المتوسّط، وقتها تمّ الزحف إلى رشيد، وقاومها أهلها مقاومة باسلة، وفى متحف مدينة رشيد، التابعة لمحافظة البحيرة، توجد شواهد أثرية على الأسلحة التى قاوم بها أهل تلك المدينة الجميلة الساحرة الغزاة على نحو أدّى إلى فشل مسعاهم، وعودتهم خائبين إلى الإسكندرية. وفيما بعد، تمكن محمد على من الزحف على المدينة الأخيرة، وحاصرها، فاضطرّ الإنجليز إلى الانسحاب، وهم يجرّون أذيال الخيبة والعار. ومرة بعد أخرى، يتأكّد للقاصى والدانى حجم المؤامرات العديدة من جانب الغرب ضد أرضى، وحجم التضحيات من جانب أبنائى.

ثم تمكّن محمد على من التخلّص من الزعامات الشعبية، وأعانه على ذلك الانقسام والفرقة التى حدثت بين عناصرها، خاصة التنافس بين اثنين منهما فى صورة الشيخ عبد الله الشرقاوى والشيخ محمد الأمير، بشأن نظارة أوقاف الأزهر. وقد قام بخلع عمر مكرم من نقابة الأشراف، وأمر بنفيه إلى دمياط، وعهد بأمر تلك النقابة إلى الشيخ السادات الذى لم يكن ليعارض حاكم مصر.

كما قام ذلك الألبانى الداهية بمذبحة القلعة فى مارس عام ١٨١١م، ضد قواد المماليك، ففتك بهم دون شفقة أو رحمة، وبذلك يكون قد تخلّص من أهمّ القوى المعارضة له فى الداخل والخارج، وبالتالى صار القائد الأوحد دون منازع.

ومن الملاحظ أن ذلك الحاكم اتبع فى أمور دولته، على المستوى الاقتصادى، سياسة الاحتكار فى مجالات الزراعة والصناعة والتجارة. وكان ذلك يعنى قيام الدولة بتحديد نوع المحاصيل التى تزرع، ونوع الصناعات، وتحديد أثمان شرائها من المنتجين، وكذلك بيعها للمستهلكين.

وقد أراد محمد على أن تقوم كافة مرافق دولته بتمويل احتياجات بناء قوة عسكرية كبرى تمكّنه من تحقيق طموحاته من خلال اعتماده على المصريين أبنائى الذين أثبتوا كفاءة عسكرية كبيرة.

ثم إننا نلاحظ اهتمامه الشديد بإرسال بعثات علمية إلى أوربا؛ من أجل اللحاق بالركب العلمى هناك. فقد أرسل العديد منها إلى فرنسا، وإنجلترا وإيطاليا والنمسا خلال المرحلة الواقعة بين عامى ١٨١٣ و ١٨٤٧م. وقد اتجهت إلى دراسة النواحى العسكرية، ثم اهتمت بدراسة القانون والسياسة. ولا نغفل أن تلك البعثات اعتمدت فى الأساس على طلاب الأزهر الذين أثبتوا حينذاك التوازن بين الأصالة والمعاصرة. وما زلت أتذكّر أحد أولئك المبتعثين صعيدى من سوهاج، وبالتحديد طهطا، إنه رفاعة رافع الطهطاوى، الذى كان إمامًا لأوّل بعثة ترسل إلى فرنسا عام ١٨٢٦م، وتمكّن من رصد الواقع الفرنسى من كافة جوانبه، ونصح محمد على بإقامة مدرسة الألسن عام ١٨٣٦م، وكانت تلك المدرسة صاحبة الفضل الأكبر فى نقل العديد من مؤلفات الغرب الأوربى إلى لغة الضاد على نحو أنار الطريق للكثيرين فيما بعد.

رفاعة رافع الطهطاوى

لقد قام رفاعة الطهطاوى بتأليف عدة كتب نذكر منها: "تخليص الإبريز فى تلخيص باريز" ويتناول

فيه مشاهداته فى فرنسا خلال بعثته هناك، ولا ريب فى أن ذلك الكتاب – على نحو خاص – يعكس صدمة المصريين الذين أوفدوا إلى بعثات علمية لأوربا من البون الشاسع بين ما عليه بلدهم، وما صارت إليه أوربا من تقدّم فى العدد من الجوانب، وليس كافة الجوانب بطبيعة الحال!.

وقد شهد عهد محمد علي – الذى يمكن أن يوصف بالفعل بأنه بانى مصر الحديثة – تأسيس العديد من المدارس العالية خلال المرحلة من ١٨١٦ – ١٨٣٩م، مثل المهندسخانة، الطبّ، الولادة، الزراعة، الموسيقى، الفنون، الصناعات، المحاسبة، وكذلك المدارس الحربية من أجل تزويد الجيش بالقوة البشرية المدرّبة اللازمة للمشروع التوسّعى الكبير الذى كان يخطط له.

ومن المهم أن أنبه أبنائى إلى أن اتجاه ذلك الداهية إلى تكوين جيش قوى ليحقق طموحاته لم تكن تحدّ، وقد بدأ بالاستعانة بالجنود الألبان والأتراك، غير أنه أخفق فى تكوين جيش منهم.

ثم أرسل ٥٠٠ من المماليك إلى أسوان للتدريب على الأساليب الحديثة فى القتال، وأفاد من خبرة ضابط فرنسى يدعى الكولونيل سيف الذى اعتنق الإسلام، وصار اسمه "سليمان باشا الفرنساوى"، وأمكنه بالفعل تدريبهم حتى صاروا على كفاءة عالية. وفيما بعد، اعتمد على المصريين، وأفاد من الضباط الفرنسيين فى تدريبهم، وقد أثبتوا كفاءة كبيرة فى استيعاب تلك التدريبات، وذلك شأن أبنائى، دائمًا سبّاقون سبّاقون !، وإذا ما أعطيت لهم الفرصة السانحة لتفجير طاقاتهم شاهد العالم، بعينىّ رأسه، كل عجيب وغريب منهم، وذلك شأن أبنائى المصريين دوما !!! ولا نغفل كذلك اتجاهه إلى تشييد أسطول، ولذلك أنشأ ترسانة بولاق لصناعة السفن الحربية.

والآن، ألقى الضوء على سياسة محمد على الخارجية على نحو موجز، من أجل الاهتمام بتلك المرحلة الحاسمة من تاريخى فى العصر الحديث، وكيف تم الاصطدام بين طموحات

حكامى والقوى الدولية الكبرى، التى لم تكن لترضى بدور دولى لى.

يمكن تقسيم حروب محمد على إلى عدة زوايا تذكر فى الآتى:

١- حروبه فى جزيرة العرب لمواجهة الحركة الوهابية.

٢- حرب المورة وقمع التمرّد ضدّ الدولة العثمانية.

٣- فتح السودان.

٤- حروب الشام والأناضول.

أما بالنسبة لحروبه فى "جزيرة العرب"، فمن الملاحظ أن السلطان العثمانى استعان به من أجل مواجهة الحركة الوهابية. وقد تمكن، من خلال ابنه بالتبنّى إبراهيم، من تحقيق انتصارات عسكرية كبيرة هناك، واستطاع إسقاط الدولة السعودية الأولى، وقد صار نفوذى يمتدّ إلى الحجاز، ونجْد، وعسير، وجزء من اليمن، ومن الخليج العربى. ويلاحظ هنا أن إنجلترا وقفت بالمرصاد لمنع امتداد النفوذ المصرى إلى أبعد من ذلك، فقامت عام ١٨٢٠م بفرض نفوذها على مناطق الخليج العربى، كذلك احتلّت عدن عام ١٨٣٩م، وكانت دومًا تسعى لتأمين مواصلاتها إلى أرض الهند التى اعتبرت درّة التاج البريطانى. انظر أيها القارئ، إنها مؤامرة الغرب على أقطار الشرق، فأنا مصر، والهند، فى أسر واحد، والسجّان إنجلترا!!!

وفيما يتّصل بحرب المورة، أُوضح للقراء أن الثورة اندلعت ضد الدولة العثمانية فى بلاد اليونان عام ١٨٢١م. فطلبت من محمد على إخمادها، وبالفعل استخدم أسطوله لتحقيق ذلك الأمر، وتمكّن من التوصّل إلى نتائج إيجابية، وقد ربح من وراء العمل فى الميدان المذكور، جزيرة كريت التى أصبحت تابعة لمصر، ونعمت تحت الحكم المصرى بالأمن، والسلام، والإزدهار.

وبالنسبة إلى السودان، فقد اتجه محمد على إلى هناك من خلال عدة دوافع منها: تجنيد جيش جديد من السودانيين، ومطاردة فلول المماليك الهاربين إلى دنقلة، وكذلك البحث عن مناجم الذهب والماس. ولا نغفل إدراكه أن السودان ما هى إلا الامتداد الجنوبى لمصر، ولذلك أراد تحقيق الوحدة الطبيعية لوادى النيل، وهو أمر وجدناه من قبل لدى قادة سابقين عليه منذ عهود الفراعنة الذين حرصوا على تأمين الحدود الجنوبية.

لم يستغرق فتح السودان أمدًا طويلاً، إذ إن ذلك تمّ خلال المرحلة من ١٨٢٠ إلى ١٨٢٢م، ومن المهمّ هنا أن أشير إلى أن أبنائى هم الذين وضعوا أسس تشييد مدن جديدة هناك، مثل الخرطوم العاصمة، وكذلك كَسَلا، وغيرها على نحو عكس الطابع العمرانى الأصيل لتاريخى حتى خارج حدودى الجغرافية الأصلية.

أما ما اتصل بحرب الشام، والأناضول، وهى التى امتدّت على مدى الأعوام من ١٨٣١ إلى ١٨٤٠م.، فنعرف أن محمد على أراد ضم بلاد الشام إليه؛ من أجل دعم مشروع الدولة العربية الموحّدة التى أراد تكوينها لمواجهة الدولة العثمانية، كذلك هدف إلى استعادة الفلاحين المصريين الذين فرّوا من الخدمة العسكرية. وقد تمكّن الجيش المصرى من تحقيق انتصارات كبرى، فاستولى على عكّا عام ١٨٣٢م، غير أن السلطان العثمانى رفض ذلك، وأعلن عزل محمد على وابنه إبراهيم. غير أن القوات المصرية لم تتوقّف فأخضعت دمشق فى يونيو ١٨٣٢م، ثم هزمت الأتراك هزيمة كبيرة عند حمص فى يوليو ١٨٣٢م. وواصلت القوات المصرية تقدّمها فبلغت جبال طوروس، والأناضول، وهزمت القوات التركية فى معركة قونية فى نوفمبر ١٨٣٢م، وصار الطريق ممهدًا للتقدّم صوب عاصمة الدولة العثمانية الآستانة.

إن كافة تلك الانتصارات العسكرية الكبرى تثبت يا أبنائى بما لا يدع مجالاً لشكّ متشكّك كفاءة الجندى المصرى المحارب، وأن بمقدوره – فى كل زمان ومكان – صنع المعجزات، وذلك دون مبالغة أو دعاية جوفاء. ولا ريب أن الاجتياح السريع للقوات

المصرية يثبت كفاءتها من ناحية، وكذلك يؤكّد على سوء السياسة العثمانية فى بلاد الشام على نحو لم يجعل أهل ذلك الإقليم يتعاطفون مع الأتراك، بل مع أشقّائهم المصريين الذين قدموا من أجل تخليصهم من استبداد الأتراك.

وقد تخوّفت الدول الأوربية من سرعة الانتصارات المصرية، وخشيت من عواقب ذلك، إذ لم تشأ أن ترانى أبسِطُ جناحىّ على المناطق المجاورة، وسعت ما وسعها السعى من أجل تحجيم دورى كى أعود إلى حدودى الأصلية. وقد ضغطت على محمد على من أجل وقف القتال والقبول باتفاقية كوتاهيه عام ١٨٣٢م والتى نصّت على:

١- منح محمد على حكم بلاد الشام.

٢- يمنح إبراهيم حكم أدنَه.

٣- تأكيد سيطرة محمد على على جزيرة كريت، وكذلك معظم جزيرة العرب بما فيها الحجاز.

ثم حدث تطوّر دولى له شأنه فى توالى الأحداث، إذ عقدت روسيا اتفاقية مع السلطان العثمانى عرفت باتفاقية خنكاراسكلسى فى يوليو ١٨٣٣م مثّلت نوعًا من الدفاع المشترك على نحو دعّم موقف الدولة العثمانية فى صراعها مع محمد على.

ومع تجدد الخلاف بين الطرفين، حقق أبنائى انتصارًا فى معركة نزيب فى يونيو ١٩٣٩م شمالى حلب. ونجد أن الدول الأوربية أرادت الحفاظ على مبدأ توازن القوى، ورفضت استعمال قوة محمد على على حساب الدولة العثمانية، وتم عقد معاهدة لندن فى يوليو ١٨٤٠م، وقد وقّعها كلّ من إنجلترا وروسيا، والنمسا وبروسيا، وكان من شروطها:

١- إعطاء محمد على وخلفائه حكم مصر وراثيًا، وحكم عكّا طوال حياته فقط، ويحتّم إخلاء جزيرة كريت، والحجاز، وأدنه.

٢- يقوم محمد على بإعادة الأسطول العثمانى إلى تركيا، وكان قد انحاز إليه فى مرحلة سابقة من مراحل الصراع.

٣- فى حالة عدم قبول محمد على الشروط المذكورة خلال عشرة أيام يتم نزع ولاية عكّا منه، وإذا استمرّ فى الرفض، يصبح من حق السلطان عزله عن ولاية مصر، وتقوم الدول الأوربية بمعاونة السلطان؛ من أجل إلزام محمد على بقبول ما تم الاتفاق عليه.

٤- يدفع محمد على جزية سنوية للسلطان كدليل على الولاء والتبعية.

٥- يلتزم محمد على بتنفيذ كافة المعاهدات التى عقدها السلطان العثمانى مع الدول الأوربية، ومنها معاهدة بلطة ليمان التى أنهت سياسة الاحتكار التى اتبعها.

٦- يتم اعتبار قوات محمد على البريّة والبحريّة جزءًا لا يتجزأ من قوات السلطان العثمانى.

وهكذا كانت معاهدة ١٨٤٠م بمثابة الضربة القاضية لتوسعات محمد على فى خارج حدودى الأصلية، وكان ذلك يعنى انحسارًا لى والعودة إلى دائرة المحلّية المحدودة، وبذلك انهار البناء الداخلى الذى أقامه من أجل دعم سياسة التوسّع الخارجى.

كيف يمكن - يا أبنائى - الاستفادة من تلك التجربة التاريخية الفريدة؟، إننى أرى أنها تثبت قدرتى إذا ما أعطيت لأبنائى الفرصة التاريخية، كما أنها تؤكّد أن القوى الأوربية الكبرى حينذاك كانت تخشى قدراتى، وخروجى للعب دور محورى على الساحة الدولية، وذلك تحقيقًا لمصالحها الخاصة، وتملك عُقدة تاريخى، لا سيما فى العصر الحديث، الاكتفاء بالمحلّية أم الدور الإقليمى والدولى خاصة مع وجود قوى خارجية تتنمّر لى، وتتربّص بى الدوائر، وتحرص على إلحاق الهزيمة بى.

يبقى أن أقرر لأبنائى أن محمد على على الرغم من نجاحاته الخارجية، ثم تحطيم مشروعه

فيما بعد، إلا أنه مثّل مرحلة مهمة فى الاتصال مع الغرب الأوربى من خلال البعثات العلميّة التى أرسلها، والمدارس العالية التى أقامها، وهى الأكثر بقاءً من كافة الإنجازات السياسية والعسكرية الأخرى التى ذهبت أدراج الرياح!.

ويجب ألا ننسى أن الذى دفع ثمن نجاحاته هو الفلاح المصرى البائس الذى عانى من الضرائب، ونظام الالتزام القاسى، وكذلك سياسة التجنيد، ولا ريب أن ذلك الفلاح، الذى لم تشِر إليه المصادر التاريخية المعاصرة إلا فى صورة سيئة، كان الجندى المجهول وراء جميع تلك الإنجازات التى تحققت خلال تلك المرحلة التاريخية المحورية من تاريخى الحافل بالإنجازات.

بقى أن نوضح رؤية مؤرخ مصرى فذّ معاصر لمحمد على، هو عبد الرحمن الجبرتى، الذى اعتبره المؤرخ البريطانى الكبير أرنولد توينبى، مؤلف كتاب "دراسة التاريخ" وصاحب نظرية التحدّى والاستجابة، من أكبر المؤرخين، فلقد نظر الجبرتى إلى محمد على على أنه عبقرى زمانه، لولا ما اتسمت به سياسته من الظلم. ويلاحظ أن ذلك الألبانى الداهية أراد الانتقام من المؤرخ الكبير، فقتل ابنه خليل!! وهكذا، دفع الجبرتى ثمن موضوعيته التاريخية بأن فقد فلذة كبده على يد ذلك الحاكم.

وهناك جانب آخر أود إيضاحه، وهو تأثير معاهدة عام ١٨٤٠م، إذ إنها أدّت إلى أن صرتُ أنا مصر صاحبة استقلال مقيّد، ورضى محمد على بحكم ذاتى لى، يقوم بتوارثه أبناؤه من بعده تحت سيادة الدولة العثمانية، وتم التخلّى عن التوسّعات الخارجية لا سيّما نحو بلاد الشام- شقيقتى الجغرافية والتاريخية- ولم يعُد لذلك الحاكم سوى حُكمى بجانب السودان الذى مثّل دومًا امتدادى الجنوبى الحيوى بفضل نهر النيل الخالد.

ولا أغفل هنا الإشارة إلى صدور ما يعرف بفرمانى عام ١٨٤١م، وفيهما تمّ فرض قيود مشدّدة علىّ، والتزمت بإرسال ربع إيراداتى كجزية سنوية كنوع من الولاء والتبعية للسلطان العثمانى. كذلك تقرر أن يكون عدد أفراد جيشى فى حالة السلم ١٨,٠٠٠

جندى. وهكذا يتأكّد للجميع كيف أن أعدائى دومًا يخشون من تزايد قوّتى العسكريّة، أما إذا اتجهنا إلى الأسطول، فقد تقرّر أنه ليس لى الحقّ فى إقامة السفن الحربية إلا بموافقة السلطان. وبالتالى تم تقييدى بريًا وبحريًا بعد أن تأكّد للعالم أجمع أن أبنائى إذا اقتنصوا الفرصة التاريخية خرجوا من دائرة المحلّية الضيّقة إلى العالمية المتوهجة.

وعلى أية حال، يحسن بى أن أشير إلى أفراد أسرة محمد على وحكمهم لى، وهم كالآتى بخيرهم وشرّهم:.

محمد على باشا (١٨٠٥- ١٨٤٨م.)، إبراهيم باشا (١٨٤٨م.)، عبّاس الأول (١٨٤٨- ١٨٥٤م.)، سعيد باشا (١٨٥٤- ١٨٦٣م.)، الخديو إسماعيل (١٨٦٣- ١٨٧٩م.)، الخديو توفيق (١٨٧٩- ١٨٩١م.)، الخديو عبّاس حلمى الثانى (١٨٩٢- ١٩١٤م.)، حسين كمال (١٩١٤- ١٩١٧م.)، أحمد فؤاد (١٩١٧- ١٩٣٦م.)، الملك فاروق (١٩٣٦-١٩٥٢م.)، أحمد فؤاد الثانى (١٩٥٢- ١٩٥٣م.).

هؤلاء هم أفراد أسرة محمد على التى حكمت شعبى خلال المرحلة من ١٨٠٥ إلى ١٩٥٣م أى على مدى ١٤٨ عامًا، وتم القضاء على تلك الأسرة بفضل ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م، وذلك أمر له حديث آخر فيما بعد. غير أن الأمر الجدير بالملاحظة أن أفراد تلك الأسرة رحلوا، وبقيت أنا، مصر الخالدة خلود التاريخ.

لقد احتوت الصفحات السابقة على عرض لقصّتى مع أحد الحكام الأجانب الذين خرجوا بى من دائرة المحلّية إلى العالمية، وأعنى به محمد على (١٨٠٥- ١٨٤٨م)، أما أحداث الثورة العرابية بقيادة ابنى أحمد عرابى، وكارثة الاحتلال البريطانى لأرضى ولشعبى البطل، فذلك أمر أخصص له الصفحات التالية.

- ٩ -

إنّ قصّة الاحتلال البريطانى البغيضة لأرضى الطاهرة هى قصّة مريرة تبعث فى نفسى ألمًا وحسرةً ولوعةً لم أعرفها من قبل!. إنها امتداد للحروب الصليبية من العصور الوسطى إلى العصر الحديث. وهى تكشف أننى أُمّ العالم نُصبت حولى شباك المؤامرات من كل حدب، وصَوب لإيقاعى فى قبضة المحتلّ من عام ١٨٨٢ حتى عام ١٩٥٤م، ففى ذلك العام الأخير تنفست الصعداء لأول مرة، ويا لك من رائع يا هواء الحريّة! وما أروعك يا نسائم الكرامة التى تشتاق إليها نفسى اشتياقى للحياة ذاتها!.

الخديوى إسماعيل

لقد تم تكبيلى بالديون، وفى عصر الخديو إسماعيل أُنفق أموالاً طائلة فى صورة رشوات للباب العالى؛ من أجل الحصول على فرمانات عثمانية تدعم استقلالى. وكان الإنفاق بسخاء مبالغ فيه، لا يتفق مع إمكاناتى فى ظروف افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩م، والتى ربطت بين الشرق والغرب لأول مرة فى التاريخ. ولا أغفل كذلك الحروب الخاسرة التى خاض غمارها فى أفريقيا، ثم الإنفاق المبالغ فيه على

المشروعات العديدة التى أقامها لتكون مصر جزءًا من أوربا.

وهكذا وجدت القوى الأوربية الطامعة فرصة سانحة للتدخّل فى شئونى من خلال قضية الديون، وأخذت ترسل اللجان وراء اللجان من أجل جدولتها على نحو أدّى فى نهاية المطاف إلى وقوعى كالطائر الذبيح فى قبضة صيّاديه قساة القلوب المتحجّرة.

ومن الأمور الجديرة بالاهتمام، الإشارة إلى ما عُرف بصندوق الدَّيْن عام ١٨٧٦م، الذى اعتبر أول هيئة رسمية أوربية؛ من أجل فرض التدخّل الأجنبى فى شئونى الداخلية، وفيما بعد فى ١٨ يونيو ١٨٧٦م تم إقامة نظام المراقبة الثنائية، وهو عبارة عن وجود موظف إنجليزى لمراقبة الإيرادات، وآخر فرنسى لمراقبة المصروفات، وكل ذلك كان على حساب حرّيتى وكرامتى الوطنية، بل وصل الهوان إلى حد ما عرف بالوزارة المختلطة، والتى بمقتضاها دخل الوزارة وزيران أحدهما إنجليزى والآخر فرنسى، وهى الوزارة التى عرفت بالوزارة الأوربية التى رأسها رجل كريه معروف بميوله لأوربا هو نوبار باشا.

وفى عهد الخديو توفيق (١٨٧٩– ١٨٩١م)، وقعت أحداث الثورة العرابية، وكم كان فى تاريخى الحافل المديد العديد من الثورات، إنها مخاض جديد من أجل الحريّة، إنها تطهير لروحى الوثّابة من أجل بعث جديد أنطلق فيه بصورة غير مسبوقة، وتلك شهادة حقّة لكافة الثورات الشعبية التى ظهرت على أرضى الخالدة.

الخديوى توفيق

يلاحظ أن من أهم أسباب الثورة العرابية حكم توفيق المطلق، وتزايد التدخّل الأجنبى فى شئونى الداخلية. وخلال ذلك العهد تم تعطيل مجلس شورى النواب القديم، ومصادرة الصحافة، واضطهاد العناصر الوطنية التى كانت تتحرّق شوقًا من أجل إعلاء كلمة الكرامة والحريّة فى وجه الحكم الاستبدادى المطلق، والتدخّل الأوربى السافر فى شئونى الداخلية.

ومن ناحية أخرى، زاد التذمّر فى صفوف رجال الجيش من العناصر الوطنية التى لاحظت كيف أن الضباط الأتراك والشراكسة لهم النفوذ الأوفر، كما أن الجيش ذاته تمّ إهماله وتأخّرت مرتّبات أفراده، وفى عهد وزير الحربية عثمان رفقى لم تتم ترقية أغلب الضباط المصريين الذين تخرّجوا من المدارس الحربية. وقد تزعّم حركة المعارضة أحد أبنائى وهو أحمد عرابى، ويلاحظ أنّ نقل الأميرالاى عبد العال حلمى، وتعيين أحد الشراكسة بدلاً منه أثار حفيظة الضباط الذين قدّموا طلباتهم بعزل وزير الحربية عثمان رفقى عن منصبه، وتعيين مصرى ليحلّ محلّه، والمطالبة بإصلاح نظام الترقية فى الجيش، ولقد اعتبر الخديو توفيق ذلك الأمر بمثابة تمرّد، فتمّ إلقاء القبض على أحمد عرابى وعبد العال حلمى وعلى فهمى، وتمّت محاكمتهم، إلا أن بعض فرق الجيش أطلقت سراحهم، واتجهوا إلى مقابلة الخديو المستبد فى قصر عابدين، وطالبوه بعزل وزير الحربية القائم، وتعيين محمود سامى البارودى – الذى عرف بربّ السيف والقلم– والمعروف بميوله الوطنية بدلاً عنه، وذلك فى فبراير من عام ١٨٨١م.

تطوّرت الأحداث فيما بعد على نحو سئ، إلى أن كان يوم ٩ سبتمبر ١٨٨١م، وفيه قدّم أحمد عرابى مطالبه للخديو فى صورة عزل وزارة رياض باشا التى وصفت بالدكتاتورية، والعمل على تشكيل مجلس للنواب، وزيادة عدد أفراد الجيش إلى ١٨,٠٠٠ جندى، وتم الاتفاق على تعيين شريف باشا رئيسًا للوزراء. وفيما بعد، عندما أدركت انجلترا وفرنسا تزايد قوّة أحمد عرابى ومؤيّديه، طالبت باستقالة وزارة البارودى الذى كان قد ألّف الوزارة، وأُبعد أحمد عرابى عن مصر، وأمام موافقة الخديو، قدّم البارودى استقالته احتجاجًا، وتذكّر له تاريخى ذلك الموقف الوطنى.

لقد وقعت أحداث مذبحة الإسكندرية فى ١١ يونيو على ١٨٨٢م، وبدأت بشجار بين مصرى ورجل من مالطه، وطعن الأخير المصرى طعنة قاتلة، وتطوّر الأمر إلى حدوث مذبحة راح ضحيّتها العديد من المواطنين والأجانب. وهناك من يقرّر أن تلك الأحداث

كانت مدبّرة من الخديو والإنجليز من أجل بعث الفوضى والاضطراب فى البلاد على نحو يؤدى فيما بعد إلى التدخّل الأجنبى واحتلال أراضى إلى ما لا نهاية.

وفى ١١ يونيو عام ١٨٨٢م، قامت ١٤ سفينة إنجليزية غادرة بضرب حصون الإسكندرية، عروس البحر المتوسط، وهدمتها، ونزلت القوات الإنجليزية الغازية المتآمرة إلى أراضى الثغر، وحدثت أحداث معركة التلّ الكبير فى ١٤ سبتمبر عام ١٨٨٢م، والتى هُزم فيها عرابى وقوّاته، وزحفت القوات الغازية، واحتلّت قاهرتى فى ١٤ عام سبتمبر ١٨٨٢م. وتم القبض على العرابيين، وتم نفيهم إلى جزيرة سيلان، حيث ظل أحمد عرابى هناك مدة ١٩ عامًا يتجرّع أقداح المرارة والحسرة والألم لابتعاده عن أرضى الخالدة إلى أن عاد ومات فى عام ١٩١١م، لينعم بالدفن فى ترابى المقدّس بعد غربة غريبة وألم يمزّق النفس.

إن أسباب فشل الثورة العرابية متعدّدة، منها خيانة دليسبس الذى عمل كرئيس لشركة قناة السويس، والذى أوضح لعرابى حياد القناة، ثم خدعه بعد ذلك، كذلك هناك عداء القوى الأوربية للثورة، بالإضافة إلى دور السلطان العثمانى الذى اتهم أحمد عرابى بالخيانة على نحو أضعف مركزه السياسى والعسكرى، ولا أنكر وجود عدد من الخونة الذين انتسبوا إلى اسمًا، وفى الحقيقة كانوا يطعنوننى، ويقدّمون أنفسهم لقمة سائغة فى فم الاحتلال وَقوّته الغاشمة، التى لم تكن تتناسب أصلاً مع قوة العرابيين المتواضعة، وبالتالى تم احتلالى من الإنجليز الأوغاد، ويا له من تاريخ أسود!.

أحمد عرابى

أيها المصريون لا تكونوا قساة على أحمد عرابى، حقيقة إرتكب عدة أخطاء قاتلة، غير أن الأعداء كانوا يتقاطرون عليه من كلّ حدب وصوب، و لم يكن يستطيع لهم دفعًا!!!.

لقد كان الاحتلال البريطاني لأرضى نكبة ما بعدها نكبة، واستغلالاً لمواردى الزراعية والصناعية، ونهبًا منظّمًا لثرواتي. وعلى المستوى السياسى، وجد المندوب السامى البريطانى، وكان اللورد كرومر أوّل من شغل تلك الوظيفة خلال المرحلة من ١٨٨٣ إلى ١٩٠٧م، ومن بعده نورست من ١٩٠٧ إلى ١٩١١م، وعملت دولة الاحتلال على اتباع سياسة فرّق تسُد بين المصريين لإخضاعهم وتمزيق صفوفهم.

أما على صعيد التعليم، فقد عمل الاحتلال البريطانى على جعله من خلال مصروفات باهظة لا يقدر عليها إلا قلّة قليلة من أبنائى؛ دعمًا لسياسة التجهيل، وهناك من يقرّر أن اللغة الإنجليزية كانت اللغة الأساسية فى الدراسة، كما أن الأمّية تفشّت فى صفوف أبنائى بصورة بشعة. أدرك الاحتلال أن التعليم من شأنه إيقاظ الهمم، ومن ثَمَّ طرده فى النهاية، لذلك؛ سعت إلى أن يكون محدودا ومتخلفًا.

وقد ظهر من قادة العمل الوطنى اسمان بارزان هما مصطفى كامل، ومحمد فريد. أما الأول، فقد عشق وطنه، وتخرّج فى مدرسة الحقوق عام ١٨٩٤م، وعمل على كسب ودّ الخديوى عبّاس حلمى الثانى منعًا للصدام بينه وبين الوطنيين المصريين.

كذلك عمل على كسب ودّ فرنسا من أجل دعم الحركة الوطنية، وعمل على الاستفادة من وسائل الإعلام الأوربية؛ من أجل توضيح حقّى فى الاستقلال، وإنهاء الاحتلال البريطانى البغيض. وقد اتّجه إلى إيقاظ الوعى الوطنى، فأصدر جريدة اللواء عام ١٩٠٠م؛ من أجل المطالبة بالجلاء والدستور، كذلك أصدر جريدة أخرى هى جريدة العالم الإسلامى بعد ذلك بخمس سنوات، أى عام ١٩٠٥م.

أما الحادثة المحورية فى حياة ذلك الزعيم الوطنى الذى عشقنى حتى النخاع، فقد تمثلت فى حادثة دنشواى التى جرت فى ١٣ يونيو ١٩٠٦م، إذ حدث فى قرية دنشواى التابعة لمركز الشهداء بمحافظة المنوفية، أن قام خمسة من جنود الاحتلال بصيد الحمام، فأصاب أحدهم فلاّحة مصرية، وأشعل النار فى أحد أجران القمح، وقد تصدّى لهم

الأهالى، وأصيب أحد الجبناء الإنجليز بضربة شمس، وكان العقاب البريطانى الغاشم أن أجريت محاكمة ظالمة كاذبة فى يوم ٢٧ يونيو ١٩٠٦م، من خلالها صدرت أحكام بإعدام عدد من فلاّحى أرضى الطيبة، وها هى أسماؤهم؛ كى يتذكّر كلّ مصرى غيور على تاريخى كيف أن قافلة الشهداء لم ولن تتوقّف:

١- حسن على محفوظ

٢- يوسف حسن سالم

٣- السيد عيسى سالم

٤- محمد درويش زهران

هؤلاء هم أبنائى الذين تم إعدامهم، وكان ذلك بمثابة وصمة عار أبديّة فى وجه دولة الاحتلال البغيض إنجلترا، التى يتشدّق أبناؤها بالعدالة والديمقراطية، ولن أنسى أبدًا أولئك الشهداء البسطاء الذين رووا بدمائهم أرضى الطاهرة، كذلك تم معاقبة اثنى عشر فلاحًا بالأشغال الشاقة المؤبّدة، وجلد خمسة آخرين، وتم تنفيذ تلك الأحكام أمام الأهالى لإرهابهم، ولكن دون جدوى.

لقد سقطت إنجلترا فى الوحل بعد تلك الحادثة، وصارت دنشواى من الآن فصاعدًا رمزًا لمقاومة الاحتلال، وباستطاعة كل مصرى أن يزور تلك البقعة الغالية، ويرى متحف دنشواى. لقد صارت تلك القرية نقطة تحوّل فى إثارة الشعور الوطنى الجارف.

وأمام هول تلك الكارثة، لم يتوقّف ابنى العاشق المتيّم بى، مصطفى كامل، عن الدفاع عن الفلاحين البسطاء، وعن قضية استقلالى المقدّسة؛ وشهّر بدولة الاحتلال إنجلترا، مما اضطر الحكومة البريطانية إلى سحب مندوبها القزم من أرضى، المدعو كرومر فى عام ١٩٠٧م، بعد أن لعنته أرضى من أقصاها إلى أقصاها، وقد تم تعيين مندوب سامى آخر يدعى نورسن بدلاً منه، وكان أقلّ منه فى سياسة البطش غير أنهم جميعًا من سلالة عنصرية استعمارية واحدة، والاختلاف فقط فى شكل الأقنعة، غير أن الروح السوداء واحدة لا

تتغيّر بتغيّر الأشخاص.

لقد سعى ابنى مصطفى كامل، فارس الوطنية، إلى دعم الحركة الوطنية خاصة بعد حادثة دنشواى فأنشأ "نادى المدارس العليا"، كما أسّس "الحزب الوطنى" عام ١٩٠٧م، الذى كان حزبًا مدافعًا عن مصر، ويرفض التفاوض مع الإنجليز. وقدّم لبلاده ثلة من كبار الوطنيين الذين ترهبنوا فى دير محبّتى وعشقى حتى النخاع، وهكذا يكون الأبطال عشّاق الوطن المفدّى!!!.

مصطفى كامل

غير أن المنيّة كانت تحلّق بأجنحتها السوداء الكئيبة، وافترست زهرة الكفاح الوطنى ابنى مصطفى كامل، وهو فى ريعان الشباب، وذلك فى يوم ١٠ فبراير ١٩٠٨م، فبكيت، وبكى معى كلّ المصريين الذين عشقوا الكفاح ضد الاحتلال. وفى هذا الصدد رثاه أحمد شوقى أمير الشعراء قائلاً:

المَشْـرِقَـانِ عَلَيْـكَ يَنْتَحِبَـانِ

قَاصِيْـهِمَـا فِى مَأْتَـمٍ والـدَّانِ

أما حافظ إبراهيم شاعر النيل فقال فى رثائه:

أيَا قَـبْرُ هَذَا الضَّـيْـفُ آمَـالُ أُمَّـةٍ

فَهلِّـلْ وَكبِّـرْ والْـقَ ضَيْفَـكَ جَاثِيـا

عَزِيزٌعَلَيْنَـا أنْ نَرَى فِيْـكَ مُصْطَـفَى

شَهِيـد العُـلا فِى زَهْـرَةِ العُمْـرِ زَاوِيَـا

وما زال وسيظلّ اسم ذلك الشاب الوطنى الذى سخّر عقله وروحه من أجلى فى ذاكرتى، لا ولن أنساه، وما زلت أتذكّر مقولته الخالدة: "لو لم أكن مصريًا لوددت أن أكون مصريًا"، كذلك قوله: "إن من يفرّط فى حقوق بلاده ولو مرّة، يبق أبد الدهر مزعزع العقيدة سقيم الوجدان".

غير أن رحمى الذى ما عقم يومًا ظلّ قادرًا على الإنجاب العبقرى، ويا للعجب!!! أبطال وراء أبطال، وشهداء وراء شهداء، ويهرم الزمان، وأنا ما زلت شابة لم يتطرّق الهِرَمْ أبدًا إلى قلبى أو روحى، أو عقلى. فها هو محمد فريد يتسلّم الراية، إنه راهب الوطنية المصريّة كما أطلقِ عليه المؤرخ عبد الرحمن الرافعى، وقد زامل مصطفى كامل وتشبّع بعشقى حتى الثمالة، وقاد الحزب الوطنى وضمّ إليه النقابات العمّالية، وساهم فى تثقيف أبنائى، وعمل على إقامة نقابة الصناعات اليدويّة عام ١٩٠٩م، وقدّم روحه لى دون مقابل !!!

كتب محمد فريد مقدّمة لديوان الشيخ على الغاياتى "وطنيّتى"، فتقرّرت محاكمته بسبب ما ورد فيه من عبارات حماسية، وتمّ سجنه عدة شهور، كما اعتقل مرة أخرى عام ١٩١٢م، وأخذ يناضل فى المحافل الدولية إلى أن أصيب بالأمراض، ومات عام ١٩١٩م.

أيها المصريّون، انتبهوا!!!، ها هم أبنائى فلذات أكبادى يلاقون العسف والضيم والاضطهاد، فيُعتقلون ويُسجنون ويُقتلون ويُنفون، وما لانت لهم قناة أبدًا، بل كان المجد دومًا قائدهم، والاستقلال الوطنى نبراسهم، عاشوا فقراء، ومرضى، وكان الغِنى بالنسبة لهم عشقى حتى الثمالة!،

محمد فريد

وكانت السعادة لديهم هى حرّيتى واستقلالى؛ إنهم - وبحقّ- أبناء مدرسة واحدة هى مدرسة الوطنية المصريّة أو "الصوفية الوطنية" كما أحبّ دائمًا أن أسمّيها. كلٌّ يسلّم الراية لمن يأتى بعده، المهمّ أن تظلّ تلك الراية مرفوعة خفّاقة ترفرف بنسائم الحرّية، ولا تسقط حتى آخر الزمان.

ولن يستطيع الاحتلال الدنىء الغاشم بكل أسلحته وبطشه وجبروته، إبعادى وإبعاد أبنائى عن المطالبة بالحرّية والاستقلال. لقد كانت الوطنية سعيرًا يجرى فى العروق لا بديل عنه، وبفضل الحقّ تبارك وتعالى، وبفضل أبنائى المخلصين، نلت حرّيتى المقدسّة فى آخر المطاف.



هناك مرحلة من المراحل الخطيرة في تاريخى الحديث تتمثل فى أحداث ثورة عام ١٩١٩م ضد الاحتلال البريطانى لأرضى الطاهرة. لذا، أودّ أن أعرض وقائعها؛ كى يعرف كل مصرى أهمّية تلك الثورة على نحو خاص فى مسيرة الإحياء الوطنى فى وجه قوة الاحتلال الباطشة.

لقد وقعت أحداث الحرب العالمية الأولى خلال المرحلة من عامى ١٩١٤- ١٩١٨م، وعندما دخلت الدولة العثمانية الحرب ضد انجلترا؛ اغتنمت الأخيرة الفرصة، وقامت بإعلان الحماية البريطانية على أرضى، وأنهت السيادة العثمانية، كما اتجهت إلى فرض الأحكام العرفية. وفى نفس الحين، أعلن الرئيس الأمريكى ولسون مبدأ حقّ تقرير المصير الذى فتح نوافذ الأمل الأخضر، وبوّابات السعادة أمام شعبى الأصيل؛ كى يتخلّص من الاحتلال البغيض الجاثم على صدره منذ أعوام، كانت أشبه بالقرون من فرط طولها وما حوته من معاناة شديدة.

ففى يوم ١٣ نوفمبر عام ١٩١٨م، تقابل وفد من بعض القيادات المصرية هم: سعد زغلول وعبد العزيز فهمى وعلى شعراوى مع المندوب السامى البريطانى، وذلك للموافقة على سفر الوفد إلى إنجلترا ليتفاوض مع حكومتها بشأن استقلالى وعودة سيادتى السياسية. غير أن ذلك المندوب أخبرهم بأنهم لا يملكون حق التحدّث نيابة عن شعبى البطل. وبالتالى،

ظهرت حركة عارمة لجمع التوقيعات من عشرات الآلاف من المواطنين؛ دعمًا لذلك الوفد الذى اختارته البلاد لمواجهة الإنجليز من خلال التفاوض.

لقد قامت دولة العدوان، إنجلترا، باعتقال ابنى سعد زغلول ورفاقه بعد أن لاحظت مدى التفاف الجماهير المشتعلة بنيران عشقى حوله، وتقرّر نفيهم إلى جزيرة مالطه فى ٨ مارس ١٩١٩م، والواقع أن ذلك الحادث كان بمثابة الشرارة التى أشعلت نيران الثورة الشعبية فى العام المذكور، والتى احتلّت مكانة بارزة فى تاريخى الحديث.

سعد زغلول

والواقع أيها القارئ أن شعبى الذى عاش على أرضى منذ آلاف السنين امتلك صفتين محوريتين ارتبط بهما تاريخه أجمعه، هما: الصبر والثورة. فالمصرى منذ عهد موغل فى القدم امتاز بصفة الصبر على كلّ ما يعكّر صفو حياته سواء من الحكام المستبدين أو من الغزاة الطامعين. وبالتالى لديه القدرة الفذة على مواجهة التحديات مهما تعاظمت بروح صابرة على كل ما يقابلونه من مشقّة. ومع ذلك، فعندما تفيض به التحديّات يملك القدرة على الثورة العارمة التى تقتلع كل شيء أمامها، إلى أن تتحقق له أهدافه الكبرى التى تاقت روحه إليها. ويلاحظ هنا أن علماء الحملة الفرنسية درَسوا شخصية المصرى الذى عاش على أرضى، وأدركوا أنه فى ثورته يكون كالإعصار المدمّر الذى لا يتوقّف إلا إذا حقق ما تشتهيه نفسه، خاصة إذا ما تعرّضت أنا أمّه الكبرى "مصر" لأى مكروه، عندئذ يتحوّل إلى أن يكون فداءً لى دون ما أدنى تردّد!!!.

وهكذا اندلعت أحداث الثورة على أيدى الطلبة والمثقفين، وتم تعطيل المواصلات، وقطع خطوط السكك الحديدية والبرق والهاتف، وتمّ الفتك بالجنود الإنجليز فى العديد

من المناطق. كذلك نلاحظ اتجاهًا لاستقلال بعض المدن عن العاصمة كما حدث فى جمهورية زفتى بمحافظة الغربية.

من ناحية أخرى، تعاون عنصرا الأمة معًا، المسلمون والأقباط فى صورة رائعة، وكان رجال الدين لكل طرف يذهبون إلى أماكن عبادة الطرف الآخر للوعظ. فذهب الأئمة إلى الكنائس، وذهب القساوسة إلى المساجد، وظهر فى ذلك كلّه القس سرجيوس، الذى كان خطيبًا وطنيًا مفوّهًا، واتجه إلى مهاجمة الإنجليز الجبناء على منابر المساجد، فأثبت كم كان عاشقًا لأرضى الخالدة!!!، وقد أظهر شجاعة نادرة و لم يخش أبدًا رصاص الإنجليز، وهكذا يكون أبنائى!!!

ولا أغفل أن المرأة المصرية كان لها دور فى تلك الأحداث؛ إذ خرجت المظاهرات النسائية تندّد بالاحتلال الغاشم، وسقطت شهيدات روين بدمائهن أرضى المباركة.

وكانت أعنف أحداث الثورة فى صعيد مصر الأبىّ دائمًا المعتزّ بكرامته مهما دفع الثمن غاليًا من الشهداء. ففى المنيا، وخاصة دير مواس، تم الفتك بالإنجليز، كما الأمر فى أسيوط، إذ تمّ قتل جنود الأعداء وطيف بجثثهم على عربات "الكارو"، بل إن الإنجليز قامت بضرب مدينة أسيوط، عاصمة الصعيد، بالطائرات دون أن تخمد فيها أحداث الثورة العارمة!!!

لقد أثبتت وقائع ثورة عام ١٩١٩م أننى لم ولا ولن أموت، وأن أبنائى لديهم القدرة الفذّة على فرض كلمتهم على الإمبراطورية البريطانية التى كانت تفتخر يومًا بأنها لم تكن لتغيب عنها الشمس. وها هى الثورة تندلع لتجبرها على تقديم التنازلات. وبالفعل، كما قال ابن تونس الخضراء الشاعر الفذّ أبو القاسم الشابى:

إِذَا الشَّعْبُ يَوْمًا أَرَادَ الحَيَاةَ

فَلا بُدّ أَنْ يَسْتَجِيبَ القَدَر

وَلاَ بُدّ لِلّيْلِ أَنْ يَنْجَلِى

وَلَا بُدّ لِلقَيْدِ أَنْ يَنْكَسِر

ولكن ماذا فعلت الإمبراطورية البريطانية أمام ثورة شعبى المجاهد؟ لقد أحرقت القرى وقصفت المدن بالطائرات، وذلك فى الوجهين البحرى والقبلى، وخاصة الأخير. وأمام طغيانها الغاشم، ظهرت جمعيّات تقاوم مقاومة سرّية، وتفتك بالمحتلّين، ومن أمثلتها: جمعية اليد السوداء، وجمعية المصرى الحرّ، وجمعية الانتقام، وقد سقط من جراء دورها الوطنى العديد من الإنجليز.

وأمام كل ذلك، قررت دولة الاحتلال الغاشم إنجلترا الإفراج عن سعد زغلول ورفاقه، والسماح لهم بالذهاب إلى باريس لعرض قضيّتى العادلة على مؤتمر الصلح. وفى الحين نفسه تم الحصول على اعتراف دولى بحقّ إنجلترا فى فرض الحماية على شعبى!! ويا للعجب، اللص يفرض الحماية على الضحيّة !!! كذلك تقرّر إرسال لجنة برئاسة الإنجليزى ملنر لإقناع أبنائى بقبول الحماية، وهو أمر كان من أوهام السياسة الإنجليزية الخرقاء، إذ كان شعبى يتحرّق شوقًا للحرّية والاستقلال بأى ثمن ودون تردّد.

وفى الوقت الذى كان فيه سعد زغلول يواصل نضاله، أعطى تعليماته لأحد رفاقه فى صورة عبد الرحمن فهمى؛ من أجل العمل السرّى ضدّ الاحتلال، وهو عمل حقّق عددًا من النجاحات كان لها أثرها فى دعم الحركة الوطنية المصرية.

وبعد ذلك وقعت عدة مفاوضات فى صورة مفاوضات سعد- ملنر عام ١٩٢٠م، ومفاوضات عدلى- ملنر فى العام نفسه، ثم مفاوضات عدلى- كيرزون بين عامى ١٩٢١- ١٩٢٢م، وجميعها باء بالفشل الذريع، بسبب البَوْن الشاسع بين تطلّعات المصريين الوطنية المشروعة، وغطرسة دولة الاحتلال المعتدية إنجلترا. وأخيرًا، أصدرت إنجلترا ما يعرف بتصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢م، وفيه أنهت الحماية التى فرضت على ظلمًا وعدوانًا، واعترفت بى دولة مستقلّة ذات سيادة. ورغم ذلك احتفظت بتحفّظات تقضى على فكرة الاستقلال، وتجعله أبعد ما يكون عن الواقع فى صورة البنود التالية:

١- حقّ دولة الاحتلال البغيض فى تأمين مواصلاتها على أرضى.

٢- حقها فى الدفاع عنى، وذلك من أجل منع قيام جيش وطنى مصرى قوى يقوم بتلك المهمّة.

٣- حقّ دولة الاحتلال فى حماية المصالح الأجنبية، وكذلك حماية الأقلّيات، وكان ذلك من أجل تبرير التدخّل فى شئونى الداخلية.

٤- حق دولة العدوان فى التدخّل فى أمور السودان شقيقى الجنوبى.

وهكذا، تكشّف بجلاء مكر ودهاء الإنجليز الذين يقدّمون بعض الحقوق لى باليد اليمنى، ثم يسحبون ما يقدّمونه باليد اليسرى، ويسوّفون ويقدّمون الوعود تلو الوعود، وجميعها كاذبة، وهى لن تتحقق كاملة بل منقوصة، وفى كلّ الحالات، يتبعون سياسة فرّق تسُد؛ من أجل إطالة أمد الاحتلال إلى أبعد الحدود، وحتى يعيقوا حقى المشروع فى الحرّية والاستقلال. وبذلك يتأكد للجميع أن نزاهة الغرب مشكوك فيها، فلهم الحرية والاستقلال، ولى ولشقيقاتى الذلّ والهوان والتبعية.

ثم توفّى سعد زغلول فى يوم ٢٣ أغسطس من عام ١٩٢٧م، وخلفه مصطفى النحّاس فى رئاسة حزب الوفد. والواقع أن سعدًا كان بالفعل أمل غالبية الجماهير، التى رأت فيه المخلّص من الاحتلال، ولذلك التُفِتَ من حوله بصورة غير مسبوقة.

أما المرحلة التالية من تاريخ صراعى مع الاحتلال تتمثّل فيما يعرف بمعاهدة ١٩٣٦م، وكان أهم ما ورد فيها:

١- انتهاء احتلال أرضى عسكريًا.

٢- أن أنضمّ إلى عصبة الأمم المتحدة على اعتبار أننى دولة مستقلّة ذات سيادة.

٣- إلغاء الامتيازات الأجنبية، وهى البوابة التى دخل منها الاحتلال إلى أرضى المقدّسة.

٤- دعم جيشى حتى يتمكن من الدفاع عن قناة السويس، فإذا بلغ تلك القوة، تجلو

القوات البريطانية عن أرضى الطاهرة.

٥- عودة جيشى إلى السودان.

٦- لى الحق فى عقد المعاهدات مع الدول الأجنبية.

٧- سحب كافة الموظفين البريطانيين من الجيش، وخروج الأوربيين من جهاز الشرطة، وتم اعتبارى أنا مصر متحمّلة مسئولية حماية الأجانب على أرضى الطاهرة.

يلاحظ أن تلك المعاهدة حقّقت لى العديد من المطالب إلا أنها لم تكن تفى بكافة طموحات شعبى الأبى، ولذلك كان عليه مواصلة الجهاد؛ من أجل طرد آخر جندى بريطانى لصّ من أرضى المقدّسة.

وقعت أحداث الحرب العالمية الثانية فيما بين عامى ١٩٣٩، ١٩٤٥م، وفيها اضطربت أوضاع شعبى سياسيًا، فى صورة الصراعات بين الأحزاب العديدة القائمة، وجرت مفاوضات بين أبنائى والإنجليز؛ من أجل تعديل معاهدة ١٩٣٦م، فى صورة مفاوضات إسماعيل صدقى- بيفن، وكذلك مفاوضات النقراشى- رونالد كامبل، وجميعها باءت بالخسران المبين، وظلّت إنجلترا المعتدية تجثم على صدرى إلى أن قدّر الله تعالى لى هواء الحريّة.

لقد استمرّت الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية مضطربة إلى أن تهيّأت الأجواء لاشتعال ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م. ولا ريب أن تاريخى الحديث الحافل بالأحداث يفتخر بوجود ثورتين فيه، هما: ثورة عام ١٩١٩م، وثورة عام ١٩٥٢م، والاثنان يمثلان - وبحقّ- جزءًا من الرصيد الوطنى التحرّرى من أجل التخلّص من آخر جندى بريطانى لصّ يعيش على ترابى المقدّس.

وفى الصفحات التالية سأروى للقراء قصّتى مع ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م، ويا لها من ثورة !!! بإنجازاتها وسلبياتها على حدّ السواء.

- ١١ -

تاريخى كلّه مجيد، غير أن مراحل الثورات أجد فيها تألّق شخصيتى التاريخية على نحو جلىّ غير مسبوق. والحديث عن ثورة ١٩٥٢م حديث متعدد الجوانب؛ إذ تعرّضتُ للاغتيال الأدبى مرّات ومرّات، وإهدار ما أنجزته بصورة نادرة التكرار، من أجل القضاء على الإنجازات فى الذاكرة الجماعية الوطنية، وتلك كارثة الكوارث! بل وجد من أبنائى من ينكر عليها كل إنجاز قامت به، وكأن الجحود صار لغة حياة يومية!، ونكران الجميل بمثابة الهواء الذى يتم تنفسّه!، لذلك على أبنائى الانتباه إلى حديثى القادم لعلّهم يجدون فيه النبراس الهادى، والبلسم الشافى بإذن الحقّ تبارك وتعالى.

لا يمكن أن أكتب تاريخى المتعلّق بثورة ١٩٥٢م دون التعرّض لما واجهنى من أحداث خلال مرحلة الأربعينيات من القرن العشرين. فمن المآسى ما حدث فى ٤ فبراير ١٩٤٢م، عندما حاصرت الدبابات البريطانية قصر عابدين، وأرغمت الملك فاروق ابن الملك فؤاد على تعيين حكومة دستورية برئاسة مصطفى النحّاس، وقد مثّل ذلك إهانة بالغة لرمز مصر على الرغم مما عرف عنه من سلوك شخصى فاسد لا ينكر. لقد أوغر حادث فبراير ١٩٤٢م، صدور المواطنين المصريين، وأرادوا الثأر لأمهّم مصر من دولة الاحتلال الغاشم.

ولقد تولّى الحكم على مدى المرحلة من ١٩٤٥ إلى ١٩٥٠م، عدة حكومات لم تجلب للبلاد الاستقرار، فى صورة حكومة أحمد ماهر ١٩٤٤- ١٩٤٥م، وحكومة محمود فهمى النقراشى ١٩٤٥- ١٩٤٦م، وحكومة إسماعيل صدقى ١٩٤٦م، وحكومة

محمود فهمى النقراشى الثانية ١٩٤٦- ١٩٤٨م، وحكومة إبراهيم عبد الهادى ١٩٤٨- ١٩٤٩م، وحكومة حسين سرى ١٩٤٩- ١٩٥٠م، وبصفة عامة، جاء اغتيال كل من أحمد ماهر والنقراشى كمؤشرات للانفلات الأمنى الذى عاشت فيه البلاد خلال تلك المرحلة القلقة من تاريخها.

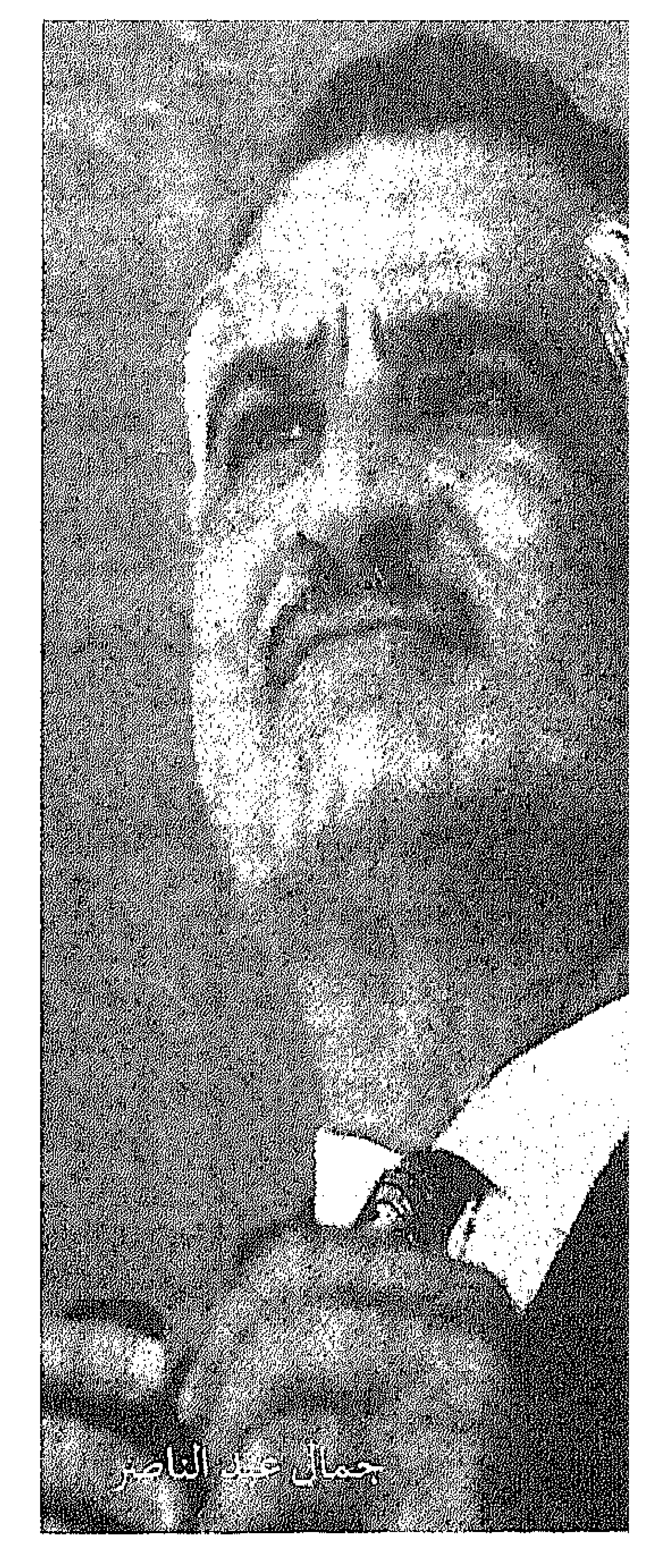
ومن الأحداث المحورية حينذاك، حدوث حرب سرقة فلسطين، وأعنى بها حرب عام ١٩٤٨م، التى دخلتها مع شقيقاتى العربيات دون استعداد، وجاءت الهزيمة لعدة أسباب منها ضعف الاستعداد والتسليح للجيوش العربية، وخداع اليهود والدعم الأوربى لهم.

لقد كان لهزيمة ١٩٤٨م، أكبر الأثر فى حدوث تمرّد بالغ فى صفوف أبنائى من أفراد الجيش الذين حاربوا الصهاينة ببسالة نادرة، ونذكر فى هذا الصدد حادثة الفالوجة، حيث حوصرت القوات المصرية هناك على أرض فلسطين، وقاومت قصفا جوّيًا، وحصارًا يهوديًا قاسياً، إلى أن انسحبت بشجاعة وبطولة. ولعل أهم شخصية وجدت فى أحداث الفالوجة: جمال عبد الناصر، الذى قاد مصر بعد ذلك إلى حقبة تاريخية حافلة بالأحداث، ويُعدّ كذلك المخطّط الفعلى لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م، من خلال تنظيم الضبّاط الأحرار.

وقد حدث فى ١٥ أكتوبر ١٩٥١م أعلن مصطفى النحاس، إلغاء معاهدة ١٩٣٦م، وتزايدت عمليات الفدائيين من أبنائى البواسل ضد القوات البريطانية فى منطقة القناة، كما حدث فى ٢٥ يناير ١٩٥٢م أن فتك الإنجليز بقوات الشرطة المصرية فى الإسماعيلية على نحو أجّج مشاعر العداء الشديد ضد قوات الاحتلال.

وجاء حادث حريق القاهرة يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢م، ليقدّم دليلاً آخر على حجم السخط والغضب الشعبيين على بقاء الاحتلال البريطانى، وفساد الملك فاروق الذى كان يلهو بمصيرى ومصير شعبى المكافح البطل.

ويلاحظ أنه خلال مرحلة وجيزة تولّى الوزارة عدة رؤساء فى صورة أحمد ماهر فى مارس ١٩٥٢م، ثم وزارة الهلالى، ومن بعدها حسين سرى، والأخيرة لم تستمر سوى ١٨ يومًا فقط فى الحكم، مما عكس عدم الاستقرار بصورة واضحة، ومن بعدها عاد الهلالى إلى تشكيل الحكومة فى ٢٢ يوليو ١٩٥٢م، وفى فجر اليوم التالى، ٢٣ يوليو، اندلعت شرارة الثورة المباركة لتمثل نقطة تحوّل جذرى فى تاريخى فى العصر الحديث. ولا ريب أن من دوافع إندلاع الثورة وجود الاحتلال البريطانى، وكذلك انتشار الفساد والرشوة وفساد الملك فاروق على نحو خاص، وكذلك وجود النظام الإقطاعى الذى جعل ثروات البلاد الزراعية متركّزة فى أيدى حفنة قليلة، والغالبية الساحقة فى فقر مدقع، ناهيك عن الفساد السياسى والصراع بين الأحزاب.


جمال عبد الناصر

وبصفة عامة، تمكّن جمال عبد الناصر - لا غيره - من تكوين تنظيم الضباط الأحرار، الذى نجح فى ختام الأمر من القيام بثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م، وفى الساعة السابعة والنصف من صباح اليوم المذكور، أذاع ابنى محمد أنور السادات البيان الأول للثورة، وأورده بنصه نظرًا لأهميته الخاصة من اللواء أركان حرب محمد نجيب القائد العام للقوات المسلحة إلى الشعب المصرى: "اجتازت مصر فترة عصيبة من تاريخها الأخير من الرشوة والفساد وعدم استقرار الحكم، وقد كان لكل هذه العوامل تأثير كبير على الجيش، وتسبّب المرتشون، والمغرضون فى هزيمتنا فى حرب فلسطين. وأما فترة ما بعد الحرب، فقد تضافرت فيها عوامل الفساد، وتآمر الخونة على الجيش، وتولّى أمره إما جاهل أو خائن أو فاسد حتى تصبح مصر لا جيش لها يحميها. وعلى ذلك، فقد قمنا بتطهير أنفسنا، وتولّى أمرنا من داخل الجيش رجال نثق فى قدرتهم وفى خلقهم وفى وطنيتهم، ولا بدّ أن مصر كلّها ستلقى هذا الخبر

بالابتهاج والترحيب. أما من رأينا اعتقالهم من رجال الجيش السابقين، فهؤلاء لن ينالهم ضرر، وسيطلق سراحهم فى الوقت المناسب، وإنى أؤكّد للشعب المصرى أن الجيش اليوم كلّه أصبح يعمل لصالح الوطن فى ظل الدستور، مجردًا من أية غاية. وأنتهز هذه الفرصة فأطلب من الشعب ألا يسمح لأحد من الخونة بأن يلجأ لأعمال التخريب، لأن هذا ليس فى صالحه، وأى عمل من هذا القبيل سيقابل بشدّة، وسيلقى فاعله جزاء الخائن فى الحال، وسيقوم الجيش بواجبه هذا، متعاونا مع البوليس؛ وإنى أطمئن إخواننا الأجانب على مصالحهم وأرواحهم وأموالهم، ويعتبر الجيش نفسه مسئولاً عنهم".

وقد تعاطف الشعب المصرى مع الثورة منذ البداية، على نحو ضمن لها نجاحها، وأعطاها دعمًا شعبيًا لا ينكر، ولم تكن مجرد حركة عسكرية كما توهّم قطاع من الباحثين الغربيين، بل ثورة حقيقية ضدّ الأوضاع الفاسدة فى مصر، وحدّدت أهدافها على النحو التالى:

القضاء على الاستعمار وأعوانه - القضاء على الاحتكار وسيطرة رأس المال على الحكم- القضاء على الإقطاع- إقامة عدالة اجتماعية- إقامة جيش قوى- إقامة حياة ديمقراطية سليمة.

وفى واقع الأمر، قامت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م، وأنقذت مصر من حرب أهلية وشيكة كان من الممكن اندلاعها فى أية لحظة بعد أن وصلت الأوضاع السياسية فى البلاد إلى طريق مسدود: ملكية فاسدة، احتلال أجنبى لأرضى الطاهرة، تصارع حزبى وفجوة اجتماعية واقتصادية هائلة بين قلّة ثريّة وأغلبية تعيش تحت خط الفقر. ناهيك عن أعمال العنف، وأحداث الاغتيالات التى قامت بها جماعة الإخوان المسلمين، التى كان قد أسّسها الشيخ حسن البنّا، بعد أن أفلت الجهاز السرّى من قبضته، وتبرأ من القائمين على عمليّات الاغتيال، ومن بعد ذلك تعرّض هو شخصيًا للقتل.

ولسوف أقدّم لأبنائى جانبى الثورة الاثنين: الجانب الإيجابى، وكذلك السلبى؛ من

أجل توضيح ما لها وما عليها دون ما مبالغة أو إهدار حقوق الذين عشقونى حتى الثمالة، وخرجوا من الدنيا فقراء، وقدّموا أرواحهم هدية لأم الدنيا دون ما تردد ولو للحظة واحدة!!!.

فعلى المستوى السياسى: تم طرد الملك فاروق الأول، وخرج من أرضى الطاهرة فى ٢٦ يوليو ١٩٥٢م، ولاحقًا، تم إلغاء الملكية وإعلان الجمهورية، وذلك يوم ١٨ يونيو ١٩٥٣م.

وهنا، أودّ الوقوف مع أبنائى لأناقش معهم قضية مهمة... إذ عُرف عن المصريين عمومًا الحنين إلى القديم، وهكذا وجد من البسطاء، بل من الذين حققوا قسطًا من التعليم، من يترحّم على أيام الملكية، وكأنها الأيام الخوالى الرائعة، وأيام الزمن الجميل التى يا ليتها عادت مرة أخرى! بعد أن رأى الناس عهدًا معاكسًا لها فى العديد من النواحى، بل امتدّ الأمر إلى الحديث عن الملك فاروق بنغمة التعاطف بصورة أو بأخرى، وأنه تمّ الغدر به من الجميع.

إن ذلك الأمر يعدّ- وبحقّ- خلطًا للأمور بصورة أقرب إلى السذاجة منها إلى التصوّر المنطقى لوقائع التاريخ، فالملك السابق كان من أسوأ مَن حكم مصر فى العصر الحديث، وعلى الرغم من أنه عندما تولّى الحكم كان معقد آمال الجماهير للإصلاح، إلا أن تربيته المنحلّة أفسدته، والحاشية السيئة التى التفّت حوله، زيّنت له كل سيئ وفاسد وفاسق. وبالفعل صار ملكًا للغرائز، والمفاسد بصورة كانت أرضى تئن منها؛ فقد عُرف بإسرافه، واحتسائه الخمر وسهراته الماجنة. وكان يسافر إلى إيطاليا وسويسرا وتلتف العاهرات حوله، بل منهنّ من ألفّ مؤلفات عن ذكرياتهن مع آخر فرعون!، ولا ينسى التاريخ "بوللى" الإيطالى الذى عمل قوادًا له، وتلك حقائق لا خلاف عليها. بل إن الصحف الإيطالية والفرنسية هاجمته بشدّة، وعابت عليه إهدار الأموال الطائلة على ملذّاته وسهراته الماجنة، بينما الشعب المصرى يتضوّر جوعًا!، وقد نشب الفقر أنيابه ومخالبه

السوداء فى جسده الهزيل الذى حطّمه الفقر والجهل والمرض، و لم يستطع أن يجد لدفع أولئك الأعداء مجتمعين سبيلاً.

لقد كان ذلك الملك أسوأ واجهة لى أنا مصر، واتفق الجميع دون استثناء- إلا ما ندر- أن مصر يحكمها ملك فاسد وحاشية فاسدة.

والقول بأن الملك السابق كان من الممكن أن يأتى بأى خير لمصر أكذوبة كبرى، والتعاطف معه أمر واهم، بل وصل الأمر إلى حدّ القول بأن جمال عبد الناصر قام بإرسال من دسّ السمّ لذلك الملك الفاسد، وهو فى منفاه الاختيارى فى إيطاليا، ولعمرى إنه اتهام باطل لا سَنَد له، فلم تكن أخلاق ذلك الزعيم أن يفعل ذلك، خاصة أن فاروقًا كان قد انتهى سياسيًا، ولا يحتاج زعيم مصر إلى التخلص منه بمثل تلك الصورة الخسيسة، بل هناك من أجمع أنه تناول طعامًا بكميات كبيرة أدّت إلى الإجهاز عليه.

أما الترحّم على أيام الملكية فأمر ساذج، كيف ينسى أبنائى إهدار الحقوق للأغلبية؟ كيف ينسى أبنائى الاحتلال البريطانى الغاشم وجنوده الذين عاثوا فسادًا فى كل مكان، ويهدرون كرامتى وعزّتى على مرأى ومسمع من الجميع دون أن يسترد أحد حقّى لعشرات السنين؟!!

وعلى أية حال، يُضاف إلى الإنجاز السابق - أى قيام ثورة يوليو - أن اللواء محمد نجيب صار أول رئيس للجمهورية - وإن تم إقصاؤه فيما بعد- كما تم إلغاء جميع الأحزاب السياسية التى تصارعت معًا، ومنها ما كان تابعًا للقصر الملكى أو الاحتلال البريطانى.

وأيضًا تم توقيع اتفاقية جلاء القوات البريطانية عن أرضى يوم ١٩ أكتوبر ١٩٥٤م، وما زلت أتذكّر يوم ١٣ يونيو ١٩٥٦م.، وهو اليوم الذى رحل فيه آخر جندى بريطانى عن أرضى الطاهرة، وقام ابنى جمال عبد الناصر برفع عَلَمى الخالد على مبنى البحرية فى مدينة بور سعيد الباسلة، فكان ثمن ذلك العَلَمَ غاليًا للغاية من دماء الشهداء الذين رحلوا،

كى يرفرف ويحيا الآخرون سعداء يتنفسّون هواء الحرّية الساحر، فإليهم أرسل باقات الحبّ والمودّة والتذكّر الدائم دون لحظة نسيان واحدة.

ولن أنسى ما حييت تأميم شركة قناة السويس يوم ٢٦ يوليو من عام ١٩٥٦م، حيث صارت ملكًا للدولة بعد أعوام طويلة من الاستغلال الإنجليزى لأقوات أبنائى.

ويلاحظ أن الأحداث التى تلت ذلك تحتاج إلى وقفة قصيرة، فقد أردت بناء السدّ العالى من أجل نهضة شاملة لاقتصادى، زراعيًا وصناعيًا، وتنمية حياة أبنائى من خلال الطاقة الكهربائية، وقد عرضت الولايات المتحدة الأمريكية، وكذلك إنجلترا والبنك الدولى تقديم الأموال اللازمة للمشروع، غير أنها سحبت العرض فيما بعد لخشيتها من ازدياد إنتاج محصول القطن المصرى لينافس المنتج المماثل الأمريكى، بالإضافة إلى أن شائعات سرت تردّد أن الروس يعرضون تمويل بناء السد، وقد أعلن دالاس فى يوليو ١٩٥٦م، سحب العرض الأمريكى، ثم تبعه الإنجليز، ومسئولو البنك الدولى. فقام ابنى البار جمال عبد الناصر بتأميم قناة السويس، فى ضربة سياسية مصرية غير مسبوقة، كانت لطمة قاسية على وجه الأسد البريطانى العجوز الذى تكسّرت أنيابه. وقد ثارت ثائرة إنجلترا وفرنسا، على ذلك القرار الجسور الذى أثبت أننى أنا مصر، من الممكن أن أناطح القوى العظمى، إذا وجد الرجال المخلصين مثل ذلك القائد التاريخى.

وقد كان هناك عدد من المرشدين يبلغ ٢٥٠ مرشدًا، منهم ١٧٩ بريطانيًا وفرنسيًا، وانسحب المرشدون فى ليلة ١٤ سبتمبر ١٩٥٦م، وقد صدرت الأوامر لعدد من المرشدين الباقين بالاستمرار فى العمل، بالإضافة إلى قيام اليونان بتدريب كوادر مصرية من أبنائى كمرشدين فى القناة، وعمل الجميع بكفاءة، وأمكن سدّ الثغرة الناجمة عن انسحابهم.

وبسبب قرار التأميم، قام العدوان الثلاثى على أرضى الطاهرة فى أكتوبر ١٩٥٦م، من جانب إنجلترا وفرنسا والدولة الذيل إسرائيل. وقد قامت الطائرات الإنجليزية بضرب المطارات والسكك الحديدية وأبنائى الآمنين بالقنابل، وذهب ابنى البار جمال عبد

الناصر إلى الجامع الأزهر كى يخطب فى الناس، ويهتف: سنقاتل. وخلال تلك الأحداث العاصفة تم ضرب مدينة بورسعيد الباسلة الواقعة شمالى قناة السويس-تم ضربها بالقنابل- وتم إنزال الجنود المعتدين بالمظلات، وقاوم أهلها البواسل مقاومة سطرها التاريخ بأحرف من نور. ثم توالت الأحداث، وأنذرت روسيا الدول المعتدية إنذارها الشهير بضرورة الانسحاب وإلا ستقع الحرب العالمية الثالثة. وكان ذلك الإنذار فى ٧ نوفمبر ١٩٥٦م. وتم الانسحاب، وخرجت أنا مصر مرفوعة الرأس منتصرة ورايتى خفاقة.

ما أكثر أحداث العدوان على أرضى عبر حقب تاريخى المديد، ولو أن القائمين على أمور السياسة فى إنجلترا وفرنسا ودويلة إسرائيل قرأوا تاريخى جيدًا؛ لأدركوا أننى المقبرة الأبدية لغزاتى قديمًا ووسيطًا وحديثًا.

أواصل حديثى يا أبنائى عن إنجازات ثورة ١٩٥٢م. فعلى المستوى الاقتصادى، قامت الثورة بالعديد من المشروعات الزراعية والصناعية والتجارية بصورة غير مسبوقة. وحتى الذين يعارضونها، هناك منهم من يقرر أنها أقامت قاعدة صناعية لا زلت أنعم بخيراتها: مثل مصانع الغزل والنسيج فى المحلة الكبرى ومصانع الحديد والصلب فى حلوان، وغيرها.

أما إذا اتجهنا صوب الناحية الاجتماعية، فسنجد أن الثورة أصدرت قانون الإصلاح الزراعى فى ٩ سبتمبر ١٩٥٢م، الذى حدّد الملكية الزراعية لأى فرد بما لا يزيد عن ٢٠٠ فدّان، وتم توزيع الأراضى التى تم الاستيلاء عليها على صغار الفلاحين (من ٢- ٥ فدّان)، وفيما بعد، تم تحديد الملكية فى نطاق ٥٠ فدّانًا للفرد. كذلك تم تحديد ساعات العمل، ومنحت المرأة المصرية لأول مرة حق الترشح للانتخابات، وشارك العمال فى مجالس إدارة الشركات والمصانع، وكل ذلك جاء من خلال تحولات جذرية لم أعرفها من قبل، والفضل فى ذلك كلّه لله تبارك وتعالى، وثورتى الكبرى، ثورة ١٩٥٢م الخالدة، التى يحاول البعض اغتيالها أدبيًا، غير أنها لا زالت خضراء فى نفوس أبنائى. أما على المستوى العربى

فمن الملاحظ أن ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م، قامت بدور بارز فى المعاونة على تحرير عدة دول عربية، مثل اليمن والجزائر، من الاستعمارين الإنجليزى والفرنسى، ورفضت سياسة التحالفات المشبوهة؛ كما حدث عندما عارضت بشدة حلف بغداد عام ١٩٥٥م.

أما على المستوى الدولى فقد اتبعت ثورتى سياسة عدم الانحياز، والحياد الإيجابى، وتمكنت من أن تجعل للعرب قوة دولية لها شأنها فى المحافل العالمية، ولا ريب فى أن ذلك كلّه كان عاملاً على زيادة حجم المؤامرات الدولية عليها، خاصة أنها كانت عاملاً أساسيًا وراء قيام العديد من الثورات فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية ضد قوى الاستعمار الأوربى.

ارتبطت الثورة بقائدها البارز جمال عبد الناصر، الذى انتسب إلى عائلة من صعيد مصر، وبالتحديد أسيوط، حيث منطقة بنى مرّ، والتحق بالكلية الحربية، وشارك فى حرب ١٩٤٨م، حيث قاد مقاومة حصار الإسرائيليين للفالوجا بفلسطين، وعقب الهزيمة شكّل تنظيم الضباط الأحرار، الذى من خلاله تم تنفيذ ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م.

أثارت شخصية ذلك القائد جدلاً واسع النطاق بين محبّ مغال فيه، وكاره إلى أبعد الحدود لكافة سياساته. والآن، ما هى مميزاته، أو ما هى الأخطاء التى وقع فيها؟ إننى أمّكم مصر التى ترشد أبناءها إلى الطريق، حتى لا تتكرّر الأخطاء.

يمكن توضيح إيجابيات جمال عبد الناصر من خلال الزاوية التالية:

- اتضح بجلاء أنه كان رجلاً فقيرًا، وأحب الفقراء، ولم يتخلّ عنهم، ولذلك أحبّه الملايين من أبناء شعبى حبًا جارفًا فاق كلّ وصف، وليس أدلّ على ذلك من مشهد جنازته يوم ٢٨ سبتمبر عام ١٩٧٠م، حيث خرج الملايين فيها، وجاء ذلك بمثابة استفتاء شعبى حقيقى دون أية ضغوط، إذ كيف ينافقونه بعد وفاته!!

- أخلص لبلاده إخلاصا مؤكدًا، واعترف بوطنيته القاصى والدانى، وحتى أعداؤه

أقرّوا بأنه من أكبر زعماء التاريخ، وكان له تأثيره البعيد، ليس محليًا فقط بل إقليميًا وعالميًا. وفى استفتاء من جانب هيئة الإذاعة البريطانية اعتبر من أبرز الشخصيّات فى القرن الـ ٢٠.

– كانت شخصيته الكارزمية لها أكبر الأثر فى حركات التحرير الوطنى فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، وجاء تأميمه للقناة عام ١٩٥٦م، ومواجهة شعبه للعدوان الثلاثى من إنجلترا وفرنسا ودويلة إسرائيل، ليجعل مكانته رفيعة الشأن، لقد أذلّ انجلترا دولة الاحتلال البغيضة، وأثبت عمليًا أن الشعوب إذا ما أرادت الحرّية، فلن تقف قوة فى العالم فى وجهها.

– اتّسمت شخصيّته بالتحدّى، وكذلك الميل إلى البساطة بل والفقر، ويلاحظ أنه لم ينسب إليه أية مخالفة مالية، بل مات مديونًا، وعندما أراد تزويج بناته اقترض من أقاربه لعجزه عن القيام بتلك المهمّة بإمكاناته الخاصة، ولا نغفل أنه سكن فى منزل بالإيجار، وبعد وفاته اتصل أفراد عائلته بالدولة من أجل تقديم المنزل لها.

وقد يتساءل أحد أبنائى: عفوًا يا مصر، لقد ذكرتِ لنا عشرات الإيجابيات عن جمال عبد الناصر، فأين سلبياته؟ ألم تكن له سلبيات؟، وردّى هو: نعم، كانت له سلبياته وأخطاؤه وها هى أقدّمها دون تزييف أو مجاملة، لأن تاريخى هو الباقى، والزعماء يرحلون، وأبقى أنا وتاريخى كدليل واضح دال على ما تم إنجازه:

– هناك التشدّد فى التعامل مع المعارضين، وتعذيبهم فى المعتقلات على نحو كان نقطة سوداء لا تحسب لذلك الزعيم.

– المساوئ التى لحقت سياسة التأميم وفرض الحراسات.

– اتخاذ قرارات سياسية خطيرة نتج عنها آثار بالغة السوء، كما فى قراره الخاص بإغلاق مضايق تيران فى وجه الملاحة الدولية، وهو قرار خاطئ عجّل مع أحوال سياسية

وحربية أخرى لا تنكر، بخلق الظروف المواتية لحرب ٥ يونيو ١٩٦٧م، التى ألحقت بى هزيمة مروّعة.

– إعطاء المناصب لأصحاب الثقة، لا الكفاءات، وكان من أمثلة ذلك منصب وزير الحربية الذى تولاه عبد الحكيم عامر، و لم يكن على كفاءة عسكرية حقيقية، وأدار على نحو خاطئ حربى ١٩٥٦م، ١٩٦٧م.

– اندفاع بعض القرارات تجاه قوى معيّنة، كما حدث بالنسبة لتعامله مع حالات معارضة للقضاة وأساتذة الجامعات.

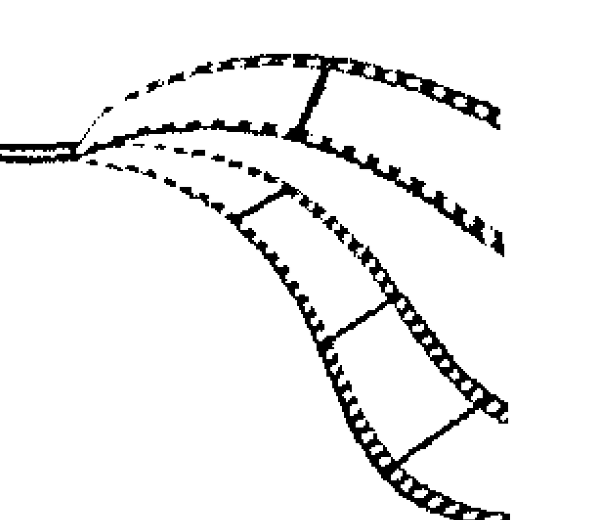
أيها الأبناء، تلك أخطاء أحد أبنائى الذى عشقنى إلى حدّ التوحّد، إنه جمال عبد الناصر أحد رموز الوطنية المصرية الذى قدّم روحه لى، و لم يغنم لشخصه شيئًا. أقولها بصدق دون ما رياء أو نفاق أو مجاملة، فالرجل له ما له وعليه ما عليه مثل كلّ قائد أو حاكم.

ومع ذلك، فإن الجماهير عشقته إلى درجة فاقت كل الحدود، وأيّدته فى العديد من القرارات، واندفعت عاطفيًا وراءه بصورة غير مسبوقة، بفضل شخصيّته الكارزمية، ولذلك أقرر – بكل صدق – أن كافة قراراته – حتى السلبية منها– كانت الجماهير ذاتها فى غالبيتها موافقة عليها، بفعل تأثير شخصيته الكارزميّة. وهكذا، فإن الخطأ خطأ أمّة كاملة، وليس خطأً فرديًا بالمعنى المتعارف عليه للكلمة، وإن كنت لا أعفيه مطلقًا من المسئولية بالطبع.

إن ذلك القائد التاريخى تعرّض لحملات تشكيك غير مسبوقة، وواجهت مسيرته هجمات حادة من خصومه السياسيين، سواء من الإخوان أو الوفديين أو الشيوعيين، ولا نغفل القوى الأوربية التى كرهته كراهية شديدة، نظرًا لسعيه الدائب الذى لا يكلّ ولا يملّ لتحرير العديد من الدول التى استعمرتها القوى الأوربية، وبالتالى ظهرت كتابات تصفه بأنه كان عميلاً للولايات المتحدة الأمريكية، كما أقر ذلك مايلز كوبلاند فى كتابه "لعبة

الأمم".

من ناحية أخرى، اتهمه خصومه بأنه أخرج الجماهير كى تطالبه بالعودة إلى السلطة يومى ٩، ١٠ يونيو ١٩٧٦م. والحقيقة عكس ذلك تماما، إذ إن الملايين خرجت عفويًا تطالبه بالبقاء فى منصبه؛ لإعادة بناء الدولة، وإزالة آثار العدوان، فى مصر ودول عربية أخرى. وهكذا، يتأكّد لنا أنه يكاد يكون القائد الفريد فى التاريخ العربى الذى تعرض للهزيمة، وخرجت الجماهير تطالبه بالبقاء فى استفتاء شعبى حافل غير مسبوق وغير مخطط مسبقًا، ودون أية توجيهات رسمية. ثم لماذا يهاجمه أعداؤه على هزيمة ١٩٦٧م، منفردًا، دون الاهتمام بالخلفيات السياسية والعسكرية لها؟ هل كان القائد الوحيد الذى تعرّض للهزيمة؟ لقد هزم تشرشل فى دنكرك من قبل، وهُزم نابليون بونابرت فى ووترلو كذلك، ولكل جواد كبوة، وليس معنى ذلك إعفاؤه من المسئولية التاريخية بالطبع، ومع ذلك، فلا نغفل قيادته لحرب الاستنزاف، وقيامه بإعادته، بناء الجيش المصرى على مدى المرحلة من ١٩٦٧ إلى ١٩٧٠م، بالاشتراك مع صفوة من الخبراء العسكريين المصريين.



- ١٢ -

كان يوم الاثنين الخامس من يونيو ١٩٦٧م، من أطول الأيام فى تاريخى الحديث والمعاصر!!! أنا مصر التى كان جيشى دومًا رفيقًا للنصر، يتعرّض للهزيمة القاسية من دويلة لا ذكر لها فى التاريخ، هى إسرائيل. ويعود ذلك إلى أخطاء من القيادات السياسية لا سبيل لإنكارها، لأن هذا تاريخى الذى أسطّره بقلمى، والاعتراف بالأخطاء هو السبيل الوحيد للوصول إلى نور الحقيقة. كما لا أنكر أن القيادة العسكرية حينذاك لم تكن مؤهلة لمواجهة عسكرية مع أعدائى، ناهيك عن التصارع بين القيادة السياسية والعسكرية، على نحو دفع ثمنه شعبى غاليًا من أبنائى وجهدى ومالى.

ومن ناحية أخرى، كانت إسرائيل مدعومة بالأسلحة من الولايات المتحدة الأمريكية وانجلترا وفرنسا وغيرها من الدول الأوربية، وتعدّ العدّة؛ من أجل مهاجمتى فى حرب خاطفة تحقق من خلالها انتصارًا عسكريًا سريعًا وحاسمًا، وتكسب من ورائه مساحات شاسعة من الأراضى، نظرًا لعجزها عن مواجهة حرب طويلة مع قلة عدد سكانها، ولا تريد توجيه سكانها إلى حرب بعيدة الأمد.

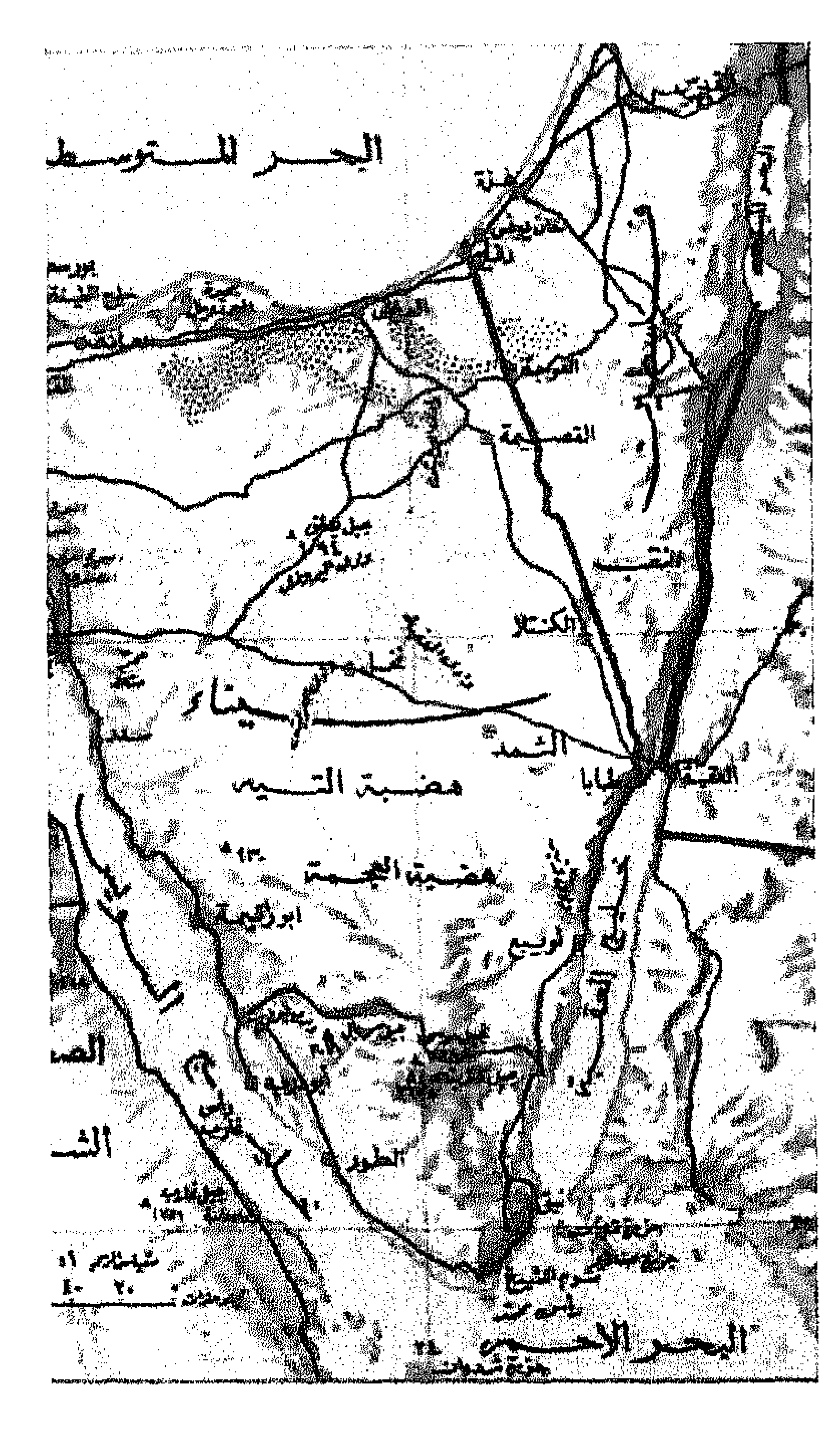
وتأكّد لى أيها الأبناء الدور الأمريكى فى دعم إسرائيل من زوايا المخابرات والتشويش على أجهزة الرادار المصرية التى أدارها أبنائى من القوات المسلحة.

لقد تم ضرب طائراتى على الأرض. ومن جراء ذلك، تم انسحاب جيشى الجريح، وافتقدت شبه جزيرة سيناء الغالية، والآن أيها الأبناء أودّ تسليط الضوء على تلك البقعة الغالية من ترابى المقدّس التى ظلّت أسيرة الإسرائيليين من ٥ يونيو ١٩٦٧م، يوم أسرها

الأسود، حتى ٦ أكتوبر ١٩٧٣م، يوم زفافها إلى الانتصار الخالد.

شبه جزيرة سيناء ذات شكل مثلث على نحو تقريبى، تطل قاعدته فى الشمال على البحر المتوسّط، ورأسه فى الجنوب فى منطقة لتقاء خليجى السويس والعقبة، عند رأس محمد، وتبلغ قاعدة المثلث ٣٢٠ كم تقريبًا، بين كل من بورسعيد ورفح، وتقدر مساحتها بنحو ٦١,٠٠٠كم٢، أى حوالى ٦٪ من مساحتى، مع ملاحظة أن التراب الوطنى لا يقاس بمساحة ما، إنه مقدّس حتى فى حالة كونه ملليمتر مربع واحد، وتسال من أجله دماء الشهداء.

وشبه جزيرة سيناء يا أبنائى تتنوع بها مظاهر السطح من صحراء إلى مناطق جبلية، وهناك أيضًا البحيرات. ومن أمثلة ما احتوته من جبال أذكر لكم: طور سيناء، والقديسة كاترين، والأحمر، والسريال، وحمّام موسى، وحمّام فرعون، والمغارة، وأبو السعود، والحديد، والراحة، وخشم الطرق. ومن أمثلة الوديان أذكر وديان العريش، والحاج، والحسته، والمليز، والصان، وأبو خشيب، وغيرها...



إن ما أود أن يعرفه أبنائى فى كل مكان هو أن الجيش المصرى ظُلم ظلمًا بيّنًا فى حرب عام ١٩٦٧م، إنه لم يحارب! بل صدر قرار جائر بالإنسحاب إلى الضفة الغربية للقناة، وكان ذلك القرار من أسوأ القرارات فى تاريخى الحديث والمعاصر. ورغم ذلك، حدثت بطولات عديدة من جانب الطيارين المصريين الذين على الرغم من تدمير العديد من الطائرات على

الأرض، إلا أنهم شاركوا فى العديد من الطلعات الجوية البطولية التى تمكنوا خلالها من تدمير عدة مراكز للقوات الإسرائيلية. من ناحية أخرى قام الإسرائيليون بالفتك بالآلاف من الجنود المصريين بالرصاص أو من خلال العطش الفتّاك، وذلك بعد أن انتهى القتال، واعتراف الأعداء بحدوث "مصيدة للرجال بين التلال"، قام بالتشجيع عليها بعض كبار الضباط، وأن منهم من ساهم فيها بصورة شخصية، وذلك طبقًا لما ذكرته صحيفة هاآرتس الإسرائيلية فى عدد أول أغسطس عام ١٩٧٩م، وبين أولئك القادة رئيس وزراء إسرائيل أرييل شارون.

لن أنسى ما حييت أبنائى الشهداء ودماء التى نزفت لتروى ترابى المقدّس سواءً فى معارك مع الإسرائيليين الغزاة أو كأسرى سقطوا برصاص الغدر. إن أمّهم ما نسيتهم، أعرفهم واحدًا واحدًا، وأتذكرهم اسمًا اسمًا.

وفى أعقاب تلك الهزيمة النكراء، أراد ابنى جمال عبد الناصر التنحى عن السلطة؛ فخرجت الجماهير الحاشدة بعفوية كاملة يومى ٩، ١٠ يونيو ١٩٦٧م، تطالبه بالعدول عن ذلك، والاستمرار فى الحُكم من أجل "إزالة آثار العدوان"، وبالفعل قام القائد المهزوم– ومعه شعبى– بدور بطولى فى إعادة بناء الجيش المصرى من جديد، وكذلك شنّ ما عرف بحرب الاستنزاف، وهى حرب حقيقية اعترفت بها إسرائيل بخسائرها الفادحة خلالها، وكانت التجربة العملية للعبور العظيم عام ١٩٧٣م.

كذلك لن أنسى فارسًا من فرسانى الأبطال الشهداء، هو نسر مصر الذهبىّ الفريق عبد المنعم رياض الذى قاد حرب الاستنزاف، واستشهد يوم ٩ مارس ١٩٦٩م، وهو يوم اتخذ بمثابة يوم الشهيد للقوات المسلحة المصرية. لقد استشهد فى الصفوف الأولى، وبين جنوده، وقدّم المثال الدال على التضحية والفداء. وما زلت أتذكّره، وكيف أن عشرات الآلاف من أبنائى خرجوا فى جنازته التاريخية الحاشدة، التى ندر أن تحدث لقائد عسكرى مصرى آخر؛ لتوديعه إلى مثواه الأخير. لقد فقدت ابنى عبد المنعم رياض إلا أن رحمى القادر

عبد المنعم رياض

دائمًا على إنجاب الأبطال ما عقم يومًا، وظهر بدلاً عنه الملايين من عبد المنعم رياض!!!، وعلى أية حال، لقد أطلق اسمه على أحد الميادين المهمة فى وسط القاهرة حتى يتذكّره كلّ مصرى فى الحاضر والمستقبل.

وخلال السنوات المذكورة، قامت إسرائيل دويلة العدوان والإرهاب، بالهجوم على مدرسة بحر البقر الابتدائية المشتركة، فى محافظة الشرقية، وذلك صباح يوم ٨ أبريل عام ١٩٧٠م، بفضل طائرات الفانتوم الأمريكية الصنع، واستشهد من جراء ذلك ١٩ طفلاً مصريًا، وأصيب ٣٦ آخرين. فكانت جريمة شنعاء تضاف إلى مسلسل جرائم إسرائيل، دولة البلطجة والعربدة. وأود هنا إيراد ما قاله وزير الحرب الإسرائيلى موشى ديان، حين أورد ما نصّه: " إن هؤلاء الصغار ماتوا نتيجة الغارة الإسرائيلية، لا بد أنهم كانوا داخل مؤسسة عسكرية مصرية". وتلك وقاحة القائد الإسرائيلى الذى كذّبه العالم أجمع بعد مشاهدة صور أبنائى الشهداء الصغار والدماء تلوث كراسات إجاباتهم وكتبهم فى وحشية لم يشهد التاريخ أحقر منها.

لن أنسى أنا مصر أطفالى الذين سقطوا شهداء، وها هى أسماؤهم كى لا تضيع فى غياهب النسيان، وليذكرها كل مصرى على نحو مستمر:

١- حسن السيد محمد الشرقاوى
٢- محسن سالم عبد الجليل
٣- إيمان الشبراوى طاهر
٤- بركات سلامة حمّاد
٥- فاروق إبراهيم الدسوقى هلال
٦- خالد محمد عبد العزيز
٧- محمود محمد عيطه عبد الله
٨- جبر عبد المجيد فايد
٩- عوض محمد متولى الجوهرى
١٠- محمد أحمد محرّم
١١- نجاة محمد حسن خليل
١٢- صلاح محمد إمام قاسم
١٣- أحمد عبد العال السيد
١٤- محمد حسن محمد إمام
١٥- زينب السيد إبراهيم
١٦- محمد السيد إبراهيم عوض
١٧- محمد صبرى محمد الساهى
١٨- عادل جودة رياض
١٩- ممدوح حسنى الصادق

تلك أسماء شهداء العلم الأطفال الصغار الذين اغتالتهم إسرائيل دولة العدوان. إنهم

أبنائى الذين لطّخت دماؤهم كراساتهم وكتبهم، وسقطوا شهداء، ورووا بدمائهم الطاهرة ترابى المقدّس... لكن صبرًا إن يوم الثأر لآت لا ريب فيه، إنه يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣م، سآخذ بثأر أطفالى الذين ذبحوا فى ساعات الصباح الباكر بدم بارد آثم، وعلى أية حال، يكفينى فخرًا كأمّهم أن شهدائى، منهم الأطفال الأبرياء، فالكلّ ضحّى من أجلى: الرجال والنساء وحتى الأطفال.

وأود أن يعرف كل قارئ لتاريخى الحافل بالمآسى والانتصارات، أن الطيار الإسرائيلى السفاح الذى قام بالغارة على مدرسة بحر البقر الابتدائية فى ذلك اليوم المأساوى، قد سقط أسيرًا فى أيدى أبنائى الأبطال خلال حرب اكتوبر ١٩٧٣م، واعترف بأنه شارك فى المذبحة، غير أننى عاملته من خلال أبنائى معاملة طيّبة. ولئن تساءلت أيها القارئ: لماذا كانت تلك المعاملة؟ فالإجابة أننى أمّ الحضارة، ودومًا متحضرة تمامًا مع أعدائى، إذا ما وقعوا أسرى. أما إسرائيل دويلة الدماء والجماجم والخراب والدمار، فهى تفضّل ما تفعله لأنها فى الأصل عصابة من المجرمين أقامت دولة على أنقاض فلسطين العربية التى لن تموت أبدًا. وشتّان ما بين الحضارة من ناحية، والبربرية والعنصرية الدموية من ناحية أخرى. إن مجرد التفكير فى المقارنة بينى أنا عملاقة الجغرافيا والتاريخ، ودويلة لقيطة مثل إسرائيل لجريمة كبرى فى حق العقل الإنسانى عمومًا!!!.

لقد أرادت إسرائيل من خلال إغارتها على مدرسة الأبرياء فى بحر البقر، الضغط على شعبى من أجل الثورة على زعيمى جمال عبد الناصر. غير أن الأمور سارت عكس ما اشتهت وتمنّت تل أبيب، إذ التفّ الشعب الخالد حول زعيمه، من أجل إكمال المسيرة، مسيرة تحرير ترابى المقدّس الذى احتله الصهاينة فى سيناء.

لم تكن الحادثة المذكورة هى الوحيدة، ففى صباح يوم ١٢ فبراير عام ١٩٧٠م، اتجه عمال مصنع أبو زعبل إلى الأهلية المصرية للصناعات المعدنية، من أجل تسلّم وردية الصباح، من عمال وردية الفجر، وكان عدد العمال كبيرًا، وفجأة قامت طائرات الفانتوم الإسرائيلية الأمريكية الصنع بالهجوم على المصنع المذكور، واستشهد على الفور سبعون من أبنائى العمال الشرفاء الذين رووا بدمائهم الذكية أرضى الخالدة. وهكذا دخل العمال فى ركب الشهداء الذى لم يستثن أحدًا، ولا ريب فى أن شجرة الحريّة تسقى دومًا بدماء أولئك الشهداء الأبطال.

أما الجريمة الثالثة، فتمثّلت فى إسقاط الطائرة الليبية التى دخلت أجواء سيناء عن طريق الخطأ فى يوم ٢٢ فبراير عام ١٩٧٣م، فهاجمتها أربع طائرات إسرائيلية من طراز فانتوم وسقط شهيدًا من جراء ذلك (١٠٩) من المدنيين المصريين والعرب.

إن إسرائيل أثبتت على مدى العديد من الأعوام أنها دولة دموية، لا تراعى مواثيق أو حرمة لمدنيين، وتعتبر الجميع عسكريين وغير عسكريين هدفًا لطائراتها وقنابلها. لقد كان من بين الشهداء مصريون وليبيون وأردنيون ولبنانيون وسوريون، وفلسطينيون. لقد اتحد العرب معًا بدمائهم الزكية الطاهرة بفضل عدوانية دولة العدوان والبغض، إسرائيل.

مرة أخرى، أورد أسماء الشهداء المصريين كى يدرك القاصى والدانى أن أمهم مصر لم ولا ولن تنس شهداءها مطلقًا مهما توالت الأعوام، وهم:

١- عبد الحميد محمد أبو زيد
٢- عزيز حسن الوكيل
٣- علاء مصطفى عبد المعطى
٤- سلوى حجازى
٥- سهير زكى شادى
٦- حسن زكى شادى
٧- محمد عبد الرحمن محمود
٨- نادية محمد عطية
٩- رجب محمد عبد الحق
١٠- سعد الدين التقى
١١- مديحة محمود صالح
١٢- زينب صالح على مصطفى
١٣- محمد لبيب إسماعيل
١٤- سهير مصطفى شكرى
١٥- ميرفت محمد محمود
١٦- سهير إبراهيم عبد الله
١٧- محمد إسماعيل قطب
١٨- محمد أحمد السيد قطب
١٩- محمد حسن على
٢٠- عصام أحمد
٢١- محمود حسن أبو عافية
٢٢- عبد العزيز صلاح
٢٣- مصطفى محمد حنفى
٢٤- فيصل محمد أحمد شريف
٢٥- فاروق محمد أبو زيد
٢٦- فتحية عبد العزيز
٢٧- عزّت ناصف علي
٢٨- حسنى أحمد حسن
٢٩- عزّت عبد الحميد حسن
٣٠- اعتدال زكى محمد
٣١- صلاح محمد إسماعيل
٣٢- عطيات محمد الشرقاوى
٣٣- السيد إمام عوض
٣٤- هانى إبراهيم
٣٥- جمال الدين عفيفى
٣٦- محمد حيدر قنديل
٣٧- حسن صالح سالم
٣٨- محمد محمد حجازى

لم أبكِ على أولئك الشهداء الذين سقطوا؛ لأننى كنت أعلم علم اليقين الذى لا يقين بعده، أن ساعة الثأر آتية لا ريب فيها، وأن أولئك الذين قتلوا أبنائى سينالهم عقاب السماء العادل حتمًا على أيدى أبنائى المخلصين الذين يتمنّون فدائى بكلّ عزيز وغال لديهم.

ثلاث مذابح قامت بها الدويلة التى تدّعى أنها ديمقراطية وعادلة ومتحضّرة، بينما الواقع يؤكد أنها بربرية حتى النخاع، وكل مذبحة تثبت لى ولأبنائى بما لا يدع مجالاً للشكّ أن إسرائيل لا تفهم إلا لغة واحدة، هى لغة القوة. لقد كنت أتجهّز وأستعدّ من أجل صنع تاريخى المجيد على الضفة الشرقية لقناة السويس؛ التى كانت قد اشتاقت بما فيه الكفاية لعبور أبنائى الأفذاذ، الذين رضعوا رضعات مشبعات من حليب عشقى الخالد، الذى لا نظير له فى أى زمان أو مكان من هذا العالم!!!

وخلال تلك المرحلة، حدث حادث محورى فى دلالاته من خلال مواجهتى لدويلة إسرائيل، إذ إن أعدائى أرسلوا مدمّرة عرفت بالمدمّرة "إيلات" كانت درة البحرية الإسرائيلية كى تهاجمنى أمام مدينة بورسعيد، وذلك يوم ٢١ أكتوبر ١٩٦٧م، وظن الأوغاد أننى عاجزة عن المقاومة. وفجأة، خرج لتلك القطعة البحريّة المغرورة ثلاثة زوارق طوربيد من البحرية المصرية الباسلة، وتم إطلاق الصواريخ على الهدف المعادى، وبعد دقائق كانت تلك المدمّرة تغرق فى المياه بعد إصابتها بإصابات مباشرة. ومع غرقها فى قاع البحر، غرقت غطرسة آلة الحرب الإسرائيلية، وتأكّد للأعداء أننى ما زلت حيّة باقية، وأن أبنائى البواسل لديهم القدرة الفذّة على مواجهة التحدى الغاشم باستجابة فاعلة قادرة على إذلال الأعداء مهما كانوا.

لقد كان إغراق المدمّرة إيلات رمزًا من رموز رحلتى للصمود أمام العدو المحتل فى سيناء، والمتغطرس بقوّته الغاشمة. ومع غرق تلك المدمّرة فى الماء تم إغراق غرور المؤسسة العسكرية الإسرائيلية. ويلاحظ أن ذلك اليوم اعتبر عيدًا للقوات البحرية المصرية الباسلة.

ومن الأحداث التى لا تنسى خلال مرحلة الصراع مع أعدائى، ما حدث يوم ٢٢

يناير ١٩٧٠م، حيث هاجم الإسرائيليون جزيرة فى مدخل خليج السويس هى جزيرة "شدوان"، وكانت بها قوة مصرية صغيرة. أما الغزاة فقد أتوا إليها بهجوم جوى، وقوات بحرية، ودافع أبنائى دفاعًا مستميتًا عن تلك الجزيرة. فقد أدركوا أنها ليست مجرّد إحدى الجزر المتناثرة فى مياه البحر الأحمر وخليجى السويس والعقبة، بل هى مصر مصغّرة. وبعد معارك طاحنة أمكن لأبنائى البررة إلحاق الهزيمة بالقوات المعتدية؛ ودخلت "شدوان"، مثل غيرها من بقاعى الطاهرة، التاريخ من أوسع أبوابه، وأدرك الإسرائيليون أن أبنائى يدافعون عن ترابى حتى آخر لحظة، وأن الاستشهاد لديهم أعزّ الأمنيات وأغلاها.

أمضيت يا أبنائى المرحلة من ٥ يونيو عام ١٩٦٧م، حتى ٥ أكتوبر عام ١٩٧٣م، فى مرارة سوداء وحزن أسود مقيم، باستثناء أحداث متفرّقة هنا وهناك كانت تشعرنى أن أبنائى الحقيقيين ما زالوا يعشقوننى، و لم ينسوا أرضى لحظة واحدة.

بدأت حرب الاستنزاف، وفيها تمّ الاحتكاك المباشر بين أبنائى والإسرائيليين، وتم ضرب استحكامات العدو الغاشم على الضفة الشرقية لقناة السويس. وعبر أبنائى تلك القناة، وأسروا جنود الجيش المتوهم أنه لا يُقهر!، ثم جاءت أحداث أثلجت صدرى عندما أمكن لرجال الضفادع البشرية الأبطال إغراق المدمّرتين الإسرائيليتين "بيت شيفع" و "بيت يم" فى ميناء إيلات جنوبى فلسطين المحتلّة فى ٢٦ نوفمبر عام ١٩٦٩م، فكانت عملية عسكرية فريدة فى قلب مناطق العدو، وفى عقر داره، وكشفت بجلاء عن براعة التخطيط والتنفيذ، وأن كافة المناطق التى يسيطر عليها العدو هى بمثابة هدف لأبنائى أبطال القوات المسلّحة الباسلة.

وطوال أعوام عديدة، لم أذق للنوم طعمًا، وكان أبنائى المخلصون من العسكريين والمدنيين يعملون ليلاً ونهارًا من أجل زفافى إلى النصر الذى انتظرته طويلاً، وانتظرنى هو الآخر حتى ملّ الانتظار، وضاق الضيق بالضيق!، لم يبخلوا علىّ بجهد أو عرق أو دماء، وكيف يتخلّون عنى، وقد علّمتهم العطاء بلا حدود؟ !!؛ لقد استشهد من استشهد

من أجل أن يمنحنى الحياة بإذن الله تعالى، وكانت دماء الشهداء تروى على ترابى المقدّس قصيدة عشق أولئك الشهداء لتاريخى كلّه.

لقد تمّ بناء حائط الصواريخ، أو حائط البطولات فى ٣٠ يونيو ١٩٧٠م، وقد كلّفنى من خزائنى نحو مائة مليون جنيه كنت أدّخرها من أجل إكمال تشييده. وبالفعل سقط المئات من الشهداء من أجل إنجازه، وقامت الطائرات الإسرائيلية الأمريكية الصنع بغارات مجنونة من أجل إيقافه، لكن دون جدوى. لقد كانت عزائم أبنائى أقوى من ترسانات السلاح التى لدى أعدائى.

و لم يتوقف العمل إلى أن اكتمل الإنجاز، الذى كان أساسيًا من أجل تحقيق الانتصار النهائى، فانشرح صدرى، وأدركت أكثر من أى وقت مضى أنّ دويلة الإرهاب والعربدة، اقترب موعد إذلالها على أرض سيناء الحبيبة، مثلما قهرت من قبل كافة الأعداء السابقين.

وبعد تشييد حائط الصواريخ، تهاوت الطائرات الإسرائيلية كالفراش المحترق، ففى يوم واحد تم إسقاط اثنى عشر طائرة معتدية أمريكية الصنع، وذاق الإسرائيليون مرارة سقوط طائراتهم التى كانت تستبيح سمائى المقدّسة، وأدرك الأعداء أننى لست بالفريسة الهيّنة على آكليها.

تدرّب أبنائى على العديد من العمليات الحربية لعبور قناة السويس فى مناطق مشابهة تماما للطبيعة الجغرافية لتلك القناة، وتمت إقامة استحكامات مطابقة لما هو موجود فى خط بارليف البالغ الصيانة، وهو خطّ أقامه الإسرائيليون وأنفقوا عليه مئات الملايين من الدولارات؛ من أجل إعاقة أى تقدم محتمل لأبنائى، ولتثبيت احتلالهم لأرض سيناء الطاهرة. لقد أشاع الغزاة أن تدميره يحتاج إلى قنبلة ذرّية نظرًا لشدّة استحكاماته التى يصعب اقتحامها. ويلاحظ أن الخبراء العسكريّين الروس صدّقوا تلك الأكذوبة التى كانت نوعًا من الحرب النفسية على أبنائى؛ حتى لا يفكّروا فى اقتحامه. لقد نسوا أن أبنائى قادرون على صنع المعجزات لأنهم تسلّحوا بعشقى المتأجج فى النفوس كالجذوة

المشتعلة.

إنّ من شاهد ذلك الخطّ الحصين، أدرك من فوره الرفاهية التى عاش فيها الجنود الإسرائيليون، حيث توافرت لهم كافة متطلبات الحياة، بينما كان أبنائى يرتضون بأقلّ القليل من الطعام، ويحيون حياة متقشّفة، وذلك شأن الرجال الشرفاء، لا المحتلّين الأوغاد.

ولا أغفل هنا الإشارة إلى أن المحتلّين أقاموا مواسير خاصة من أجل قذف كميات هائلة من النابلم لتحرق أبنائى إذا ما فكّروا فى عبور تلك القناة وصولاً إلى أرضى المصرية فى سيناء، بلغ عددها ٤٠٠ ماسورة. هكذا كان أولئك الأوغاد يضعون العراقيل تلو الأخرى، ولا أغفل هنا الإشارة إلى الساتر الترابى الذى بلغ ارتفاعه نحو عشرين مترًا، ومثّل صعوبة أخرى فى اجتيازه.

فكّر أبنائى الأوفياء فى صنع يوم زفافى الخالد الأسطورى، وفكّروا فى أن أفطر إفطارًا رائعًا بعد الصوم القاسى العنيف الذى مزّق قلبى، وخططوا لإذلال الدويلة الأكذوبة، التى احتلّت قطعة غالية على قلبى اسمها سيناء. وتم التخطيط لكل ذرّة احتمال، وتم اختيار الساعة واليوم والشهر والعام بدقّة متناهية، وقرر أبنائى الأوفياء أن يكون زفافى فى وضح النهار، كى يشاهد العالم بأسره، ومن أقصاه إلى أقصاه، كيف أتى النصر، والفرح، فى موعده.. تمام الساعة الثانية والربع.

فى ظهيرة يوم السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣م، الذى يوافق عيد الغفران لدى الإسرائيليين، حيث تعطّل فيه كافة المصالح. فى ذلك اليوم، بدأ حفل العرس الخالد الذى ما زلت أتذكّره جيدًا بقيام ما يزيد على مائتى طائرة يقودها أبنائى من نسور الجوّ، بضرب مراكز الاتصال الإسرائيلية فى عمق سيناء، وضرب تجمّعات العدو، كذلك كان هناك دوى آلاف المدافع على الضفة الغربية لنقاط الإسرائيليين الحصينة فى الضفّة الشرقية، وقبل ذلك تمّ سدّ مواسير النابلم ال ٤٠٠ كاملة، دون أن تنقص واحدة وإنزال رجال الصاعقة

الأبطال خلف خطوط العدو؛ لإعاقة تقدّم مدرّعاته إلى قوّاتى التى عبرت القناة، لقد كان رجال الصاعقة من أبنائى مبعثًا للرعب فى قلوب الجنود الإسرائيليين الذين لاذوا بالفرار أمامهم.



اندفع أبنائى الأوفياء الجنود البسطاء الذين رضعوا من حليب عشق أمّهم مصر، الخالدة أبدًا العظيمة أبدًا، فى قوارب مطّاطية إلى الشاطئ الشرقى للقناة، وعندما وطأت أقدامهم أرض سيناء الخالدة بكوا فرحًا وقبّلوها، وأدركوا معنى الولاء للأرض التى هى العرض.

لقد كان الإسرائيليون الأوغاد يمارسون الجنس مع العاهرات؛ كى يرى الجندى المصرى كيف أن تراب بلاده يمتهن، ويذلّ على نحو مهين، ولكى يزرعوا فى قلبه اليأس، وحتى يدرك أن تحرير ذلك التراب المقدّس ضربٌ من الأوهام. والآن جاء المدعوون إلى الفرح الأكبر، عُرس النصر المؤزر، وكان وراءه رجال أبطال ما زلت أتذكّرهم: ابنى البار جمال عبد الناصر، الذى هُزم فى ٥ يونيو ١٩٦٧م، وأبى الشعب البطل إلا أن يواصل الإعداد، والبناء، وبالفعل مات يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠م، بعد أن اكتمل حائط الصواريخ، وابنى البار محمد أنور السادات، الذى كان عاشقا لترابى المقدّس، وتحمّل آلامًا كبرى إلى أن دخل التاريخ من أوسع أبوابه، وأتذكّر اللواء طيار محمد حسنى مبارك، صاحب تخطيط الضربة الجوّيّة التى أكّدت أن إسرائيل عدوّ كاذب لا حول له ولا

قوة، وابنى البار الفريق سعد الدين الشاذلى، وابنى البار المشير محمد إسماعيل، والمشير محمد عبد الغنى الجمسى، والمشير محمد فهمى، وغيرهم كثيرون، وما أكثر أولئك الذين خططوا ليوم الفرح الأعظم، فبوركوا جميعًا دون استثناء أحياءً وأمواتًا!!!

تمكّن أبنائى فى سلاح المهندسين من إقامة جسور كبارى على القناة، وعبرت الدبّابات، وجرت ملاحم كبرى، أمكن خلالها تكبيد الإسرائيليين خسائر فادحة، وسقط الشهداء من أبنائى الواحد تلو الآخر، وكلّ ينطق بالشهادتين، ويحب بلده التى علّمت التاريخ كيف يكتب الأحرف الأولى.

التقت دماء المسلمين مع الأقباط على أرض سيناء الطاهرة، وأسقطت رصاصاتهم الإسرائيليين الذين توهّموا أننى جثّة هامدة، فإذا بأبنائى يحققون معجزة العبور، ويقتلونهم فى كل مكان. واستسلم أحد كبار قادتهم، ويدعى عسّاف ياجورى، وشاهد العالم بأسره إذلال أبناء دويلة إسرائيل المزعومة. إن تلك الدويلة لم تهزم على ذلك النحو منذ عام ١٩٤٨م، وبالتالى فإن تلك الحرب كانت بمثابة الإفاقة لها من غرورها.

وخلال أحداث الحرب، كانت الكلمة سلاحًا فتاكًا. والآن أقدم لأبنائى قصيدة خالدة كتبها شاعر دمشقى فذّ هو نزار قبّانى؛ الذى عاش على أرضى أعوامًا عديدة، وشرب من ماء نيلى، وصار يجرى فى دمه عشقى الجارف، وإليكم كلماته الخالدة، وعنوان القصيدة: "خاتم مصر":

تتعرّف مصر على وجهها فى مرايا سيناء

تقرأ اسمها فى كتاب الشهادة ومزامير العبور

تقرؤه فى فرح المغامرة وأبجدية الاقتحام

تقرؤه على معاطف الجنود المسافرين إلى الضفة

الثانية للكبرياء... تقرؤه،

فى جراحهم المتلألئة تحت شمس كأحجار الياقوت،

وحقول شقائق النعمان.

وتكتشف مصر صوتها فى رصاص مقاتليها، لا فى حناجر مغنيها.

تضع مصر خاتمها الفاطمى فى أصبع يدها اليسرى

وتصبح عروسًا.

يقطع القمر أجازته، ويرقص كزوربا اليونانى فى ساحة التحرير

تتبرّع أشجار القطن فى الدلتا بكل أزهارها البيضاء لغزل طرحة العروس.

تركب مآذن الأزهر القطار السريع المتجه إلى الإسماعيلية لتبرم عقد الزواج

يخرج الفراعنة نساءً ورجالاً وأطفالاً من غرف نومهم فى الأقصر وأسوان

والكرنك ووادى الملوك، ويرشون مصر بماء الورد

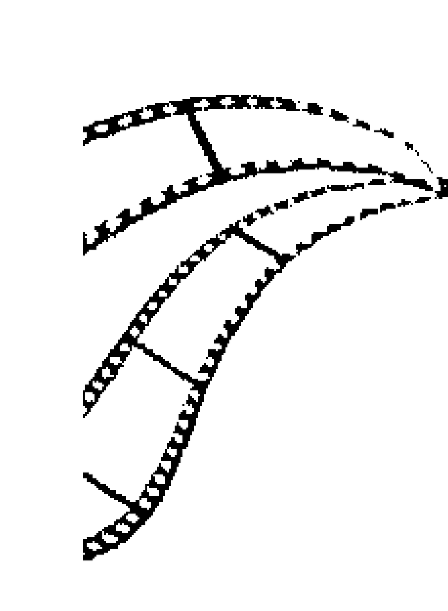
يبيع التلاميذ كتبهم الجامعية، ويدفعون مهر العروس.

ينزل عمرو بن العاص عن حصانه... ويقدّم للعروس عباءته وسيفه ويقرأ لها سورة الفتح

يا مصر

بطاقة عرسك بيدى

فهل تسمحين لى أن أمشّط شعرك القادم من غابات الحزن وألثم يديك المحترقتين بالنار.



وأشيل ثوبك المثقوب برصاص البطولة؟!

هل تسمحين لى أن أكون شاهد الزفاف؟

ولا تعليق لى على ما قاله ابنى الشاعر السورى الكبير الذى عشقنى حتى الثمالة!!!

وخلال حرب أكتوبر المجيدة التى تنفّست خلالها الصعداء، وقعت أحداث بطولية لا حصر لها، وكشف أبنائى عن معدنهم الأصيل. لقد لقد افتدونى بالأرواح، وهى لديهم رخيصة، ولو كان لديهم ما يفوقها لفعلوا برضا كامل وسعادة غامرة. ولن أورد سوى أمثلة قليلة تؤكد للقارئ كيف أننى ما عقمت يومًا، وأن رحمى يلد الأبطال تلو الأبطال فى كل لحظة، وعلىّ أن أشير بأصبعى، فيندفع الملايين الى ساحة الخلود يلبّون ندائى. فبورك شعبى، وبورك الدم الذى يسيل ليروى شجرة الحرّية فوق أرضى.

فى أحد المواقع على الضفّة الشرقية لقناة السويس، قدِم أبنائى لتطهيره من دنس الإسرائيليين الأوغاد، وأراد أحد أبنائى رفع علمى هناك، كى يرفرف بهواء الحرّية الرائع الذى طال الاشتياق إليه منذ أعوام وأعوام، وإذا برصاصات الغدر تجعله فى ركب الشهداء، وحاول بعده ما يقرب من اثنى عشر ابنًا من أبنائى، وكان حظ الثالث عشر أن يثبّت العلم كى يرفرف، وبجواره ترفرف أرواح الشهداء الاثنى عشر من أبنائى البررة.

أيها المصريّون تذكّروا بطولات أبنائى. أذكروها صباح مساء، واحكوها لأبنائكم؛ كى يعرفوا تاريخهم الناصع. قولوا لهم إننى ولاّدة الشهداء، أبلغوهم أننى عملاقة الأمس واليوم والغد، وأن رأسى خُلقت لتُرفع، وإننى قادرة على هزيمة الهزيمة، وتحويلها إلى نصر مبهر يحرق قلوب الأعداء، وما أكثرهم عبر حقب التاريخ.

وقصة أخرى لجندى من صعيد مصر، وبالتحديد من إسنا بمحافظة قنا، اسمه سيد زكريا خليل، كان فردًا من أفراد الصاعقة المصريّة التى بعثت الرعب فى قلوب الإسرائيليين، قام بمدفعه الرشاش بقتل سريّة إسرائيلية كاملة، وظل يقاتل حتى نفدت ذخيرته، وأطلق عليه

أحد الجنود الإسرائيليين الرصاص من الخلف، فسقط شهيدًا حيًّا وروت دماؤه أرضى الطاهرة، وفتّش قاتله الإسرائيلى فى ملابسه، فوجد بطاقته العسكرية وقروشًا قليلة، وظلّ محتفظًا بها سنوات عديدة. ودارت الأعوام دورتها، وذهب ذلك الإسرائيلى إلى ألمانيا، وفى حفل عقدته السفارة المصرية هناك، احتفالاً بانتصار أكتوبر المجيد، قدّم للمسئولين فى السفارة المصرية البطاقة العسكرية للشهيد البطل، والقروش القليلة التى وجدها فى حوزته، واعترف بأنه قاتل الإسرائيليين بشرف، وأنه كان كالأسد، ومن تلك اللحظة أطلق عليه المصريون تعبير "أسد سيناء".

إن متعلّقات ذلك البطل الشهيد الحىّ موجودة فى المتحف الحربى بالقلعة، دليلاً واضحًا على أن عشّاقى كثيرون، وأن البسطاء منهم يدخلون عالم الخلود من أوسع الأبواب. ها هو ابنى البطل يدخل التاريخ، ويشهد له الإسرائيليون بالبطولة، فلو كان خائنًا ما دخل التاريخ، ولكنه بطل حقيقى شرب من حليبى، وتربّى على أرضى، وتنفّس هوائى، وحمل السلاح دفاعًا عن عرضى وشرفى، ومات شهيدا، وصار حيًّا فى الدنيا والآخرة، وحَظى بشرف الدفن فى أرضى الخالدة الطيبة الطاهرة، فهل هناك شرف أعظم من ذلك؟ لا أتصوّر !!!.

لقد استشهد سيّد زكريا خليل، وهو فقير بميزان أصحاب المليارات، غير أنه كان غنيًا غنى بالغًا بميزان أمّه مصر التى عشقها حتى آخر لحظة فى حياته!

لقد قرأ ابنائى المصريين فى كل مكان سيرة البطل الشهيد الذى لم يتردد لحظة فى بذل روحه فدائى، وعرفوا قصّته، وصارت مضرب الأمثال فى البطولة والتضحية والفداء. وما أحوج شبابى اليوم إلى أن يجعلوه بالفعل قدوتهم التى يقتدون بها، ولا ينسونه أبدًا مهما تعاقبت السنون.

لقد كرّمت ابنى البار فمنحت اسمه أرفع الأوسمة فى صورة وسام نجمة سيناء، وألّفت عنه الكتب المتعددة، وأطلقت اسمه على أحد شوارع مصر الجديدة، وبالتحديد فى منطقة

مساكن الشيراتون، وهو الشارع الذى يقع موازيًا لشارع آخر على اسم القائد العام للقوات المسلّحة فى حرب أكتوبر المجيدة، وأعنى به المشير أحمد إسماعيل. فبوركت أيها الشهيد، وبوركت الأرض الطيبة التى أنجبتك، وصارت فى نهاية المطاف مثواك الأخير!!!.

والآن، ما الذى يمكن الخروج به من تلك الحرب الخالدة؟ وبمعنى آخر: ما الدروس التى يمكن الاستفادة منها؟

الواقع أيها الأبناء أننى أنظر إلى أحداثها بعد تلك الأعوام الطوال فأجد فيها "المدرسة الكبرى"، وبالتالى فإن حجم الإفادة منها كبير إلى درجة غير مسبوقة!!!

لقد ظن أعدائى أننى جثة هامدة لا نبض فيها ولا حياة، وأن إمكانية البعث من جديد أمر بعيد المنال، إن لم يكن ذروة المستحيل، فإذا بأبنائى الأبطال الأشدّاء يستيقظون ويبعثون أمهم معهم، ويحطّمون الحرب النفسية الدنيئة التى شنّها الأعداء عليهم، وذلك بعد أعوام كئيبة من محاولة الموت البطىء لأنّ تاريخى أبدًا لا يموت.

كذلك أثبتت تلك الحرب المجيدة أهميّة العمل الجماعى المشترك والمتناغم، فاستخدام سلاح البترول من جانب الدول العربية معًا، واشتراك القوات المصرية مع شقيقتها القوات السورية والعراقية، كل ذلك أكّد بما لا يدع مجالاً لارتياب مرتاب أن الفرديّة كانت آفة العرب لعقود من الزمان، وأن فى التعاون قوّة، وفى التفرّق الوهم أجمعه، وهكذا، فإننى كأمكم الكبرى أدرك يا أبنائى فى كل مكان من هذا العالم أن تاريخى لا ينفصل عن تاريخ شقيقاتى العربيات – وعلى نحو خاص بلاد الشام– فما يحدث فى القاهرة يؤثر على دمشق وعمّان وبغداد وبيروت، ولا تستطيع عاصمة عربية واحدة أن تحيا دون التعاون مع العواصم الأخرى؛ لأن تاريخنا واحد، ومصيرنا مشترك، لقد فوجئ الغزاة ومن يدعمهم من أوربيين وأمريكيين، أن العرب قوة سياسية جديدة، وأن بإمكانهم– إذا أرادوا – أن يحققوا طموحاتهم خاصة إذا كانت مشروعة، وتعترف بها كافة أنحاء العالم

إلا قلّة قليلة نادرة.

ولقد أكّدت حرب أكتوبر ١٩٧٣م، أننى كمصر قادرة على التحدّى مهما كانت قواه، باستجابة رائعة تواجهه، وما هذا إلا منطق التاريخ الذى لا يكذب، بل هو الصدق كله. كم من التحدّيات تصديت لها يا أبنائى: الهكسوس، الأشوريون، الإغريق، الرومان، الفرنسيين، الإنجليز، وأخيرًا أبناء نجمة داود، كلّهم مضوا وسيمضون، وبقيت أنا مصر درة الزمان، وكعبة القاصدين من كل حدب وصوب.

إنها قدرتى الفذّة على مواجهة التحديّات– بإمكاناتى الذاتية– مهما عظمت، ومهما تعاونت معًا ضدّى. لقد واجهت تحدّيات فى كافة الأشكال والصور عبر آلاف السنين، وبصورة يندر تكرارها فى تاريخ دولة أخرى. ورغم ذلك، خرجت منها سالمة معافاة. لقد ابتلعت أعدائى، وزادتنى الصدمات يقينًا بقوّتى الذاتيّة المختزنة عبر عصور التاريخ، وهى قوة متنامية بفضل ربى تعالى والمخلصين من أبنائى الذين يعملون فى صمت، ويتشرّفون بأنّهم من المصريين.

وقد تأكّد للجميع الرغبة فى الاستشهاد من أجلى، التى تجلّت فى مئات الأمثلة والنماذج، فلم يدّخر أبنائى العظام جهدًا فى بذل أرواحهم من أجلى فى أكبر معزوفة جماعيّة للتضحية والفداء، فنسوا جميعا أنفسهم من أجلى، ورأوا فى ذلك العطاء كلّه والحياة كلّها. هل هناك دليل على العشق أكبر من ذلك؟

محمد أنور السادات

استمرّت الحرب المجيدة، وأرسلت إسرائيل رسالة استغاثة إلى الولايات المتحدة الأمريكية على لسان رئيسة

وزرائها الداهية العجوز جولدا مئير، تقول: "انقذوا إسرائيل"، وتدخّلت راعيتها فيما وراء الأطلنطى، مثلما كانت القوى الأوربية تتدخّل لحماية الكيان الصليبى فى بلاد الشام على مدى القرنين الـ ١٢، ١٣ م، وهناك أدرك رئيسى العبقرى محمد أنور السادات أنه لا قبل له بمواجهة الترسانة الأمريكية البالغة الضخامة، سواء فى صورة الأسلحة التقليدية أو غير التقليدية؛ فقبل وقف إطلاق النار، ثم تم فض الاشتباك الأول والثانى؛ صونًا لدماء أبنائى فى صراعهم مع آلة الحرب الشرسة الإسرائيلية الأمريكية.

ثم قام السادات بمبادرة جريئة لم يفهمها الكثيرون فى وقتها، وأثارت جدلاً واسعًا، غير أنه – وهو السياسى الداهية المحنّك – انتهز فرصة تاريخية فى صورة وجود رئيس أمريكى يمكنه الضغط على إسرائيل للانسحاب من سيناء، وزار القدس عام ١٩٧٩م، ووقّع فيما بعد معاهدة كامب ديفيد التى بمقتضاها انسحبت إسرائيل من كامل سيناء. ويلاحظ أن شريط طابا الحدودى، البالغ كيلومتر واحد، جرت شأنه مفاوضات أدّت إلى عودته إلى حضنى أنا مصر، فكملت فرحتى بعودة ابنى الغالى!!!.

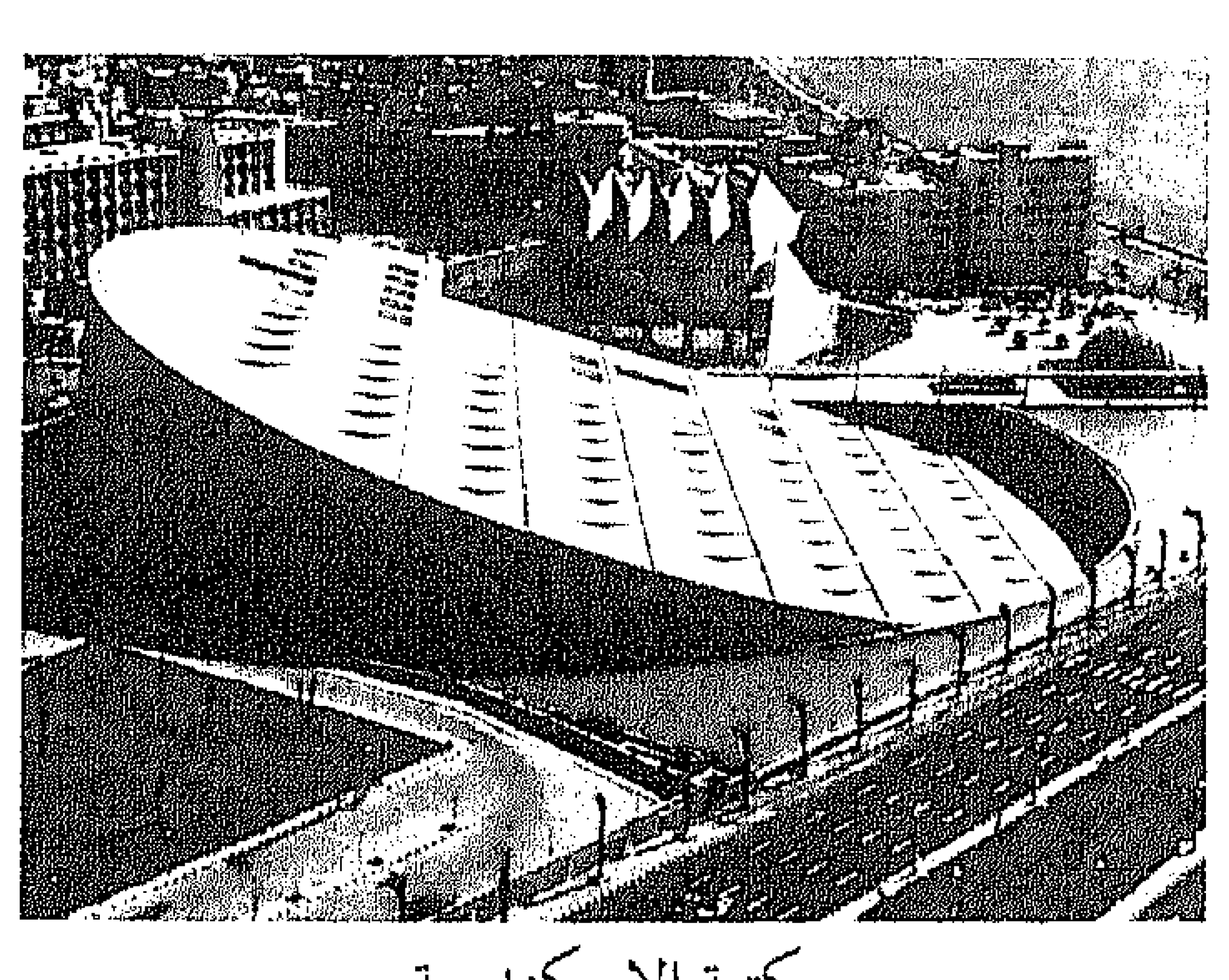
لقد أثبت ابنى محمد أنور السادات كيف يمكن للوطنى المخلص أن يعيد ترابى المقدّس، وأن يحقق دماء أبنائى التى سالت بغزارة على مدى حروب ١٩٤٨م، ١٩٥٦م، ١٩٦٧م، ١٩٧٣م، من أجل ادخارها فى معركة كبرى ألا وهى معركة التشييد والبناء والعمران، بعد أن أتت الحرب على الأخضر واليابس، وبعد أن انفضّ عنه أشقاؤه العرب إلا القليل، باستثناء موقف تاريخى قام به بطل فريد أنجبته جزيرة العرب، هو الملك الراحل فيصل بن عبد العزيز الذى اغتالته الأيدى الآثمة فيما بعد. وقيل إن المخابرات المركزية الأمريكية كان لها يد طولى فى ذلك؛ نظرًا لرغبته العارمة فى الصلاة فى المسجد الأقصى بالقدس الشريف.

واصل ابنى محمد أنور السادات معركة التنمية. حقيقة كانت له أخطاؤه مثل كلّ الحكّام من أبنائى، غير أنه يكفيه فخرًا اليوم الخالد ٦ أكتوبر ١٩٧٣م، لقد تم محو عار ٥

يونيو ١٩٦٧م إلى غير رجعة، وأعاد إلى مع أبنائى الآخرين الشرف المسلوب، وعقد قرانى مع النصر الذى اشتقت إليه طويلاً، وكان بالفعل بطل الحرب والسلام. وبالفعل كان رجلاً سابقًا لعصره بعشرات الأعوام، وهو أمر لم يفهمه أشقاؤه العرب إلا متأخرًا!!!

اغتيل ابنى محمد أنور السادات بأيدى آثمة يدّعى أصحابها الإسلام، وهو منهم براء. إذ لا يحلّ سفك دم المسلم، غير أنهم أحلّوا ما حرم، ونسوا- أو تناسوا- أن من قتل نفسًا بغير حقّ أو إفساد فى الأرض فكأنما فتك بالناس جميعًا. ومن المؤلم أن يوم اغتياله كان يوم فرحة ٦ أكتوبرعام ١٩٨١م، وتلك إرادة الله تعالى الذى لا راد لقضائه.

كم حزنت على افتقاد ابنى الفذّ!، كم بكى كل بيت مصرى على أرضى. ومع ذلك، سيظل الفلاح المصرى الداهية الذى كان مدرسة قائمة بذاتها فى الوطنية، وبُعد النظر، باقيًا فى القلوب والعقول كأحد الرموز الوطنية الكبرى. ويكفيه أنه تمكّن من خداع الإسرائيليين، وعلى رأسهم مناحم بيجن، وأوهمه بالتطبيع إلى أن نال أرضى المقدّسة. وأثبتت الأيام أن ذلك المسمى بالتطبيع أكذوبة الأكاذيب، لقد فشل على المستوى الشعبى تمامًا، بل تعمّقت الكراهية لإسرائيل فى الشارع المصرى من خلال سياستها الدمويّة والتخريبية تجاه الفلسطينيين بصورة يوميّة.


مكتبة الإسكندرية

وبعد السادات، وصل إلى السلطة ابنى محمد حسنى مبارك، ذلك النسر الذى خطّط بدهاء مع مجموعة من أبنائى الأوفياء للضربة الجوّية فى ٦ أكتوبر ١٩٧٣م، والتى كانت بوّابة الانتصار.

سيذكر التاريخ لذلك الرجل أنه من كبار مشيّدى العمران. فلقد شهدت أرضى فى عهده حركة إنشائية غير مسبوقة، ومن أمثلتها مكتبة الإسكندرية الرائعة التى يفتخر العالم العربى بأسره بوجودها على أرضى الطاهرة، وكذلك استصلاح مئات الآلاف من



الرئيس محمد حسنى مبارك

الأفدنة، وإيصال مياه النيل إلى شبه جزيرة سيناء، فيما عرف بترعة السلام، وعمل كوبرى السلام الذى أنهى تمامًا عزلة تلك البقعة الغالية من أرضى.

وإذا ذكر محمد حسنى مبارك، ذكرت زوجته سوزان، تلك السيدة التى قدمت من صعيد مصر- المنيا- والتى تمتلك روحًا وثّابة وإرادة فولاذية. قامت برعاية المعاقين أو أصحاب الحالات الخاصة، وتبنت مهرجان القراءة للجميع، وهو مشروع غير مسبوق طبعت خلاله من الكتب الثقافية والعلمية على مدى عشر سنوات ٨٠ مليون نسخة، وأُمكن إيصال الكتاب إلى قطاعات كبيرة من أبنائى. كذلك يذكر لها تاريخى إقامة مستشفى السرطان للأطفال، وهى بمثابة صرح طبى ضخم بُنى من أجل مواجهة ذلك المرض الفتّاك اللعين.

فى عهد ابنى محمد حسنى مبارك، تم الاهتمام بصعيد مصر بصورة غير مسبوقة،

وصارت محافظة قنا- على سبيل المثال- على أرقى مستوى من النظافة والخدمات، بمقاييس عالمية وبشهادة خبراء أوربيين. كذلك يذكر له التاريخ اهتمامه بمحو أمّية قطاعات واسعة من أبنائى الأمّيين، ومن المقرّر أن يتمّ الإعلان عام ٢٠٠٦م، عن تخلّصى من ذلك الداء الذى استشرى فى جسدى لمئات السنين، وحرم الملايين من أبنائى من أبسط الحقوق الآدمية فى أن يقرأوا ويكتبوا مثل باقى البشر.

كذلك لن أنسى أن ذلك العهد شهد دعمًا غير مسبوق لقواتى المسلّحة؛ من أجل الدفاع عن أرضى أمام كلّ من تُسوّل له نفسه المساس بحبة رمل من ترابى المقدّس.

ومن المؤسف أن تلك الإنجازات أساء إليها فرار العديد من أصحاب المليارات بأموالهم التى سرقوها من عرق أبنائى بضمانات من البنوك، وكانت تلك كارثة بيّنت كيف أن بعض من ينتسبون إلىّ هم من الخائنين الذين سينالهم عقاب الدنيا والآخرة. ويكفى أن أبنائى جميعهم يحتقرونهم، ويصفونهم بأنهم لصوص حقراء وخونة جبناء، وستظلّ تلك الصفات تلاحق أبنائهم وبناتهم إلى آخر العمر، وكفاهم بذلك عارًا.

إن الطريق ما يزال أمامى طويلاً من أجل دعم الديمقراطيّة، وكرامة الإنسان المصرى الذى هو رأس مالى الحقيقى، غير أن المستقبل مشرق، ولم أفقد الأمل الأخضر المورق بأوراق الحب والجمال.

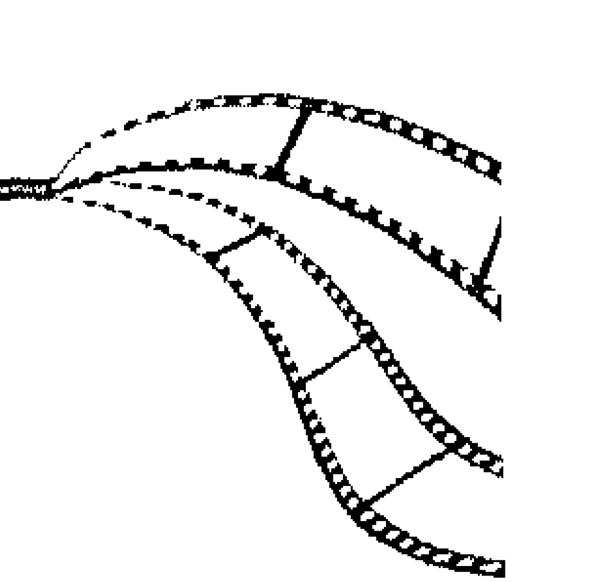
وخلال المرحلة المذكورة، أحداث عربية ودولية على جانب كبير من الأهميّة، أثرت على تاريخى المعاصر مثل غزو الطاغية العراقى صدّام حسين لأرض الكويت فى أغسطس ١٩٩٠م. وتلك كارثة كبرى، إذ كيف تقوم دولة عربية باحتلال دولة عربية أخرى؟! وقد شارك أبنائى فى تحرير الكويت من ذلك الاستعمار العربى غير المسبوق، والذى أخّر العرب سنوات وإلى الوراء.

وفيما بعد، فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١م، حدثت أحداث عنيفة فى نيويورك عندما تم تدمير المركز الدولى للتجارة، ووزارة الدفاع الأمريكية (البنتاجون)، وهى أحداث لم

ولا ولن تعرف حقيقتها بصورة جليّة إلا فى الوقت المناسب، وأُلصقت الاتهامات بأبناء الإسلام، على الرغم من أنه دين متسامح، مع كافة الأمم والأعراق والأديان الأخرى. والأرجح أن المخابرات المركزية الأمريكية لها ضلع فى تلك التمثيلية من أجل أن تمتطى الولايات المتحدة الأمريكية جواد مقاومة الإرهاب، وتصل إلى منابع النفط فى العراق، وكذلك فى وسط آسيا عند أفغانستان بالقرب من بحر قزوين.

إنّ الغرب دون ماشك ـهو المسئول الحقيقى عن كراهية المسلمين له من خلال دعمه الغير مسبوق لدويلة إسرائيل، التى تنكل بالفلسطينيين ليلاً ونهارًا. وأودّ أن أُقدّم للقرّاء فى كل مكان شهادة حقّ قالها أحد الباحثين الأمريكيين فى شخص "إيفان ولسون" فى دراسة تم نشرها فى مجلّة الجمعية الأمريكية للعلوم السياسية فى عدد مايو ١٩٧٢م، بعنوان: "الاهتمام الأمريكى بالقضيّة الفلسطينية، وإقامة دولة إسرائيل" حيث أورد ما نصّه: "إن سجل سياستنا تجاه فلسطين سجلّ مؤسف؛ لأنّ التخبّط فى تلك السياسة أحبط أصدقاءنا، وأدّى إلى الصدام بين الأطراف المعنيّة، وقد فشلنا فى تسوية المشكلة أو منع الاقتتال الذى ينشب من حين لآخر.." ولا شكّ أن تأييدنا لقيام الدولة اليهودية على حساب أغلبية الشعب العربى فى فلسطين، كان خطًا جسيمًا له نتائجه المدمّرة بالنسبة لعلاقاتنا بالعرب ومصالحنا بالمنطقة، قد ربطنا أنفسنا– فى أذهان العرب– بالعناصر الإمبريالية الاستعمارية التى ناضلوا ضدّها منذ الحرب العالمية الأولى، وأوقعنا تحيّزنا لإسرائيل ودعمها بالمعونات، فى تناقض كبير بين ما نقول وما نفعل، وبذلك لا يمكننا إقناع العرب بأننا نقف من الصراع موقفًا متوازنًا".

وتلك شهادة حقّ قالها باحث أمريكى رأى من إيرادها إخفاقًا لرأى يتغافل عنه الكثيرون فى الولايات المتحدة الأمريكية وخارجها من خلال التأثّر بوسائل الإعلام العالمية التى يسيطر عليها اليهود، وتشكّل عقول الأمريكيين والأوربيين، وتؤثر على صانعى القرار الغربى على نحو متعصّب يضرّ بحقوق العرب العادلة فى حياة كريمة بعيدًا عن الاستعمار الغربى، وفى طليعته دويلة إسرائيل.



- ١٣ -

فى تاريخى الحديث كوكبة من أهل الأدب والعلم والفن، ما زلت أتذكّرهم كلّ لحظة، وأستشعر أنهم ارتووا من ماء النيل، فصارت قرائحهم، وحناجرهم عاشقة لى العشق الذى لا عشق بعده، ولذا حرصت فى هذا الكتاب أن أذكر بعضًا منهم حتى يدرك القراء أن أمّهم مصر ينبض قلبها بالحبّ لهم، وأنها ما نسيتهم البتّة، وهل يعقل أن تنسى الأم الحانية الرءوم النبيلة الصادقة فلذات أكبادها الذين جاد بهم الزمان عليها فى طوفان من العطاء العبقرى نادر النظير والمثال؟!!.

وأول من أذكره: الأديب والناقد والشاعر والسياسى عبّاس محمود العقّاد، الذى ولد فى أسوان، ساحرتى الجنوبية، فى يونيو ١٨٨٩م، وبدأ حياته الأدبية فى سنّ صغيرة، وبالتحديد فى التاسعة، ويقال إنه بدأ كتاباته الصحفية ومقالاته الأدبية، والسياسية، وهو فى السادسة عشرة من العمر. وقد أخلص لقلمه إخلاصًا فريدًا فألّف ما زاد على المائة كتاب، ومن مؤلفاته: الله، إبراهيم أبو الأنبياء، عبقرية الصدّيق، عبقرية عمر، عبقرية خالد، عبقرية الإمام على، عبقرية المسيح، أبو الشهداء الحسين بن على، دين دفن وسياسة رجال عرفتهم، أنا، التفكير فريضة إسلامية، ابليس، الإسلام دعوة عالمية، سعد زغلول، جحا الضاحك المضحك، أثر العرب فى الحضارة

عبّاس محمود العقّاد

الأوربية، الصدّيقة بنت الصدّيق، رجعة أبى العلاء، الإسلام فى القرن العشرين، مذهب ذوى العاهات، الصهيونية العالمية، خواطر فى الفنّ والقصّة، ساعات بين الكتب، حياة قلم، سارة، الثقافة العربية، الفلسفة القرآنية، الديمقراطية فى الإسلام، لا شيوعية ولا استعمار، عبد الرحمن الكواكبى، روح عظيم: المهاتما غاندى، هتلر فى الميزان، اليد القوية فى مصر، النازية والأديان، عبقرى الإصلاح والتعليم الإمام محمد عبده، داعى السماء بلال، فاطمة الزهراء والفاطميّون، عمرو بن العاص، حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، المرأة فى القرآن، الإنسان فى القرآن، الشيوعية والإنسانية، الحكم المطلق، الديمقراطية فى الإسلام والفلسفة القرآنية.. وغيرها.

آمن العقّاد بالحرّية والديمقراطية، وهكذا نجده قد دفع ثمنًا لذلك، ففى عام ١٩٣٠م، وكان عضوًا بمجلس النواب، قال كلمته الشهيرة فى تاريخ مصر... "إن الأمة على استعداد لأن تسحق أكبر رأس فى البلاد يخون الدستور ولا يصونه"، وقدّم للمحاكمة بسبب العيب فى الذات الملكية!! وسُجن لمدة تسعة أشهر، وقد نظم بعد الإفراج عنه قصيدة قال فيها:

وكنت جنين السجن تسعة أشهر

فهأنذا فى ساحة الخلد أولد

ففى كل يوم يولد المرء ذو الحجى

وفى كل يوم ذو الجهالة يلحد

عداتى وصحبى لا اختلاف عليهما

سيوهدنى كل كما كان يوهد

لقد مرّ ذلك الأديب والمفكّر بتجربة عاطفية لم تكلل بالنجاح، أوردها فى روايته ـ أوقصته الطويلة ـ الوحيدة "سارة"، وظل ناقمًا على بنات حواء طيلة حياته.

توفّى ابنى العبقرى الذى قدم من صعيد مصر، عباس محمود العقاد، فى عام ١٩٦٤م، ومن أبياته قوله:

سَتَغْرُبُ شَمْسُ هَذَا العُمْرِ يَوْمًا

وَيُغْمِضُ نَاظِرِى لَيلُ الحِمَامِ

فَهَل يَسْرِى إلَى قَبْرِى خَيَالٌ

مِنَ الدنْيَا بِأَنْبَاءِ الأَنَامِ؟

خَلعْتُ اسْمِى عَلَى الدنْيَا وَرَسْمِى

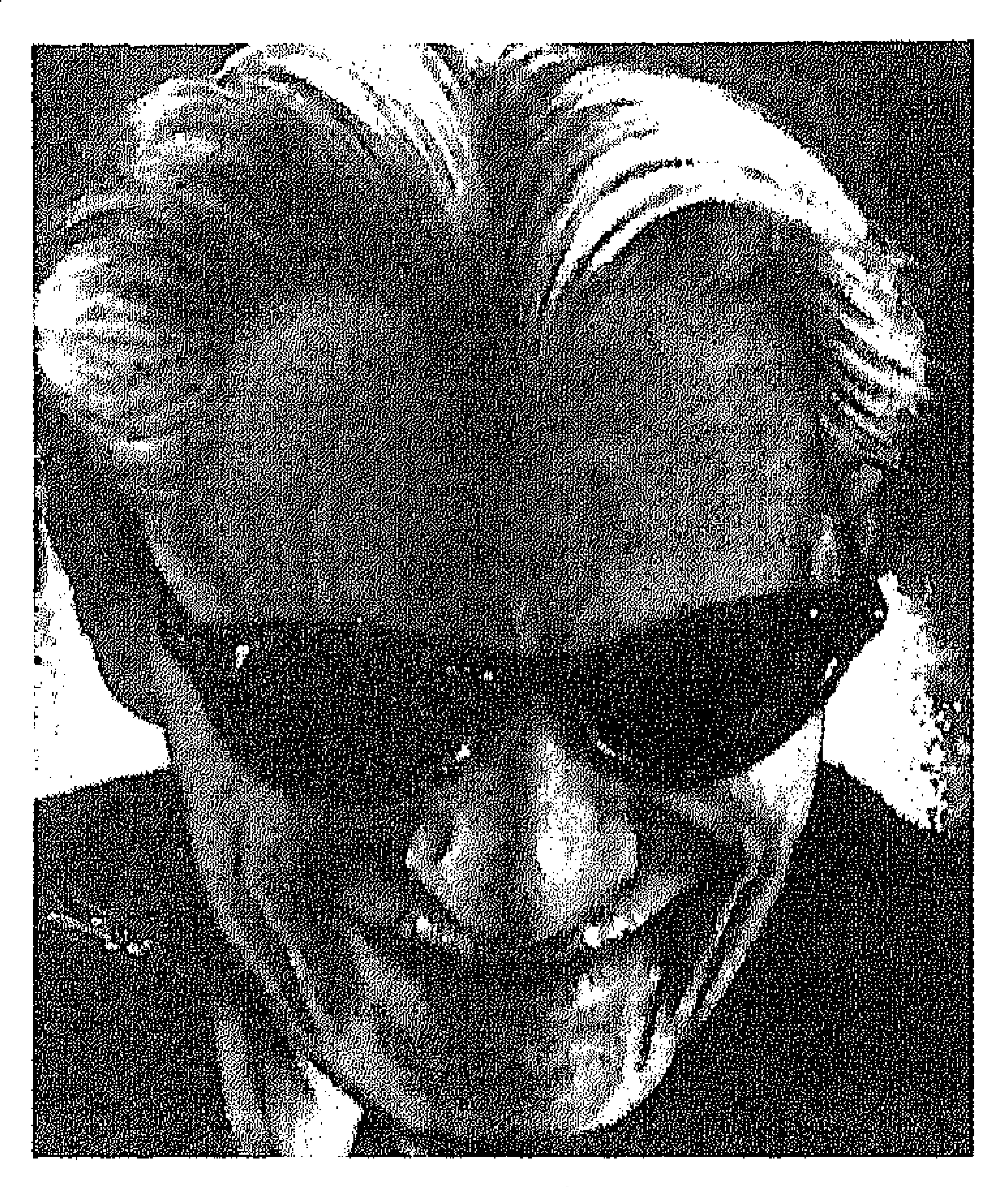
فَمَا أَبكِى رَحِيلِى أَوْ مُقَامِ

رحل العقّاد جسدًا، غير أن روحه المتألّقة، وموسوعيّته التى جعلته يؤلف فى العديد من الموضوعات باقتدار جدير به، أثبتت لأبنائى أنه كالجامعة، على الرغم من حصوله على الشهادة الابتدائية فقط، ولكن امتلاكه لعقلية جبّارة جعلته يتحدّى كل شىء ليصبح عملاق الأدب العربى.

تلك سطور قليلة أخطّها أنا مصر الأم، عبقرية الرحم التى أنجبت ابن أسوان الفذّ العقاد، وما العجب فى ذلك؟! فالأم الولود أنجبت عبقريًا لا يزال بعد عقود عديدة ملء الأسماع والعقول والقلوب.

أما الابن الثانى، فجاء أيضًا من الصعيد، وهو طه حسين، ذلك الكفيف الذى أضاء بالعلم ملايين العقول!، وقد ولد فى عزبة الكيلو التابعة لمغاغة بمحافظة المنيا فى ١٤ نوفمبر عام ١٨٨٩م، وقد فقد بصره وهو فى سنّ صغيرة من جراء الجهل المستشرى حينذاك فى ربوعى. وفيما بعد، التحق بالأزهر ثم وسافر إلى فرنسا، للحصول على الدكتوراه

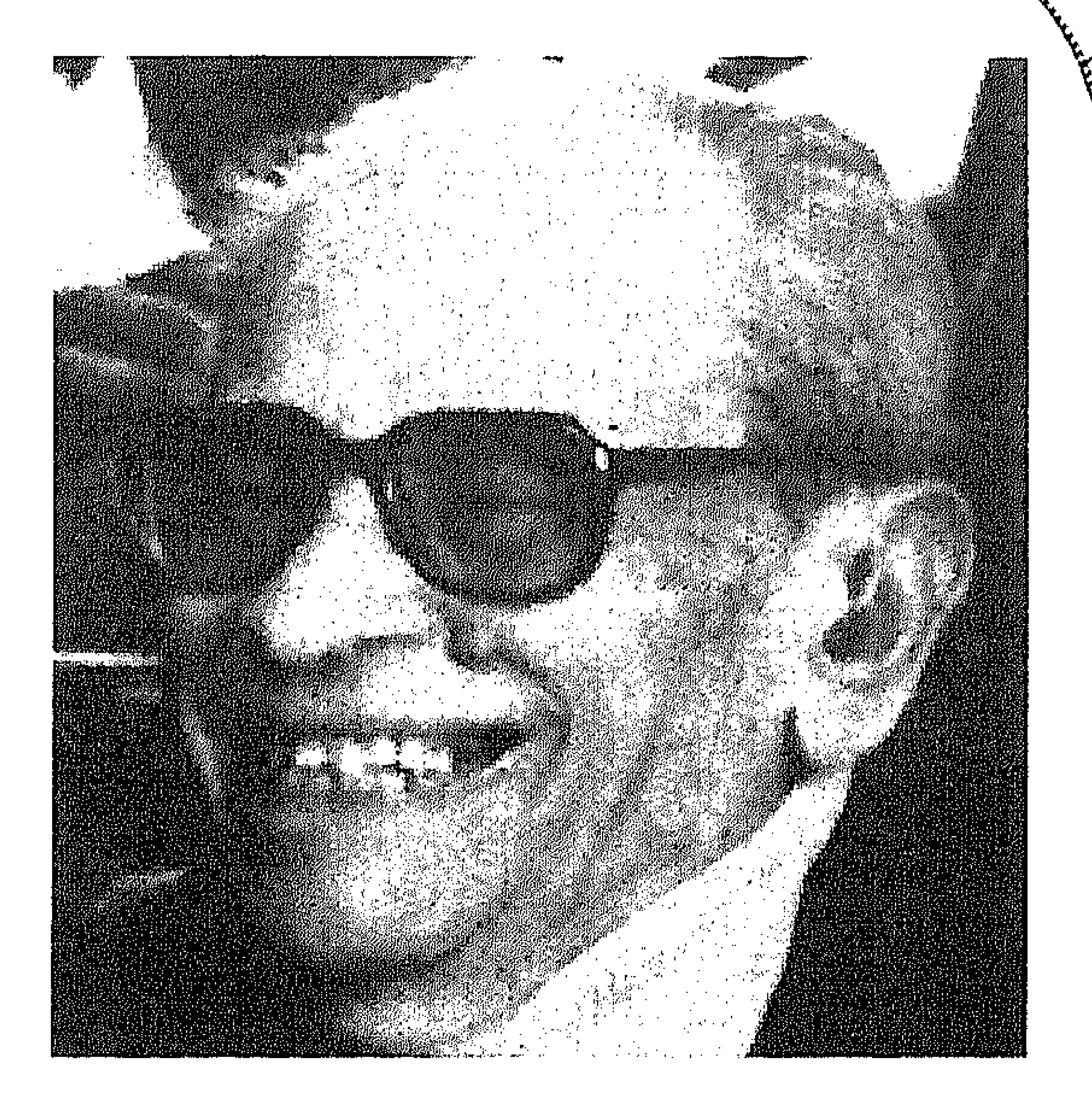
عام ١٩١٤م، فحصل عليها عام ١٩١٨م وكانت عن ابن خلدون، وفيما بعد صار أستاذًا لتاريخ الأدب العربى بكلية الآداب جامعة القاهرة، وعيّن وزيرًا للمعارف عام ١٩٥٠م، واشترط لدخول الوزارة "أن يكون العلم كالماء والهواء ينبغى أن ينال منه الجميع حقوقهم".


طه حسين

وقد ألّف ذلك العبقرى الكفيف العديد من المؤلفات أذكر منها: آلهة اليونان، قادة الفكر، حديث الأربعاء، فى الشعر الجاهلى، الأيام (طبع أكثر من ٥٠ طبعة، وترجم الى العديد من لغات العالم)، حافظ وشوقى، على هامش السيرة، الشيخان، من أدبنا المعاصر، مرآة الإسلام، خصام ونقد، الوعد الحقّ، أوديب، دعاء الكروان، ألوان أو الحياة الأدبية فى جزيرة العرب، المعذّبون فى الأرض، الفتنة الكبرى، صوت أبى العلاء، فصول فى الأدب والنقد، شجرة البؤس، الوعد الحقّ، أحلام شهرزاد، صوت باريس، لحظات، مستقبل الثقافة فى مصر، الحب الضائع، مع المتنبّى، القصر المسحور ومن حديث الشعر والنثر.

وقد رحل عنى ابنى الفذّ طه حسين يوم ٢٨ أكتوبر ١٩٧٣م، وكأنّ الموت أبى إلا أن يقبض روحه بإذن الله تعالى وأنا منتصرة على أبناء نجمة داود الدمويّة، وبعد أن عبر أبنائى الأبطال قناة السويس ليمحوا إلى الأبد عار ٥ يونيو ١٩٦٧م.

لقد رحل طه حسين الكفيف صاحب البصيرة، وما زال ذلك العبقرى الذى قدم من المنيا، وسيظل ملء العقول والقلوب والأسماع، تمامًا مثل عبقرى أسوان عبّاس محمود العقّاد.


نجيب محفوظ

أما الشخصية الثالثة فتتمثّل فى الأديب القصّاص والروائى نجيب محفوظ. وهو من عشّاقى القلائل الذين تشرّبوا بعشقى، وانعكس ذلك على معالجاته بصورة أو بأخرى. وقد ولد بالقاهرة فى حىّ الجمّالية بالقاهرة فى ديسمبر ١٩١١م، وتخرّج فى قسم الفلسفة بكلية الآداب جامعة القاهرة عام ١٩٣٤م، وقام بكتابة العديد من القصص قبل أن يحقق الشهرة التى نالها بجدارة، وبلغت القمّة بحصوله على جائزة نوبل فى الآداب عام ١٩٨٨م، التى تشرّفت به، فكان أول أديب عربى يحصل عليها.

ألّف نجيب محفوظ العديد من الروايات الطويلة، ومجموعات القصص القصيرة، أذكر منها لأبنائى: رادوبيس، كفاح طيبة، عبث الأقدار، حضرة المحترم، بين القصرين، قصر الشوق، السكّرية، بداية ونهاية، حكاية بلا بداية أو نهاية، اللص والكلاب، ميرامار، المرايا، الشحّات، زقاق المدقّ، خمّارة القطّ الأسود وأصداء السيرة الذاتية.

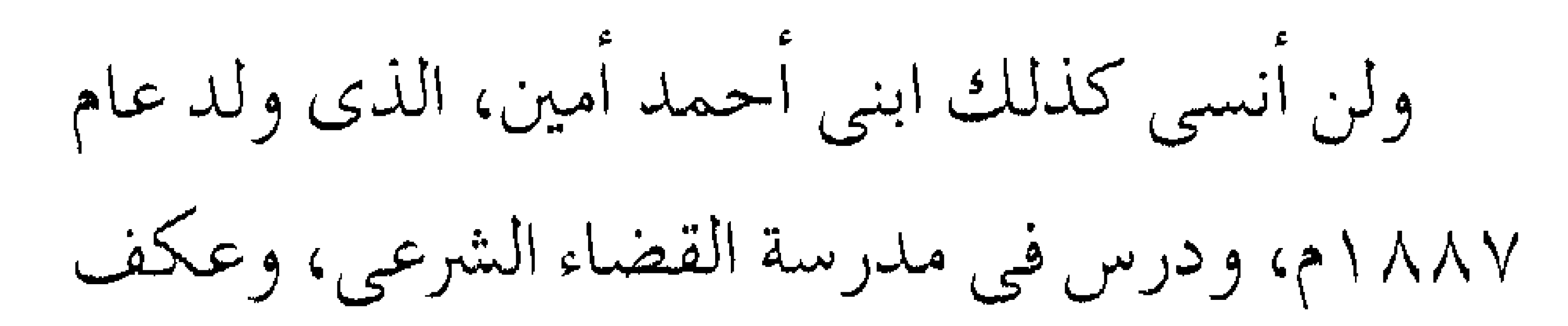
ولا ريب فى أن ثلاثيته (قصر الشوق– بين القصرين– السكّرية) تعد تاريخًا لمصر الحديثة من خلال الكتابة الأدبية. ومما يذكر أن الناقد الراحل الأستاذ سيّد قطب توقّع له مستقبلاً باهرًا فى عالم الرواية، وأثبتت الأيام صدق ما توقع ذلك الناقد الكبير الذى كان بعيد النظر.

وفى صباح الأربعاء ٣٠ أغسطس من عام ٢٠٠٦، لكى المصريون والعرب، والعالم أيضًا، أديبنا الكبير، الروائى الخالد نجيب محفوظ. وما زلت مهمومة باكتشاف أعلام وأفذاذ

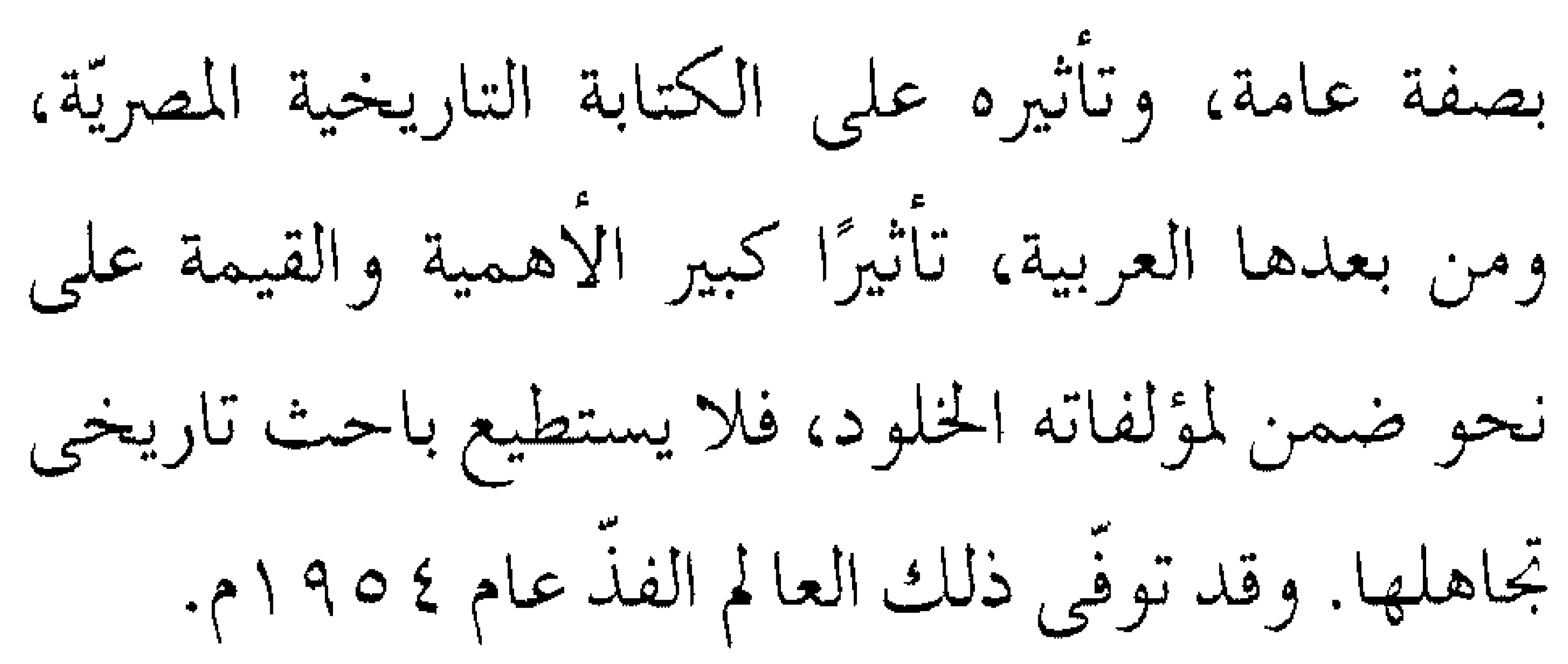
آخرين من أمثال ذلك الأديب الفذّ. وأخشى أن يأتى اليوم الذى لا أجد فيه من أمثاله إلا القلّة القليلة و الندرة النادرة. ومع ذلك، فإن اليأس لا يتطرّق البتّة إلى قلبى، بل يسكنه دومًا الأمل الأخضر المورق إلى درجة الثقة بأن من أبنائى من سيرث الإبداع، ويرفع رأسى عالية إلى عنان السماء، فما عقم رحمى الولود يومًا.



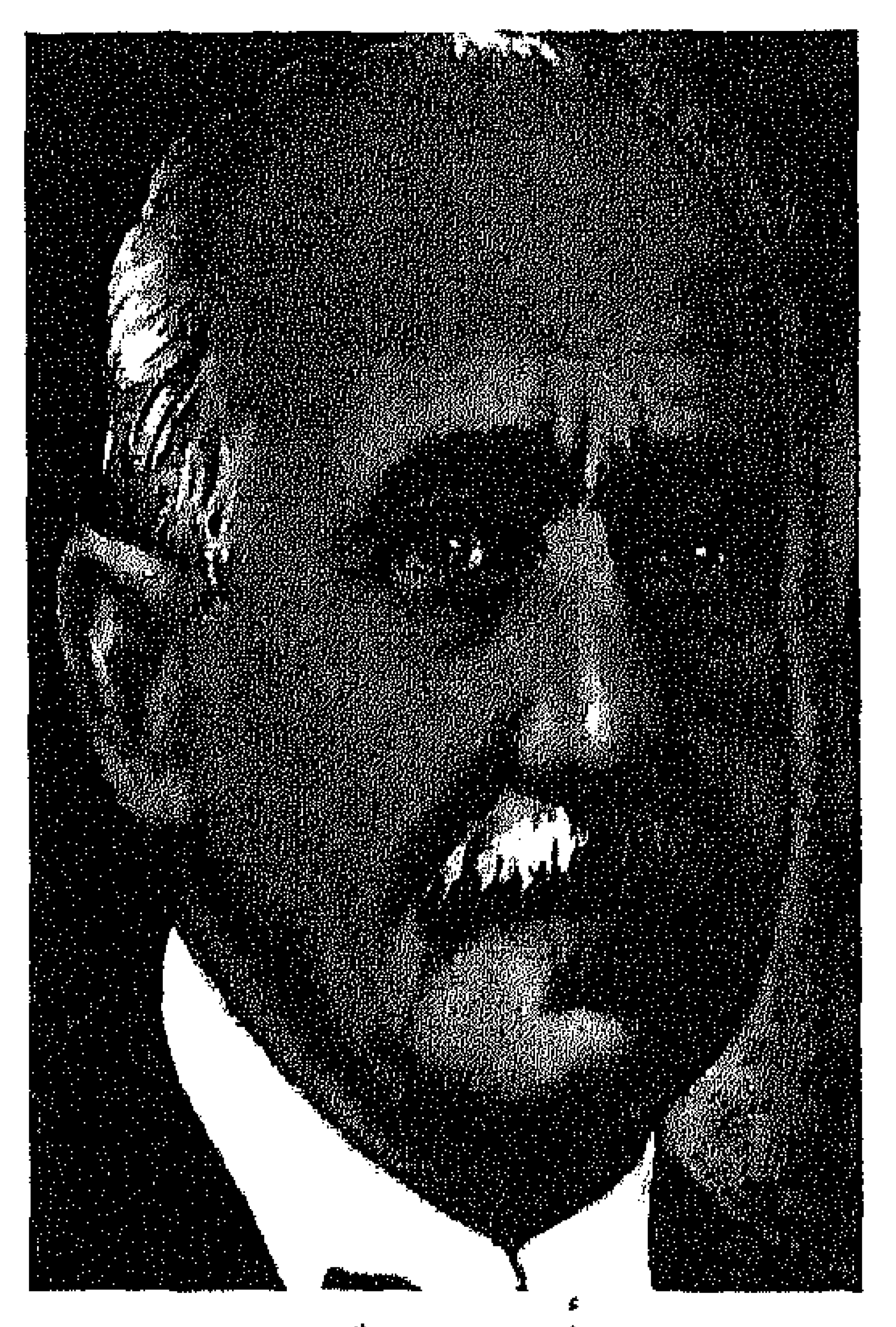
أحمد أمين



ولن أنسى كذلك ابنى أحمد أمين، الذى ولد عام ١٨٨٧م، ودرس فى مدرسة القضاء الشرعى، وعكف فيما بعد على تأليف العديد من المؤلفات القيمة العميقة مثل: فجر الإسلام وضحى الإسلام وظهر الإسلام. وقد اتفق العديد من كبار المفكّرين المصريين على القيمة الكبرى لذلك العمل الفذّ، لا سيما فيما اتصل بتأريخه للحياة الفكرية عند المسلمين فى العصور الوسطى. ومما يذكر عن أحمد أمين أنه كان عميدًا لكليّة الآداب جامعة القاهرة، كذلك رأس تحرير مجلة الثقافة التى وصفها سامى خشبة بأنها كانت توأم لمجلة الرسالة ومنافستها. وبصفة عامة، يُعتبر أحمد أمين أحد أعلام المفكّرين المصريين فى القرن العشرين، ويعدّ تأثيره الفكرى



بصفة عامة، وتأثيره على الكتابة التاريخية المصريّة، ومن بعدها العربية، تأثيرًا كبير الأهمية والقيمة على نحو ضمن لمؤلفاته الخلود، فلا يستطيع باحث تاريخى تجاهلها. وقد توفّى ذلك العالم الفذّ عام ١٩٥٤م.



أحمد شوقى

أما أمير الشعراء أحمد شوقى، فلى معه وقفة مهمة، فقد ولد ذلك الشاعر الذى عشقنى عام ١٨٧٠م، بحى الحنفى الشعبى العريق بالقاهرة، واختلطت فى عروقه الدماء العربية والشركسية والتركيّة، وفيما بعد صار

شاعرًا بارزًا، ومُنح لقب أميرالشعراء، وما زال للشعر أميرا دون منازع، مع توالى العقود والأعوام، وقد ألّف العديد من المسرحيات الشعرية مثل: مصرع كليوباترا ومجنون ليلى وعلى بك الكبير وقمبيز وفتح مصر وعنترة والست هدى.

لقد شكّك البعض فى وطنية شاعرى الذى كان لى من العاشقين، وأردّ على ذلك بأنه بعد أن نفاه الإنجليز إلى إسبانيا، عاد شاعرًا للشعب، تجرى فى عروقه دماء عشقى المتجدّد، ومن أبياته الخالدة:

فيا وطنى لقيتك بعد يأس

كأنّى قد لقيت بك الشبابا

ولو أنى دعيت لكنت دينى

أخاطب به الحتم المجابا

كذلك قوله:

وطنى لو شُغلت بالخلد عنه

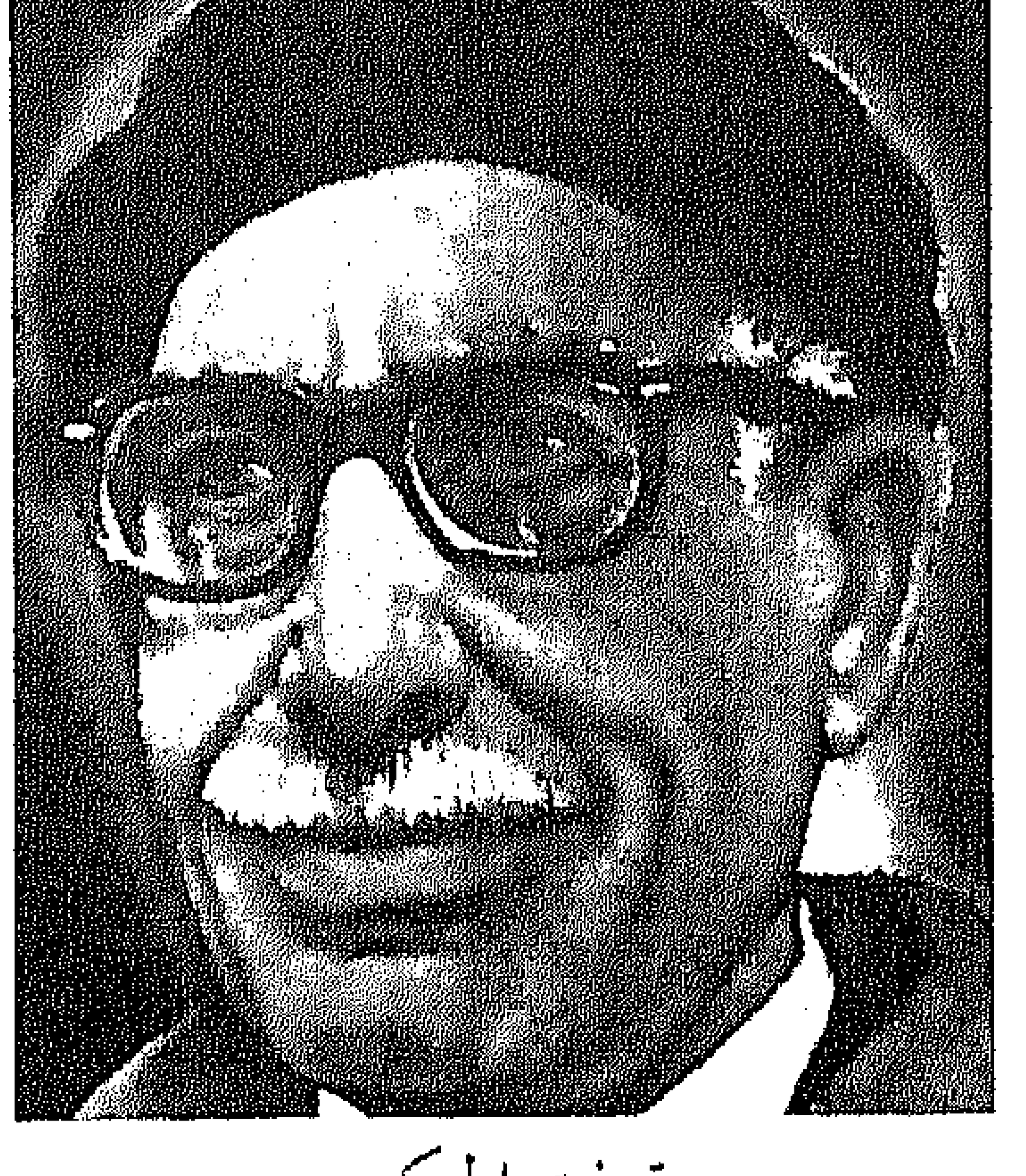
نازعتنى اليه فى الخلد نفسى

وهى أبيات شعرية لا يتأتّى بها إلا من كان يسكر بخمر عشقى الفريد المتصوّف.

ولشاعرى العبقرى ديوان فى عدة أجزاء عرف باسم "الشوقيّات"، وقد توفى عام ١٩٣٢م، وحزن على وفاته كلّ مصرى عشق أشعاره.

يبقى أن أذكر عن ذلك الشاعر الملهم اكتشافه لموسيقار الأجيال محمد عبد الوهّاب، الذى كان خير هديّة قدّمها أمير الشعراء لى، وقد كتب له عدة أغنيات شدى بها بالعامية المصرية، ولا ريب أن شاعرنا أدرك أنه صاحب موهبة فنّية موسيقية كبرى، فعمل على

تبنّيه.



رحل ابنى وعاشقى أحمد شوقى، غير أن أشعاره ما تزال فى ذاكرتى باقية، ولن تموت، إنه أمير الشعراء، بل ملكهم، وتتوالى العقود، وما غادر الإمارة يومًا، وما غادرته ساعةً، إنها إمارة شعريّة متجددة! وتلك - بحقّ- عبقرية أبنائى.

ولن أنسى ابنى كذلك توفيق الحكيم الفنان الأديب الذى أرسى قواعد المسرح العربى، وقد ولد بالإسكندرية، عروس البحر المتوسّط، الساحرة، الرائعة، الجميلة، المتدلّلة عام ١٨٩٨م، وألّف العديد من الأعمال الأدبية التى منها ما ترجم إلى اللغات الأوربية مثل عودة الروح، والتى كان لها تأثيرها البالغ على ابنى الفذّ جمال عبد الناصر، وكذلك السلطان الحائر وبنك القلق وزهرة العمر وبراكسا ويوميات نائب فى الأرياف وعصفور من الشرق وأهل الكهف وعودة الوعى ومحمد، وليلة الزفاف وشهرزاد، وسليمان الحكيم وإيزيس والصفقة ووثائق فى طريق عودة الوعى وفى الوقت الضائع وغيرها من المؤلفات الأدبية والسياسية المتعددة والقيّمة.

توفيق الحكيم



إن توفيق الحكيم كان لى من العاشقين، ولا يستطيع مثقّف حقيقى صادق أن يتجنّبه عندما يقرأ للأعلام من الأدباء الذين خرجوا من رحمى العبقرى المتجدّد.

جمال حمدان

وهناك أيضًا جمال حمدان، الجغرافى الفذّ، الذى ولد بمحافظة القليوبية عام ١٩٢٨م، وكان عاشقًا من كبار عشّاقى. جرى النيل فى دمائه، وألّف العديد من المؤلفات مثل: شخصيّة مصر دراسة فى عبقرية المكان، ووقع فى أربعة

أجزاء، ويعدّ مشروع عمره الفريد، واستطاع من خلاله إخراج علم الجغرافيا من قاعات التدريس بالجامعات إلى المصرى المثقف الذى يسعى إلى التزوّد من منابع الثقافة والمعرفة. وكذلك ألّف مؤلفات أخرى مثل العالم الإسلامى المعاصر، ٦ أكتوبر فى الاستراتيجية العالمية، بين أوربا وآسيا: نظائر جغرافية؛ اليهود أنثربولوجيًا، استراتيجية الاستعمار والتحرير وأنماط من البيئات.

لقد أجاد ذلك العالم البارز من اللغات أربع، وامتاز بفكر تحليلى شمولى على أرقى مستوى، وحصل على العديد من الجوائز مثل جائزة الدولة التقديرية عام ١٩٨٥م، كذلك نال جائزة التقدّم العلمى من الكويت. وقد توفى ابنى البار عام ١٩٩٥م فى ظروف غامضة. وتردد أن الموساد (جهاز المخابرات الإسرائيلية) قام باغتياله، خاصة مع اختفاء دراسات عن اليهود من مكتبته، كانت جاهزة للنشر، مما أثار علامات استفهام عديدة على تلك النهاية.


محمد شفيق غربال

بوركت ياجمال حمدان حيًا وميتًا! وما زالت ذكراه منتعشة فى العقول والقلوب، ولن ينساه أى مصرى أصيل نهل من منابع الثقافة المصرية، وما أكثرها وأغناها!!!

أيضًا هناك ابنى الفذّ محمد شفيق غربال المؤرخ القديرالذى ولد فى عام ١٨٩٤م، وفيما بعد سافر إلى انجلترا ليحصل على الماجستير بإشراف المؤرخ البريطانى الذائع الصيت أرنولد توينبى، صاحب نظرية التحدى والاستجابة. وقد ألّف عدة مؤلفات أذكر منها: تكوين مصر عبر العصور.

ساهم غربال فى تكوين مدرسة التاريخ المصرى الحديث، بالاشتراك مع الأستاذ الدكتور أحمد عزّت عبد الكريم، الرائد الكبير الذى انتسب إلى جامعة عين شمس.


عبد الرزاق السنهورى

وأودّ أن أذكر القارئ هنا أن محمد شفيق غربال عندما مات عام ١٩٦١م، زار مصر لتأبينه أرنولد توينبى، فقال مقولته الرائعة: "لقد جاء تلميذى كى يتعلّم منى فتعلّمت منه". فكانت شهادة حق دالة على عبقرية ذلك المصرى الفذّ الذى كان لى من العاشقين.

وهناك القانونى العظيم عبد الرزاق السنهورى الذى ولد عام ١٨٩٥م، وكان عقلية قانونية رائدة، ودرس فى فرنسا، وشهد له أساتذته ببراعته القانونية، وشارك فى إعداد دساتير لدول عربية متعدّدة، بلغت (١٠) دول، وألّف موسوعته القانونية الرائعة: الموجز والمفصّل والوسيط، فى شرح القانون المدنى، وما زالت تلك الموسوعة مرجعا أساسيا لدارسى القانون.


الدكتور شوقى ضيف

وأودّ هنا الإقرار بأن ابنى البار جمال عبد الناصر سلّمه جائزة الدولة التقديرية عام ١٩٧٠م، وكذلك وسام الجمهورية، فكان أصدق تكريم.

ولا أغفل هنا أحد أعلام الفكر ممن أعتزّ بإنجابهم وهو الدكتور شوقى ضيف الذى ولد فى قرية أولاد حمام التابعة لمحافظة دمياط عام ١٩١٠م، وتلقّى تعليمه الدينى من خلال الأزهر، ثم التحق بكليّة دار العلوم، حِصْن لغة الضاد الحصين على أرضى، أرض الكنانة، وقد حصل على الليسانس من قسم اللغة العربية عام ١٩٣٥م، وعيّن معيدًا بها

فى العام التالى أى عام ١٩٣٦م، وكان موضوع أطروحته للماجستير: النقد الأدبى فى كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى، أما موضوع الدكتوراه فهو: وضع المذاهب الفنّية للشعر العربى على مرّ عصوره المختلفة.

لقد عمل ذلك العالم البارز فى العديد من الجامعات العربية فى الكويت وبغداد وبيروت العربية. وقد ألّف عشرات المؤلفات التى تناولت العديد من الموضوعات فى مجال تاريخ الأدب العربى، حتى صار صاحب أهمّ موسوعة فى ذلك النطاق.

كذلك يلاحظ أن ذلك العلاّمة اختير عضوًا بمجمع اللغة العربية عام ١٩٧٦م، ثم أمينًا عامًا له عام ١٩٨٨م، ثم صار نائبًا لرئيس المجمع عام ١٩٩٢م، ثم رئيسًا له عام ١٩٩٦م، وقد توفّى عام ٢٠٠٥م.


عبد الرحمن بدوى

ولا يمكننا أن نغفل ذكر الفيلسوف الذائع الصيت راهب الفكر: عبد الرحمن بدوى، ابن جامعة عين شمس، الذى ولد فى ٤ فبراير عام ١٩١٧م، بقرية شرباص التابعة لمحافظة دمياط، ويلاحظ تفوّقه العلمى منذ حداثة عمره. ومما يذكر عنه إجادته للعديد من اللغات مثل الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية. وفى عام ١٩٤١م حصل على الماجستير فى موضوع الموت الوجودى، وبعد ذلك بثلاث سنوات أى عام ١٩٤٤م، نال الدكتوراه فى موضوع الزمان الوجودى، ويومها وصفه عميد الأدب العربى صاحب البصيرة طه حسين بأنه "أول فيلسوف مصرى".

لقد زادت مؤلّفات ذلك المفكّر البارز عن مائة كتاب. وقد كرّمته باعتباره من أفذاذ أبنائى، فحصل على جائزة الدولة التشجيعية عام ١٩٦١م، كذلك منح جائزة مبارك للعلوم الاجتماعية عام ١٩٩٩م.

كما أود أيضًا التحدث عن أحد المؤرخين الذين أنجبتهم فى صورة أ. د. إبراهيم

نصحى قاسم، أستاذ التاريخ اليونانى والرومانى سابقًا بكلية الآداب جامعة عين شمس، والذى ولد أوائل القرن الماضى، وتوفى عام ٢٠٠٤م، رحمه الله تعالى رحمة واسعة، وقد حصل ابنى الفذّ الراحل على الليسانس من جامعة ليفربول بإنجلترا عام ١٩٣٢م، ثم دكتوراه الفلسفة فيما بعد من جامعة لندن عام ١٩٣٤م، وقد تدرّج فى المناصب الجامعية حتى حصل على منصب رئيس كرسى التاريخ اليونانى، والرومانى عام ١٩٤٦م، ثم صار عميدًا لكلية الآداب جامعة عين شمس خلال الأعوام من ١٩٥٠ إلى ١٩٥٤م، ويعدّ أول عميد لتلك الكلّية الرائدة.

لقد انتفعت العديد من الجامعات العربية والغربية بكفاءة ذلك المعلّم البارز، ومن أمثلتها جامعة بنى غازى بليبيا، وكذلك جامعة لندن، وجامعات الولايات المتحدة الأمريكية، ومما يذكر فى هذا الصدد أن الإنجليز انبهروا بالمحاضرة التى ألقاها أمامهم عن كليوباترا السابعة، آخر ملوك البطالسة فى مصر.

ولا نغفل أن مؤرخنا البارز أثرى المكتبة العربية بالعديد من المؤلفات الرائدة، ومن أمثلتها: تاريخ مصر فى عهد البطالمة (٤ أجزاء)، ثم تاريخ الرومان (جزءان)، بالإضافة إلى عشرات البحوث والمقالات بالعربية والإنجليزية، كذلك أشرف على عدد من الموسوعات، ومن أمثلتها الموسوعة العربية الميسّرة، ناهيك عن مساهمته فى مجال الترجمة من الإنجليزية إلى العربية.



عائشة عبد الرحمن

كذلك لن أنسى ابنة بارة وأديبة كبيرة هى عائشة عبد الرحمن أو بنت الشاطئ (١٩١٣- ١٩٩٨م)، التى ولدت فى دمياط عام ١٩١٣م، وشقّت طريقها العلمى بكفاح وصبر، بعد أن تزوّجت المفكّر الإسلامى المجدد أمين الخولى. وقد حصلت على الليسانس من قسم اللغة العربية- جامعة القاهرة- عام ١٩٣٩م، ثم نالت الماجستيرعام

١٩٤١م، وفيما بعد نالت الدكتوراه. وقد ألّفت أربعين كتابًا نذكر: منها: قضايا الفلاح المصرى، على الجسر، قراءة فى وثائق البهائية، تحقيق رسالة الغفران لأبى العلاء المعرّى والإعجاز البيانى للقرآن الكريم.

تلك الأديبة العالمة حصلت على تكريم من أمها مصر، فكانت أول سيدة تعيّن فى المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، وحصلت على وسام الكفاءة الفكريّة من الملك الحسن الثانى ملك المغرب الراحل، وجائزة الدولة التقديرية عام ١٩٧٨م، وجائزة الملك فيصل للآداب والدراسات الإسلامية عام ١٩٩٢م، وجائزة الكويت للتقدّم العلمى عام ١٩٨٨م.

والجدير بالذكر أن ابنتى قد فجعت فى وفاة زوجها وابنها وابنتها، وتلقّت كل تلك المآسى فى صبر وإيمان، وتوفاها خالقها عام ١٩٨٨م.

وهناك أيضًا عائشة التيمورية، الاديبة الشاعرة، ابنة إسماعيل باشا تيمور (١٨٤٠-١٩٠٢م)، وقد عمل والدها رئيسًا "للقلم الفرنجى" فى الديوان الخارجى فى عهد الخديو إسماعيل، وقد غدت شاعرة يشار إليها بالبنان، ووضعت عدة مؤلفات يمكن إجمالها فى الآتى:

- حلية الطراز، وهو ديوان شعر بالعربية.
- اشكوفه، وهو ديوان شعر بالفارسية.
- نتائج الأحوال فى الأقوال والأفعال.
- مرآة التأمل فى الأمور.
- اللقاء بعد الشتات، وهى رواية.



عائشة التيمورية

ومما يذكر أن تلك الشاعرة برعت فى العديد من فنون النّظم، ومن شعرها فى رثاء ابنتها:

إن سال من غرب العيون بحور

فالدهر باعٍ والزمان غدور

فلكل عين حق مدرار الدما

ولكل قلب لوعة وثبور

ستر السنا وتحجّبت شمس الضحى

وتغيّبت بعد الشروق بدور

ومضى الذى أهوى وجرعنى الأسى

وغدت بقلبى جذوة وسعير

يا ليته لما نوى عهد النوى

وافى العيون من الظلام نذير

ناهيك ما فعلت بماء حشاشتى

نار لها بين الضلوع زفير

لو بث حزنى فى الورى لم يلتفت

لمصاب قيس والمصاب كبير

طافت بشهر الصوم كاسات الردى

سحرًا وأكواب الدموع تدور

ذاك بعض شعرها على نحو يعكس كيف كانت ذات باع كبير فى الإبداع الأدبى.

ويبقى أن أقول إن العائلة التيمورية بصفة عامة من أصول تركية، إلا أننى أمصّر الجميع،

لهذا ذكرت عائشة التيمورية من بين أبنائى وبناتى المبدعين والمبدعات.

على أية حال، أصيبت الشاعرة المبدعة عام ١٨٩٨م بمرض فى المخ، منعت على أثره من مزاولة نشاطها الأدبى، واستمر المرض مصاحبًا لها حتى وافتها المنيّة عام ١٩٠٢م.

كما أود أن أذكر ملك حفنى ناصف (١٨٨٦- ١٩١٨م)، وهى ابنة أديب وقانونى هو حفنى ناصف، وتعدّ من رائدات العمل النسائى فى مصر، وطالبت بحق الفتاة فى التعليم شأنها فى ذلك شأن الفتى. كذلك طالبت بالتوسّع فى دراسة التمريض والطب للفتيات. ويلاحظ عنها تأليفها للشعر والنثر على حد السواء، إلا أن الجانب الأخير كان الأحفل والأوفى. ومن أشعارها:



ملك حفنى ناصف

هل تطلبون من الفتاة سفورها
حسن ولكن أين بينكم التقىّ
تخشى الفتاة حبائلا منصوبة
غشيتموها فى الكلام برونق
لا تتقى الفتيات كشف وجوهها
لكن فسادٌ لطبع منكم تتّقى



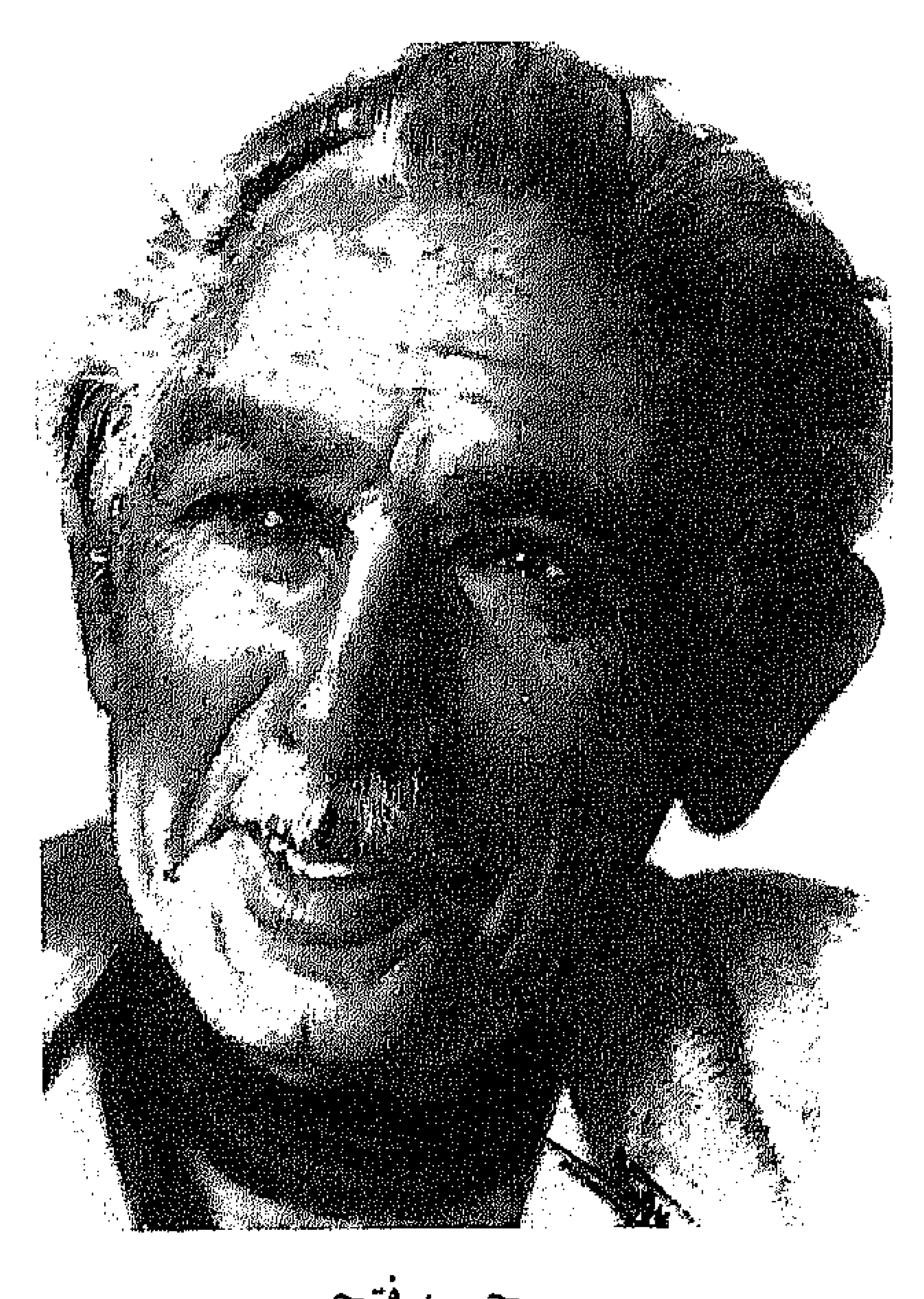
بيرم التونسى

ومن أبنائى الأفذاذ أيضًا بيرم التونسى، واسمه الحقيقى محمود محمد مصطفى بيرم، وقد ولد فى حى الأنفوشى بالإسكندرية عام ١٨٩٣م، وهو فى الأصل من تونس الخضراء، وقد توفى والده وهو صبى صغير فعمل بالتجارة، وتفتّحت فيما بعد موهبة الزجل لديه، ونتيجة لمواقفه الوطنية؛ تم نفيه

من مصر إلى تونس، غير أنه عاد إلى أرضى بعد قليل فى أعقاب ثورة ١٩١٩م، وبالتحديد عام ١٩٢٠م، وقد ألّف العديد من الأغنيات للموسيقار المبدع سيد درويش.

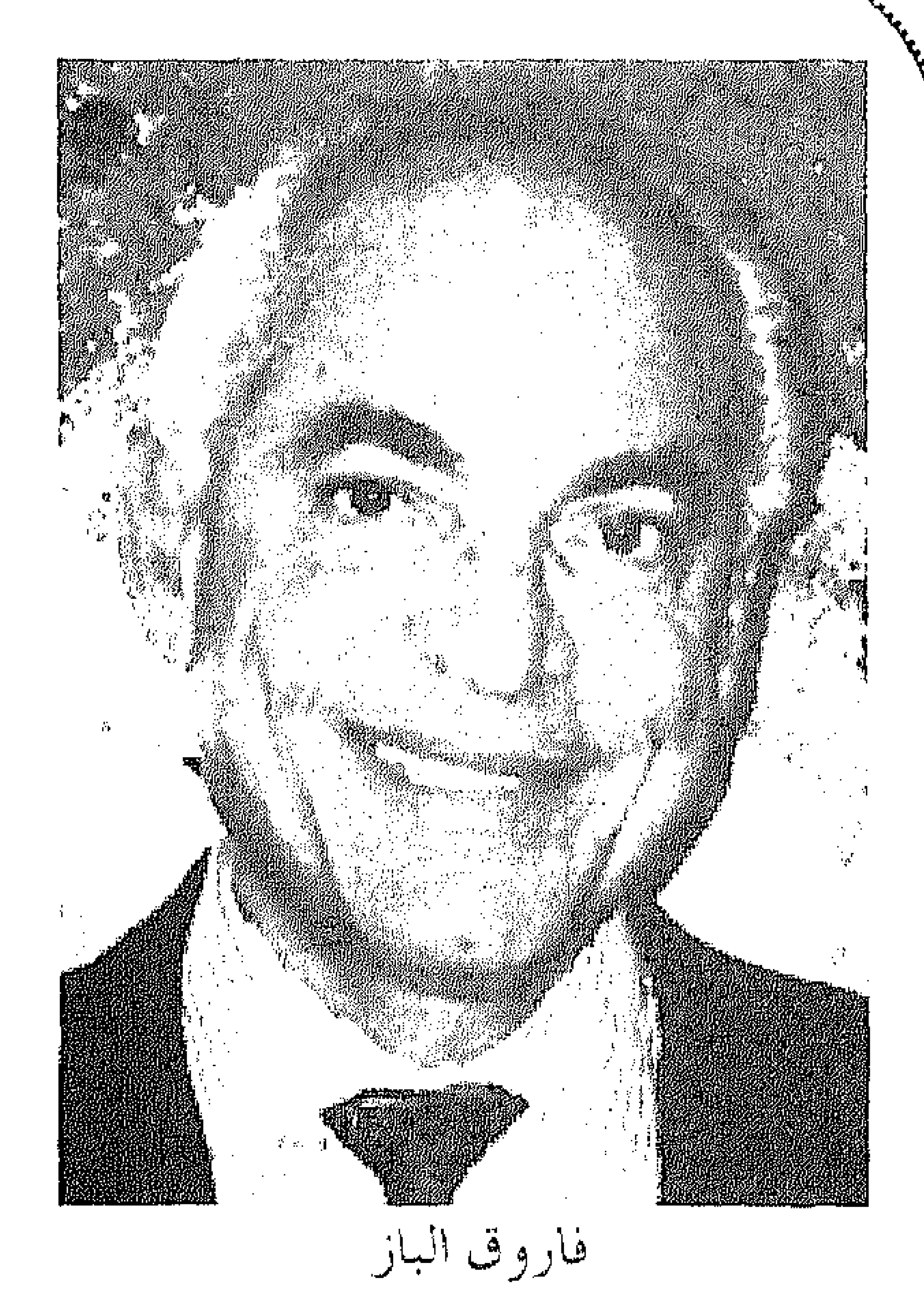
إن ذلك المبدع كان عاشقًا لترابى، ولم يكن يطيق الابتعاد عن أرضى، وكانت أيامه خارج حدودى هى الموت نفسه، وقد مُنح الجنسية المصرية عام ١٩٥٤م بفضل ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م. وقد قدّره كبار أعلامى، ومنهم أمير الشعراء أحمد شوقى، وشدت بأغانيه ابنتى الفذّة أم كلثوم، فصارت كلماته الرائعة تتردّد على كل لسان فى العالم العربى من المحيط إلى الخليج. يبقى أن أذكر أن ابنى بيرم التونسى مات عام ١٩٦١م.

ولن أنسى أحد كبار المهندسين من أبنائى، إنه حسن فتحى الذى ولد عام ١٩٠٠م، وقد تخرّج فى مدرسة المهندسخانة (وهى فيما بعد كليّة الهندسة) بجامعة القاهرة عام ١٩٢٥م، وصار معيدًا فى هيئة التدريس بمدرسة الفنون الجميلة، ثم سافر فيما بعد إلى فرنسا للحصول على الدكتوراه.


حسن فتحى

وفى عام ١٩٤٦م، تم انتدابه لكلية الآثار؛ من أجل تنفيذ قرية جديدة لسكان "القرنة" المواجهة لمدينة الأقصر؛ لإنقاذ ما تحت بيوت أهلها من مقابر من العصر الفرعونى، وقد وضع أول تصميم لتلك القرية، غير أن المشروع قد فشل ـ عمليًا لرفض الأهالى، ولصوص الآثار المدعومين من جانب تجار الآثار الأجانب، والمصريين فى القاهرة، للأسف الشديد.

ويُذكر لذلك المهندس المعمارى الكبير اهتمامه بعمارة الفقراء، فدخل التاريخ من أوسع أبوابه. وقد توفّى بعد حياة حافلة بالعطاء وصنوف التكريم عام ١٩٨٩م.


فاروق الباز

كذلك لا أنسى أحد الأفذاذ من أبنائى العلماء وهو الدكتور فاروق الباز، الذى ولد عام ١٩٣٨م، فى قرية طوخ الأقلام إحدى قرى مركز السنبلاوين بالدقهلية، وقد حصل على شهادة البكالوريوس (كيمياء- جيولوجيا) عام ١٩٥٨م، ونال شهادة الماجستير فى الجيولوجيا عام ١٩٦١م، من معهد علم المعادن بميسورى الأمريكية، كذلك حصل على الدكتوراه عام ١٩٦٤م، وتخصص فى مجال التكنولوجيا الاقتصادية، وقد شغل منصب مدير أبحاث الفضاء فى بوسطن بالولايات المتحدة الأمريكية، ويذكر عنه تأسيسه مركز دراسات الأرض والكواكب فى المتحف الوطنى للجو والفضاء بمعهد سميثونيان بواشطن.

لقد حصل ذلك العالم الفذّ على ٣١ جائزة منها: جائزة إنجاز أبوللو، الميدالية المميزة للعلوم، جائزة تدريب فريق العمل من وكالة الفضاء الأمريكية (ناسا)، جائزة فريق علم القمريات، جائزة فريق العمل فى مشروع أبوللو الأمريكى- السوفييتى.


أحمد زويل

ومما يُذكر عن ذلك العالم البارز أن رواد الفضاء الأمريكيين عندما هبطوا فوق سطح القمر عام ١٩٦٩م، اعترفوا بأن وصف ذلك العبقرى المصرى كان دقيقًا للغاية، وكأنه كان موجودًا هناك قبل قدومهم إليه!!

ولا أغفل عالم مصرى آخر هو أحمد زويل الذى ولد فى مدينة دمنهور عام ١٩٤٦م، وتلقى تعليمه بها ثم بمدينة دسوق، والتحق بكلية العلوم جامعة الإسكندرية عام ١٩٦٣م، وحصل على بكالوريوس العلوم قسم الكيمياء عام ١٩٦٧م، بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف، ثم حصل بعد ذلك على الماجستير من جامعة الإسكندرية. وفيما بعد سافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث حصل على الدكتوراه من جامعة بنسلفانيا عام ١٩٧٤م، وفى عام ١٩٧٦م، عمل فى كليّة كالتك كمساعد أستاذ للفيزياء الكيميائية، وقد كان عمره حينذاك ثلاثين عامًا فقط، وفى عام ١٩٨٢م، صار أستاذًا للكيمياء، وبعد ذلك بثمانية أعوام، أى عام ١٩٩٠م، حصل على منصب الأستاذ الأول للكيمياء فى معهد لينوس بولينج بالولايات المتحدة الأمريكية.

ومما يُذكر عن ذلك العَلَم المصرى أنه فى سن الثانية والخمسين فاز بجائزة بنيامين فرانكلين، بعد اكتشافه العلمى المعروف باسم "الفيمتو ثانية" Femto second، وهى أصغر وحدة زمنية من الثانية، وفى عام ١٩٩١م، تم ترشيحه للحصول على جائزة نوبل فى الكيمياء، وبذلك يكون أول عالم عربى مسلم يفوز بتلك الجائزة فى المجال المذكور.

أود أن أذكر هنا لأبنائى أن الإسرائيليين كانوا يستخفّون دائمًا بالعرب، ولكن عندما حصل ابنى العزيز بعد نجيب محفوظ، وأقصد زويل، على جائزة نوبل، أدركوا أن للعرب شأنًا عظيمًا، وتغيّرت لدى كثيرين من علمائهم الصورة الكاذبة التى صنعوها عن أمة العرب.


طلعت حرب

ولا أنسى أيضًا ابنى الفذّ طلعت حرب الذى ولد عام ١٨٦٧م، وآمن بقدرة أبنائى الأفذاذ على أن يدخلوا فى عالم الاقتصاد، ولذلك

أسس مجموعة شركات وطنية فى ظل الاحتلال البريطانى، وعلى رأسها بنك مصرعام ١٩٢٠م، برأسمال لا يتجاوز ٨٠,٠٠٠ جنيه- مع عدم إغفال القدرة الشرائية للجنيه المصرى حينذاك- وأنشأ بعد ذلك- كما قال سامى خشبة فى كتابه القيّم "مفكّرون من مصر"- عدة شركات كالآتى: الصباغة عام ١٩٢٢م، الحلج عام ١٩٢٤م، النقل والملاحة عام ١٩٢٥م، التمثيل والسينما عام ١٩٢٦م، نسج الحرير عام ١٩٢٦م، الغزل والنسيج عام ١٩٢٧م، تصدير الأقطان عام ١٩٣٠م، الطيران عام ١٩٣٢م، بيع المصنوعات عام ١٩٣٢م، الملاحة البحرية عام ١٩٣٤م، السياحة عام ١٩٣٤م، الدباغة فى نفس العام، مطبعة مصر عام ١٩٣٦م، المناجم والمحاجر عام ١٩٣٨م، الزيوت عام ١٩٣٨م. ويلاحظ أن ذلك المصرى العبقرى حورب محاربة شعواء خلال الثلاثينيات من جانب الاحتلال البريطانى والحكومة العميلة والقصر. وتم سحب أرصدة كبيرة من بنك مصر، وذلك لصالح رأس المال البريطانى، وشعر الرجل بمرارة كاملة فاستقال، وذهب إلى إحدى القرى التابعة لمدينة دمياط، التى عندها يصب أحد فرعى نهر النيل بها، ومات هناك عام ١٩٤١م، قبل اندلاع ثورة يوليو بأحد عشر عامًا.



مصطفى مشرّفه

أيضًا من العلماء الأفذاذ الذين أنجبتهم ابنى الفذ على مصطفى مشرّفه الذى ولد عام ١٨٩٨م، وتخصص فى الفيزياء النووية، وقد حصل على دكتوراه الفلسفة فى العلوم عام ١٩٢٣م، ثم دكتوراه العلوم فى العام التالى، أى عام ١٩٢٤م. وذلك العَلَم البارز كان من القلائل الذين فهموا بجدارة نظرة النسبية للعالم إينشتاين حينذاك، وقد وضع عدة مؤلفات قيمة منها كتاب النظرية النسبية الخاصة، الذى ترجم إلى عدة لغات هى: الإنجليزية والفرنسية الألمانية. كذلك ألّف عدة كتب مثل: "الهندسة عند الفراعنة"، "نحن والعلم"، "العلم فى حياتنا" و"الذرّة

والقنابل الذرّية"، وقد توفى ابنى العبقرى قبل قيام ثورة يوليو المجيدة بعامين اثنين فقط، وبالتحديد عام ١٩٥٠م.



محمود مختار

أما فى مجال الفنون فإننى سأكتفى بذكر ثلاثة فقط من كبار الأعلام: المثّال الفذّ محمود مختار والموسيقار محمد عبد الوهاب وقيثارة الغناء العربى الخالدة أم كلثوم. وليس معنى ذلك أننى نسيت أحدًا من الأفذاذ الذين أعنيهم، وإنما وددت إيراد الأمثلة عنهم، حتى لا أثقل على قراء تاريخى المجيد.

أما المثّال مختار فقد ولد بالمحلة الكبرى عام ١٨٩١م، وفيما بعد درس النحت فى فرنسا، وبرع فيه براعة كاملة، ومن أشهر أعماله تمثال نهضة مصر الذى يصور مصر فى صورة فلاحة، وبجوارها أسد رابض، كذلك نحت عدة تماثيل أخرى مثل تمثال سعد زغلول ومصطفى كامل وعدلى يكن، كذلك له تماثيل صغيرة أخرى مثل: حاملة الجرّة، حاملات الجرار والفلاحة المصرية.

وقد قدّرته تقديرًا كبيرًا، فتمّ تخصيص متحف لأعماله فى أرض الجزيرة بالقاهرة، وتم مؤخرًا ترميمه، وصار فى أبهى صورة من أجل استقبال الزوار ليشاهدوا أعمال ذلك العبقرى الذى جعل حجر الجرانيت يهتف بروح بلاده الوثابة التى ما عقمت يومًا عن إنجاب الأفذاذ من الفنانين مثل محمود مختار وغيره.

أما ما اتصل بالموسيقار العبقرى محمد عبد الوهاب، فلن تفى حقّه وقدره سطور قليلة فى سفر أمه الخالدة التى أنجبته، فكان درة من درر

محمد عبد الوهاب

العبقرية الموسيقية التى ظلّت تشدو بأصدح الألحان.

وقد ولد ذلك الفنان الكبير على الأرجح عام ١٩٠٢م، فى حى باب الشعرية، وفيما بعد اتجه إلى الإنشاد الدينى، وتبناه أمير الشعراء أحمد شوقى- كما أسلفت الإشارة من قبل- وقد أظهر براعة كبيرة فى التلحين، والغناء. وكتب له الأخير أغنيات بالعامية المصرية، وقد برع فى تلحين وغناء كافة أشكال الأغنيات: الدينية والوطنية والعاطفية. ومن نماذج أغنياته: مشغول بغيرى (لأحمد رامى)، مصر (لمحمود حسن إسماعيل)، همسة حائرة (لعزيز أباظة)، النهر الخالد (لمحمود حسن إسماعيل)، يا مسافر وحدك (لحسين السيد)، الوطن الأكبر (لأحمد شفيق كامل)، وغيرها من مئات الأغنيات الخالدة.

وقد اتجه ذلك الموسيقار الفذّ إلى تجديد الألحان باستخدام مقامات موسيقية غربية، على نحو أثار فريقًا من المحافظين ضده، واتهموه بالسطو على ألحان الغرب، وهو أمر جانب أصحابه الصواب فيه؛ إذ إن الأمر مجرد اقتباس اعترف به موسيقار الأجيال شخصيًا.

وقد كرّمت ابنى محمد عبد الوهاب، فحصل على أرفع الأوسمة والنياشين، وتم تخصيص تمثال له فى حى باب الشعرية- حيث ولد- بالحجم الطبيعى، وما زالت ألحانه الرائعة جزءًا لا يتجزأ من الوجدان الفنّى لكافة أبنائى المصريين الذين عشقوا ألحانه.

أما سيدة الغناء العربى وكوكب الشرق أم كلثوم، فقد ولدت فى قرية طماى الزهايرة التابعة لمركز السنبلاوين فى محافظة الدقهلية عام ١٩٠١م، وبدأت بترديد الموشّحات والأغانى الدينية، ثم صارت تغنّى مختلف الأغانى، وتعاملت مع كبار الملحّنين مثل القصبجى، ورياض السنباطى، وزكريّا أحمد. وفيما بعد، تعاملت مع ملحّنين شبّان مثل محمد الموجى وبليغ حمدى، وغيرهما.

وقد برعت فى غناء كافة الأغنيات الدينية والوطنية والعاطفية. كذلك امتازت بحنجرة فريدة صاحبة صوت بالغ القوة (حوالى ٥٢,٠٠٠ ذبذبة فى الثانية الواحدة).

ومن أغنياتها: الأطلال (لإبراهيم ناجى)، واعتبرت من أشهر مائة أغنية فى العالم خلال القرن العشرين، والأوّلة فى الغرام ، والأمل ، وأراك عصى الدمع ، ودارت الأيام ، وثورة الشكّ، وأنت عمرى، ويا مسهّرنى، وغيرها من روائع الأغنيات كلماتٍ، وألحانًا، وأداءً عبقرياً من ابنة المنصورة الساحرة الرائعة.



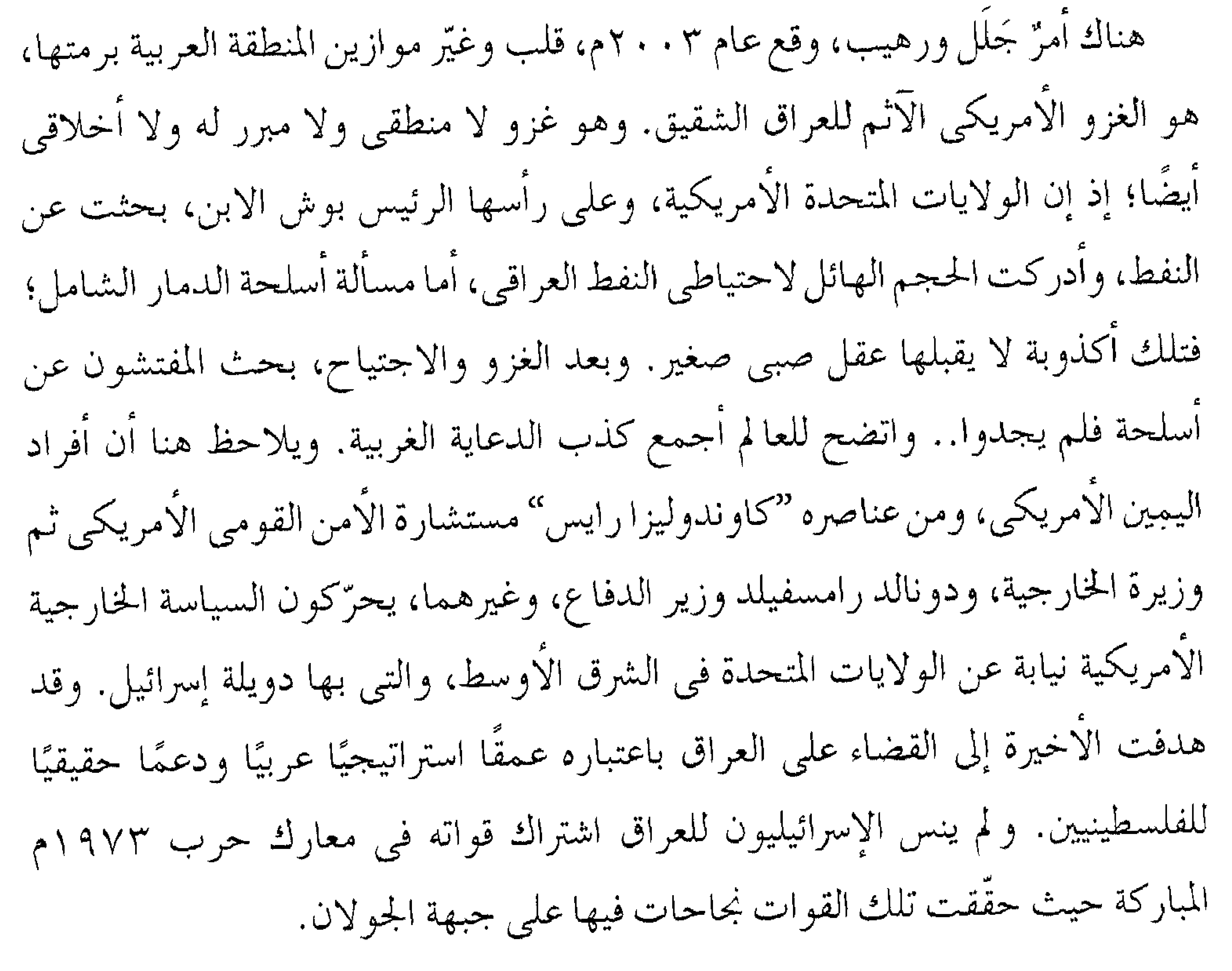
أم كلثوم

قامت ابنتى الوفيّة أم كلثوم بجمع التبرعات للمجهود الحربى بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧م، وكانت بارة بى وبأبناء قريتها على نحو خاص، وهو أمر ليس بجديد على من ولد وتربّى على أرضى الخالدة.

ومما يذكر عنها ارتباطها بشاعر الشباب أحمد رامى الذى كان عاشقًا لها ولفنّها الأصيل، وقد شدَت له بأجمل الأغنيات، ومن بعد وفاتها عام ١٩٧٥م، ظلّ فى اكتئاب نفسى إلى أن رحل.

وقد كرّمتها بمنحها أرفع الأوسمة والنياشين، وأقمت لها جنازة حافلة لا تحدث إلا لكبار الملوك والرؤساء، وذلك فى عهد ابنى الراحل أنور السادات.

- ١٤ -



هناك أمرٌ جَلَل ورهيب، وقع عام ٢٠٠٣م، قلب وغيّر موازين المنطقة العربية برمتها، هو الغزو الأمريكى الآثم للعراق الشقيق. وهو غزو لا منطقى ولا مبرر له ولا أخلاقى أيضًا؛ إذ إن الولايات المتحدة الأمريكية، وعلى رأسها الرئيس بوش الابن، بحثت عن النفط، وأدركت الحجم الهائل لاحتياطى النفط العراقى، أما مسألة أسلحة الدمار الشامل؛ فتلك أكذوبة لا يقبلها عقل صبى صغير. وبعد الغزو والاجتياح، بحث المفتشون عن أسلحة فلم يجدوا.. واتضح للعالم أجمع كذب الدعاية الغربية. ويلاحظ هنا أن أفراد اليمين الأمريكى، ومن عناصره "كاوندوليزا رايس" مستشارة الأمن القومى الأمريكى ثم وزيرة الخارجية، ودونالد رامسفيلد وزير الدفاع، وغيرهما، يحرّكون السياسة الخارجية الأمريكية نيابة عن الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط، والتى بها دويلة إسرائيل. وقد هدفت الأخيرة إلى القضاء على العراق باعتباره عمقًا استراتيجيًا عربيًا ودعمًا حقيقيًا للفلسطينيين. ولم ينس الإسرائيليون للعراق اشتراك قواته فى معارك حرب ١٩٧٣م المباركة حيث حقّقت تلك القوات نجاحات فيها على جبهة الجولان.

شاهدت أنا مصر، بعينى رأسى، كيف تم ذبح العراق بأيد عربية وأمريكية وأوربية، وكيف تم نهب ثرواته العلمية والآثارية، ومنها لوحة الأسر البابلى التى سُرقت وأُرسلت إلى دويلة إسرائيل. ورأيت كيف تم إشعال الصراعات العرقية والطائفية من أجل ألا يعود العراق إلى سابق عهده. لقد امتلك ذلك البلد العربى المسلم الشقيق قاعدة علميّة على

جانب كبير من التميّز والكفاءة، وخشى الغرب من أنه لو تمكن من امتلاك أسلحة ذريّة فسوف يُهدّد بها الطفل المدلّل فى الشرق الأوسط، أى إسرائيل. وهكذا تكون ازدواجية المعايير!!! إذ تملك إسرائيل حوالى ٢٠٠ رأس نووى، وخمسة مفاعلات منها مفاعل ديمونة الذى يسرّب الإشعاعات على مرأى ومسمع من العالم كلّه، دون أن يحرّك أحد ساكنًا، والقوى النووية الإسرائيلية كفيلة بتدمير الشرق الأوسط عدة مرّات. أما بالنسبة إلى العراق، فقد تمّ تدمير مفاعل تموز بالقرب من بغداد من جانب الطائرات الإسرائيلية بدعم أمريكى كامل، ومن المنتظر أن يتكرر ذات السيناريو مع إيران، من خلال ضربة إسرائيلية خاطفة لمفاعل بوشهر.

وبالتالى يتأكّد لنا صدق مقولة "حلال على إسرائيل حرام على العرب والمسلمين"! ولعمرى إن ذلك سخف وعبث غربى، ويؤكد لى ولأبنائى كيف أن الغرب يحرص على تأخّرنا نحن العرب، ولن يسمح لنا بالتقدّم إلا أن نكون تابعين له تبعية العبد للسيد الذى يقوم بإذلاله فى كل وقت وحين.

إن أمنى القومى مهدد بعد غزو العراق. فلقد أثبت ابنى تحتمس الثالث من قبل أن أمنى يبدأ من أعالى الفرات، والقوات الأمريكية متواجدة حاليًا على أرض الرافدين من الموصل شمالاً حتى البصرة جنوبًا.

على أية حال، الأمل معقود على المقاومة العراقية التى تكبّد الأمريكيين، كل يوم، خسائر فادحة. وعندما تزداد تلك الخسائر؛ سيدرك الأمريكيون أن اليمين الأمريكى أرسل أبناءهم إلى فيتنام العرب كى يلقوا حتفهم على أرض العراق، الشقيق الجغرافى والتاريخى لبلاد الشام ولى.

كم بكيت وحزنت على العراق الشقيق الذى ذبح بسكّين عربى وغربى فى آن واحد، دون أدنى قدر من الشفقة أو الرحمة بالقطر الذى شهد حضارة الرافدين العريقة.

ومع ذلك، فإن العراق الشقيق لديه القدرة الفذّة على أن يُبعث من جديد، فمن قبل قدم إليه المغول ودمّروا بغداد حاضرة الخلافة العباسية وذبحوا وأحرقوا، وقام العراق من تلك الكارثة سليمًا معافى. والآن، أتى إليه المغول الجدد، وأعنى بهم رعاة البقر الأمريكيين الذين يريدون الفتك به من أجل النفط، ولا شيء غير النفط!، ولحماية إسرائيل. وسيقوم العراق مرة أخرى من كبوته، وذلك قدره التاريخى الذى لا فكاك منه.

وهناك غزو آخر، لا يقل خطورة عن الغزو الأمريكى للعراق، إلاّ أنه غزو داخلى، وهو "التأمرك"، ويعنى الانبهار بكل ما هو قادم من الولايات المتحدة الأمريكية. ويلاحظ أن كثيرًا من وسائل إعلامنا يدعم ذلك الاتجاه، سواءً فى التلفاز من القنوات الأجنبية والعربية المتأمركة، أو من خلال محطّات إذاعية موجّهة تابعة لتلك الدولة، مثلما الحال بالنسبة "لصوت أمريكا"، وراديو "سوا"، وغيرهما.

كذلك وجد قطاع من الشباب المصرى ينبهر بأساليب الغناء الأمريكى، والملابس الأمريكية، وكذلك الأطعمة الأمريكية مثل الماكدونالد والبيتزا هت، والهارديز، وغيرها، وتركوا أطعمتهم المصرية، كما صاروا يحتقرون عملة أمّهم مصر، وينظرون إلى الدولارات أو الأوراق الخضراء نظرة انبهار!!!، وهذه هى بداية الكارثة: الغزو من الداخل، وعدم الانتماء إلى الأرض التى ولدوا وتربّوا وعاشوا عليها، بل زاد الأمر سوءًا من خلال رغبة قطاعات من أبنائى فى الهجرة إلى الولايات المتحدة سعيًا وراء الثراء السريع بأى ثمن، ومنهم من ينخرط فى أعمال دونية لا يرضى أن يمارسها فى بلده مصر، وهنا ذروة التناقض الفتّاك.

إن طغيان القيم المادية من شأنه الفتك بأبنائى، وجاء ذلك فى وقت تزايدت فيه الأخطار من حولى لا سيما فى الشرق والجنوب، أى العراق والسودان. فالأخير تحاك ضدّه مؤامرات كبيرة؛ من أجل تقسيمه والفتك به على الرغم من أهميته الاستراتيجية الحيويّة البالغة من خلال كونه عمقى الجغرافى والتاريخى، ووجود نهر النيل أو العمود

الفقرى الذى يربط بينى وبينه، ومشكلة دارفور خير دليل وشاهد على حجم المؤامرات.

إن ذلك كلّه يحدث وعدوّى التقليدى - إسرائيل - يتربّص بى الدوائر، ولن يهدأ يومًا وهو يرانى أحقق مشروعات للتنمية وأبنى ذاتى. إنه يريدنى دومًا متخلّفة لا أبنى ولا أشيّد، فالحذر الحذر إن الخطر قادم من الشرق فانتبهوا يا أبنائى. لا تركنوا إلى السلام مع دولة تقتل السلام كل يوم عشرات المرّات، وتاريخها الدموى يكشفها كل لحظة.



وقد سألنى أحد أبنائى: كيف يمكن يا مصر أن تكونى فى المستقبل فى مكانة سامية، وأفضل مما أنت عليه الآن؟ فأجبته من فورى: هناك العديد من المهام على أبنائى الالتفات إليها من أجل تحقيق ذلك، ويمكن إجمالها فى الآتى:

أولاً: تعميق عشقى فى نفوس أبنائى منذ مرحلة الطفولة المبكّرة حتى آخر لحظات حياتهم؛ إن كل الجرائم التى ترتكب على أرضى مبعثها الأول والأخير هو غياب عشقى عن قلوب وعقول وأرواح أبنائى. فاجعلوه زادكم اليومى. اجعلوا اسمى وتاريخى هو همّكم الأكبر كى تكونوا خير أحفاد لخير أجداد، إذ إن محاولة الإحياء لن تكون إلا من خلال بعث الشخصية التاريخية؛ كى يعرف أبنائى أننى دولة عظمى بمقاييس الحضارة. وعندئذ يدركون أنه لا توجد فى هذا العالم دولة تعدّ منافسة لى؛ لأن الحضارة قد بدأت على أرضى. وبدون الاعتزاز بتاريخى لن يصنع أبنائى حاضرًا أو مستقبلاً زاهرين أبدًا.

ثانيًا: السعى إلى إقامة العديد من المشروعات الخيرية المجّانية من جانب عناصر الرأسمالية الوطنية. وهو أمر اتبع من قبل فى العديد من دول العالم المتقدّمة، ويلاحظ هنا أن مثل تلك المشروعات هى الباقية، لأنها ستحمل اسم القائمين عليها، وستكون من أجل أبناء مصر، ولذلك فإن التوسّع فيها أمر على جانب كبير من الأهميّة والخطورة.

ثالثًا: بعث روح الجدّية والالتزام والتفانى فى العمل من أجل زيادة الناتج القومى،

والدخول فى آفاق أرحب لتصدير منتجات أبنائى الزراعية، والصناعية، إذ إن التهاون والإهمال والتسيّب قد أضاعت على الكثير. ولا مجال الآن لتلك الصفات السلبية، فليكن أبنائى فى كلّ موضع إنتاجى بمثابة الجنود الذين يتصارعون مع الزمن من أجل أن أحتلّ أرقى مكانة بين دول العالم، مثلما كان الأمر فى العصور القديمة والوسطى.

رابعًا: الضرب بيد من حديد على المتلاعبين بقُوتى وقوت أبنائى الشرفاء، من أجل أن يعلموا أن سيف القانون سيصل إلى كلّ خائن يخون ترابى المقدّس بالعبث بمقدّراتى. إن أولئك الخونة لا يستحقّون تلك الكلمة المباركة "المصرى"، ولذا، فلا بد من تعقّبهم فى كل مكان؛ لأن أعداء الداخل لا يقلّون خطرًا البتّة عن أعداء الخارج الذين يتربّصون بى الدوائر.

خامسًا: إعطاء المناصب المختلفة لمن يستحقّها من العناصر الشابة الوثّابة، التى لديها فى الأصل لرغبة الصادقة فى التغيير والتجديد، إذ بدون وصول تلك العناصر إلى المناصب القيادية فى العديد من المرافق الحيوية فلن تتقدّم خطاى، وستظل العقليات التقليدية هى الموجّهة لتحركاتى، وعندئذ تتقيد روحى، وهو أمر لا يقبله عشّاقى من أبنائى المخلصين.

سادسًا: تعميق روح التسامح بين عنصرى الأمة المسلمين والأقباط، إذ إن الفتنة الطائفية صنيعة العقول المتعصّبة التى لا تدرك أن روحى منقسمة بين مسلم وقبطى، ولا يستطيع أى طرف الاستغناء عن الطرف الآخر. وتاريخى السالف الذكر يشهد أن تلك الوحدة عمرها أربعة عشر قرنًا من الزمان، وليدرك أبنائى فى كل مكان أنه لا أمل إلا فى تدعيم تلك الوحدة، وأن مقتلى فى التعصّب المقيت الأسود الذى لا يبنى وإنما يهدم. فليقف الجميع ـ مسلمين وأقباط ـ من أجل بنائى، فأنا فى أشدّ الحاجة إلى تعاون عنصرى الأمة، وليعلم الفريقان أن إسرائيل تنظر إلى تلك الزاوية بتآمر تام، وتسعى ما وسعها السعى نحو إشعال أية صراعات طائفية، فليحم الله أرضى وشعبى، ويعمّق الحبّ بين أبنائى الذين

هم جميعًا ـ مسلمين وأقباط ـ متساوون أمام القانون فى الحقوق والواجبات.

سابعًا: إعطاء أهمية عظمى لقضية "الأمن الثقافى"، بمعنى العمل الجاد والمتفانى للقضاء على الأمّية على أرضى. إذ إنه من العار أن يكون هناك مصريون يعانون من الأمّية فى أوائل القرن الحادى والعشرين، ثم إعطاء دعم كامل للكتّاب، وإلغاء الجمارك المفروضة على أدوات صناعة من أحبار وأوراق وأدوات طباعة وغيرها، ولا نغفل أن الدعم على الخبز قد بلغ ١٠٠٠ مليون جنيه، ولا يذهب إلى مستحقّيه بالضرورة، أو يتم تبديده. وعلى أبنائى الانتباه إلى أن قضية الكتاب- كما الخبز تمامًا- قضية أمن قومى، وكم أتمنى أن يتمّ إيصاله إلى كافة القطاعات بالمجّان، وأكررها بالمجّان؛ حتى لا يقف سعر الكتاب حائلاً دون أن يقرأه القراء، وما أكثرهم على أرضى، إنهم بالملايين!!!.

وفى هذا الصدد، أرى أن يتحوّل مشروع مهرجان القراءة للجميع ليكون مهرجان القراءة للجميع بالمجّان، ويتم إيصال الكتب لكافة أبنائى، حتى أولئك الذين فى أقاصى الصعيد، وفى النجوع والكفور. إن تلك الصورة من شأنها تشكيل أجيال تقرأ وتفهم، ثم تُبدع، وتقدّم لمن يأتى بعدها زادًا ثقافيًا راقيًا، وهكذا، كل جيل يسلّم راية الثقافة لمن يأتى من بعده.

ثامنًا: العمل الجاد من أجل أن تتحد سوريا معى على كافة المستويات الثقافية والاقتصادية والإجتماعية، إذ إن تجربة الوحدة المريرة خلال المرحلة من عام ١٩٥٨- ١٩٦٠م، جعلتنى أدرك أنه من الأهميّة بمكان الاهتمام بالجوانب غير السياسية فى مشروع الوحدة. إن سوريا يا أبنائى هى عمقى الشمالى، مثلما السودان تمامًا هى عمقى الجنوبى، ومن شأن الاهتمام بها دعم عمقى الدفاعى الاستراتيجى صوب الشمال، وعلى نحو خاص فى الجوانب سالفة الذكر.

إننى لن أنسى ما حييت أنه فى يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣م، انطلقت فى لحظة واحدة حرب التحرير من دمشق والقاهرة، وتأكّد للعالم أجمع أن شقيقتى الغالية سوريا هى أحد

جناحى اللذين أطير بهما. وهكذا، فإن روابط التاريخ تدعونى إلى تقوية صلاتى بتلك البقعة العزيزة من الأرض العربية من أجل إعادة ما فات أمة العرب من أمجاد من جراء تهاون المتهاونين ومؤامرات المتآمرين، فى الداخل والخارج على حدّ السواء.

تاسعًا: إيجاد وزارة مستقلّة تُسمّى "وزارة الموهوبين"، تعمل على اكتشاف المواهب فى كافة القطاعات، وتنفق على أصحابها بسخاء؛ من أجل رعاية تلك المواهب التى مَنَّ بها الله تعالى عليهم، والقضاء على أية معوقات تقف فى وجههم، وبذلك يتم تواصل أجيال المبدعين. ومثلما كان هناك مبدعون فى أعقاب ثورتى ١٩١٩م، ١٩٥٢م، فعلى أبنائى الاهتمام بقضية الإبداع على أرضى الطاهرة لأنه من أكبر الأخطار على أمنى الثقافى الاعتماد على إبداع السابقين، وعدم اكتشاف مواهب إبداعية جديدة تواصل رحلة الإبداع السابقة.

عاشرًا: احترام قيمة الإنسان المصرى على كافة الأصعدة والمستويات، وأن يكون الجميع متساوين أمام القانون لا فرق بين شخص وآخر البتّة، وذلك فى الحقوق والواجبات.

ومن المؤسف أن تحدث على أرضى وقائع تؤكد إهدار قيمة الإنسان المصرى، وهو رأسمالى الحقيقى. ومن الأمور اللافتة للانتباه، أن السائحين العرب والأجانب يجدون على أرضى من الخدمات وسبل الحياة الرغدة المرفّهة ومن الحقوق، ما لا يجده ابنى الأصلى!! مع العلم أن ذلك السائح لن يمكث إلا أيامًا أو شهورًا ثم يغادرنى إلى وطنه.

إننا إذا لم نُعطِ المصرى كرامته وحقوقه كاملة غير منقوصة، سيظل هناك مبرر قوى للكراهية والصراع الاجتماعى وعدم الانتماء إلى ترابى المقدّس. ولعمرى إن ذلك يعد، وبحقّ، مفتاح كل شرّ وأساس كلّ بليّة تلحق بى.

حادى عشر: زيادة الإنفاق العسكرى من أجل إقامة قوة عسكرية رادعة، إذ إن تاريخى قديمًا ووسيطًا وحديثًا، أثبت بما لا يدع لشكّ متشكّك أن جيشى هو الدرع الذى

يحمى أرضى، وأن امتلاك قوة عسكرية رادعة من شأنه توفير الأمن المنشود لأبنائى من أجل مواصلة البناء والتعمير على كافة الأصعدة والمستويات.

وبجوار آلة الحرب، هناك السياسة الحكيمة التى تخطط لكافة العواقب، ولا تلقى بأبنائى العسكريين فى المهالك، وعلى أبنائى دومًا الاستفادة من درس ٥ يونيو ١٩٦٧م الذى ينبغى وضعه نصب أعينهم.

ثانى عشر: مواجهة أزمة البطالة بكافة الصور والأشكال، لأن تلك هى أم المشكلات التى تعصف بى، ومنها تتفرّع العديد من الكوارث الأخرى. فمن حق كل شاب مصرى يعيش على أرضى المباركة أن تتوافر لديه فرصة للعمل الشريف؛ لإشعاره بتوازن الحقوق والواجبات، وأن الانتماء إلى ترابى المقدّس ليس مجرّد شعار أجوف يردد هنا وهنالك، بل واقع عملى ملموس. وفى ذات الحين، يأتى فى المقدّمة أمر تشجيع المنتج المحلّى المصنوع على أرضى وبأيدى أبنائى العمال، ومهما كان ذلك المنتج أقل فى الجودة من مثيله الأجنبى، إلا أن شراءه من شأنه دعم الصناعة الوطنية، وبالتالى تقديم فرص العمل للشباب. فمن غير المنطقى أن يقوم المصرى- بشرائه السلع والمنتجات الأجنبية- بدعم اقتصاد الدول الأخرى التى تعمل على إنهاض اقتصادها، والإضرار فى نفس الحين باقتصادى.

ثالث عشر: حماية الأرض الزراعية من التدمير، وتلك زاوية تعنى الحياة أو الموت، ففى الربع قرن الأخير فقدت مساحات شاسعة من أخصب الأراضى الزراعية بصورة من المستحيل تعويضها، وأقدم للقارئ العربى فى كل مكان نص ما أورده أحد أبنائى المخلصين الغيورين، وهو أ. د. عبد الخالق لاشين فى كتابه "مصريّات فى الفكروالسياسة"، حين قال ما نصّه: "تذكر التقديرات أنه منذ عام ١٩٨٠م تخسر مصر سنويًا ٢٠,٠٠٠ فدان زراعى سواء لأغراض البناء أو لصناعة الطوب وغير ذلك، على الرغم من أنه صدر فى عام ١٩٨٥م قانون يحذّر تجريف التربة الزراعية بغرض البناء بالطوب". وفى موضع آخر يقول "تقدر تلك المساحة الزراعية المفقودة خلال عشر سنوات ١٩٨٠-١٩٩٠م، ما بين

٥٠٠ إلى ٧٠٠ ألف فدّان".

إنها بالفعل جريمة بكافة المقاييس. إن أرضى الزراعية لا بد من حمايتها من عبث العابثين، وإلا فلن يجد أبنائى المصريون أرضًا يزرعونها إذا استمرّ ذلك النزف والاستهلاك المتعمّد العشوائى الذى يوصف بأنه بالفعل جريمة كاملة الأركان.

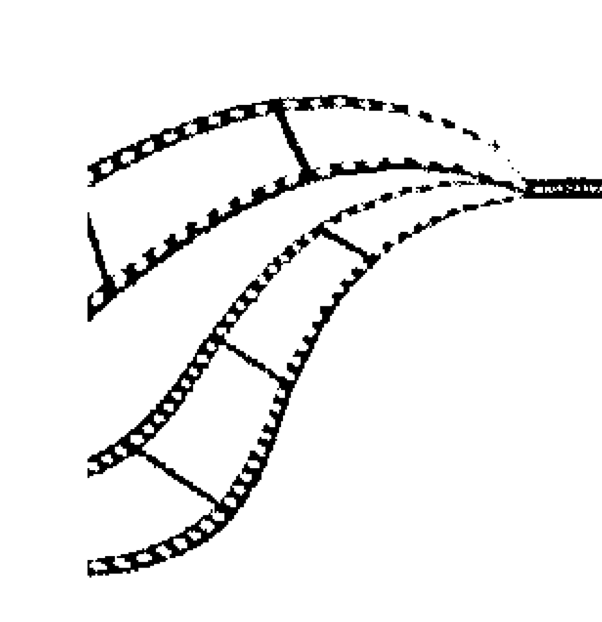
وبعد، فإن هناك العديد من الزوايا التى تثار هنا من أجل أن أكون أنا مصر أفضل حالاً، غير أن أبنائى المخلصين، ومنهم الملايين من الجنود المجهولين الذين يعملون فى صمت يبنون ولا يهدمون، وينالون أقل القليل من المال، وعند الخطر يتمنون فدائى بالأرواح، وهى بالنسبة إليهم زهيدة الثمن.

ما زلت أعلّق الآمال الكبار على أولئك الأبناء، الذين ترهبنوا فى محراب حبّى الخالد، وأردد قول الشاعر:

كَمْ ذَا يُكَابِدُ عَاشِقٌ ويُلاقِى

فِى حُبِّ مِصْرَ كَثِيرَة العَشّاقِ

وأخيرًا، أوصى أبنائى– كل أبنائى– بتعمير شبه جزيرة سيناء، البوابة الشرقية التى دخل منها الغزاة والفاتحون من الهكسوس حتى أبناء نجمة داود. فليتقدّم أبنائى إليها، ويقيموا بها مجتمعات جديدة من أجل خلق دروع بشرية تقف فى وجه الغزاة، إذا ما فكّروا مرة أخرى فى غزو أرضى المقدّسة. ويا أبنائى فى كل مكان وزمان، الخطر قادم من الشرق، الخطر قادم من الشرق!، لا تركنوا إلى سلام شاحب حذر، مع عدوّ جُبل على الحرب وأخوف ما يخافه السلام. هل وعيتم الدرس..؟!. اللهم إنّى بلّغت... اللهم فاشهد...



بعض المصادر والمراجع المختارة

عن تاريخ مصر عبر العصور

أولاً: المصادر

- ابن الأثير (على بن أحمد بن أبى الكرم ت. ٦٣٠هـ/ ١٢٣٨م.
الكامل فى التاريخ. ط. بيروت ١٩٨٧م.
- ابن إياس (أبو البركات محمد بن أحمد ت. ٩٣٠هـ/ ١٥٢٤م.)
بدائع الزهور فى وقائع الدهور
تحقيق محمد مصطفى ط. القاهرة ١٩٨٢م.
- البلوى (أبو محمد عبد الله ق ٤هـ/ ١٠م.)
سيرة أحمد بن طولون
تحقيق محمد كرد على ط. القاهرة بيروت ب. ت.
- ابن زنبل (أحمد الرمّال ت. ٩٦٠هـ/ ١٥٥٢م)
آخرة المماليك
تحقيق عبد المنعم عامر طز القاهرة ١٩٦٢م.
- السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن ت. ٩١١هـ ١٥٠٥م.)
حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة
تحقيق محمد أبو الفضل ط. القاهرة ١٩٦٤م
ابن شدّاد (القاضى بهاء الدين ت. ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م.
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية
تحقيق جمال الدين الشيّال ط. القاهرة ١٩٦٤م
- ابن عبد الحكم (أبو القاسم عبد الرحمن ت. ٢٥٧هـ/ ٨٧١م)
فتوح مصر وأخبارها
ط. القاهرة ١٩٩١م.

- أبو المحاسن (جمال الدين يوسف ت. ٨٧٤هـ/ ١٤٩٩م.)
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة.
ط. القاهرة ١٩٢٩- ١٩٧١م.
- الجبرتى عجائب الآثار فى التراجم والأخبار
تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن ط. القاهرة ٢٠٠٣م.
- المقريزى (تقى الدين أحمد بن على ت. ٨٤٥هـ ١٤٤١م.)
السلوك لمعرفة دول الملوك ج١، ج٢- تحقيق محمد مصطفى زيادة، ج٣، ج٤- تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور. ط. القاهرة ١٩٣٤م - ١٩٧٣م.

ثانيا: المراجع العربيّة والمعرّبة

- إبراهيم طرخان (د.) صلاح الدين الأيوبى وتحرير القدس
ط. القاهرة ١٩٦٨م.
- أبو اليسر فرج (د.) الشرق الأدنى فى العصر الهللينستى والرومانى
ط. القاهرة ٢٠٠٢م.
- أحمد أمين فجر الإسلام
ط. القاهرة ١٩٨٧م.
- أحمد مختار العبادى (أد.) قيام دولة المماليك الأولى فى مصر والشام
ط. بيروت ١٩٦٩م.
تاريخ البحرية الإسلامية فى مصر والشام
ط. بيروت ١٩٧٢م.
أميرة خواسك رائدات الأدب النسائى فى مصر. ط. القاهرة ٢٠٠١م.
- أيمن فؤاد سيد (د.) الدولة الفاطمية فى مصر
ط. بيروت ١٩٩٢م.
- جمال الدين سرور (د.) مصر الظاهر بيبرس
ط. القاهرة ١٩٣٨م.
دولة بنى قلاوون
ط. القاهرة ١٩٤٧

- جمال الدين الشيال (د.) أعلام الإسكندرية فى العصر الإسلامى
ط. القاهرة ١٩٦٥م.
دراسات فى التاريخ الإسلامى
ط. بيروت ١٩٦٩م.
- جمال حمّاد من سيناء إلى الجولان
ط. القاهرة.
تاريخ مصر الإسلامية ج٢
ط. القاهرة ١٩٦٧م.
- جمال حمدان (د.) شخصيّة مصر- دراسة فى عبقرية المكان
ط. القاهرة ١٩٣٥م.
- جورجى زيدان تاريخ التمدّن الإسلامى
ط. القاهرة ١٩٣٥م.
- جوزيف نسيم يوسف (د.) لويس التاسع فى الشرق الأوسط
ط. القاهرة ١٩٥٩م.
العدوان الصليبى على مصر
ط. الإسكندرية ١٩٦٨م.
- جيمس برستد فجر الضمير
ت. سليم حسن ط. القاهرة ١٩٩٩م.
- حسن حبشى (د.) نور الدين والصليبيون
ط. القاهرة ١٩٤٨م.
- حسين فوزى (د.) سندباد مصرى
ط. القاهرة ١٩٩٠م.
- حسين مؤنس (د.) صورة من البطولة
ط. القاهرة ١٩٤٨م.
مصر ورسالتها
ط. القاهرة.
- رأفت عبد الحميد (د.)، طارق منصور (د.) مصر فى العصر البيزنطى
ط. القاهرة.
راشد البراوى (د.) حالة مصر الاقتصادية فى العصر الفاطمى
ط. القاهرة ١٩٤٨م.

- سامى خشبة — مفكّرون من مصر
ط. القاهرة ٢٠٠٠م.
- سعيد عبد الفتاح عاشور (أ.د.) — الحركة الصليبية
القاهرة ١٩٦٤م.
العصر المماليكى فى مصر والشام
ط. القاهرة ١٩٧٠م.
مصر والشام فى عصر الأيوبيين والمماليك
ط. بيروت
- طه شرف (د.) — دولة النزارية أجداد أغا خان كما أسسها حسن الصبّاح ط. القاهرة ١٩٥٠م.
- عائشة التيمورية — حلية الطراز
تحقيق محمد أبو المجد ط. القاهرة ٢٠٠٤م.
- عبد الحليم نور الدين (د.) — اللغة المصرية القديمة
ط. القاهرة ٢٠٠٣م.
- عبد الخالق لاشين (د.) — مصريات فى الفكر والسياسة
ط. القاهرة
- على إبراهيم حسن — مصر فى العصور الوسطى
ط. القاهرة ١٩٤٧م.
- عمر الفاروق السيد رجب (د.) — حوارات مع حمدان
ط. القاهرة ٢٠٠٢م.
- فتحى متولّى — شخصيات وراء الأخبار
ط. القاهرة ٢٠٠٣م.
- محمد رمزى — القاموس الجغرافى للبلاد المصرية
ط. القاهرة ١٩٥٤م.
- محمد شفيق غربال — تكوين مصر
ط. القاهرة ١٩٥٧م.
- محمد عبد الله عنان — تراجم إسلامية شرقية وأندلسية
ط. القاهرة ٢٠٠١م.
- محمد عبد الغنى الجمسى (المشير) — حرب أكتوبر ١٩٧٣م.
ط. القاهرة ٢٠٠١م.

-محمد مؤنس عوض (د.) الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب فى القرنين ١٢، ١٣ الميلاديين
ط. القاهرة ١٩٩٩- ٢٠٠٠م.
سندباد فى عصر الحروب الصليبية
ط. القاهرة ٢٠٠٢م.

محمود الحويرى (د.) مصر فى العصور الوسطى الأوضاع السياسية والحضارية ط. القاهرة ٢٠٠٢م.

المراجع الأجنبيّة

-Atiya (A.S.)، The Crusade in the later Middle Ages، London 1938

-Cahen (C.)، La Syrie du Nord à l'époque de Croisade ; et la principauté Franque d'Antioche، Paris 1940.

-Hassan (H. I.)، Relations between Egypt and the Caliphate ، Cairo 1940.

-Hassan (Z.)، Les Tulunides، Paris 1934.

-King ()، The Knights Hospitallers in the Holy Land، London 1931.

-Lane-poole (S.)، Saladin and the fall of the Latin Kingdom of Jerusalem، London 1898.

-The Story of Cairo، London 1902.

-A History of Egypt in the Middle Ages، London 1912.

-Le Strange (G.)، Palestine under the Moslems، London 1890.

-Wiet (G.)، Histoire de la Nation Egyptienne، T. IV، Paris 1926.

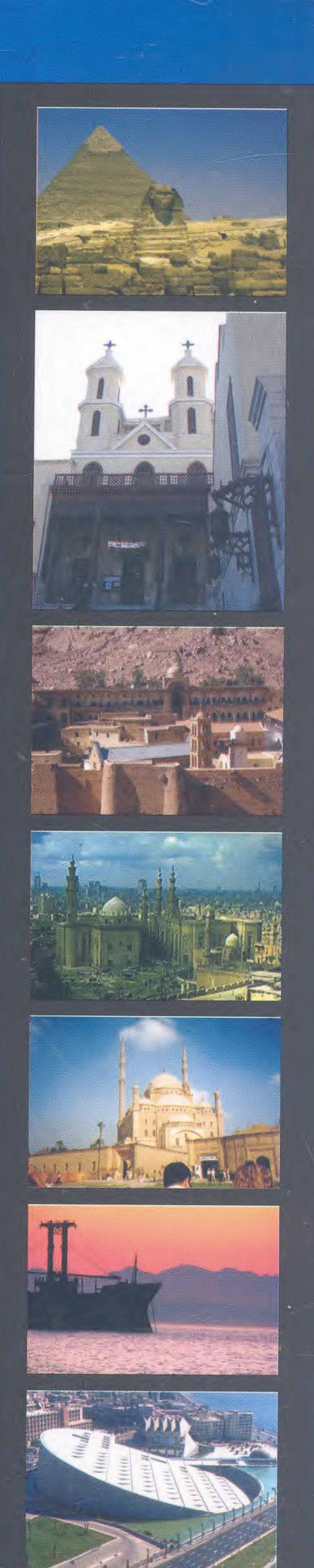
تم بحمد الله تبارك وتعالى

مطـابـع آمــــون

٤ ش الفيروز متفرع من إسماعيل أباظة

لاظوغلى - القاهرة

تليفون : ٢٧٩٤٤٥١٧ - ٢٧٩٤٤٣٥٦



هذا الكتاب

مصر هي أم التاريخ، ومنبع الحضارة، ومعلمة البشرية.. على أرضها بزغ فجر الضمير الإنساني، وسطعت شمس الحق والعدل والخير. وبينما كان الفراعنة العظام يشيّدون الأهرام الخالدة في وضح النهار، كان العالم لا يزال طفلا يحبو ويتلمس خُطاه وسَط الظلام الدامس وغياهب الجهل والبدائية.

وقد أحسن المؤلف صنعًا - وهو أستاذ تاريخ العصور الوسطى - عندما حشد وجمع وكثف واستعرض تاريخ مصر - قديمًا ووسيطًا وحديثًا - ببراعة واقتدار، وبنظرة طائر محلّق، على صفحات هذا الكتاب. وقد بدأ من الحدث الأقدم والأهم في التاريخ المصري القديم، وهو توحيد القطريْن الشمالي والجنوبي على يد الملك «مينا»، وانتهى بما وصل إليه وضعنا حاليًّا، سياسيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا، بل وعربيًّا وعالميًّا أيضا.

وما بين تلك البداية والوضع الراهن، أمسك المؤلف جيدًا بتلابيب الأحداث ووقائع التاريخ، بانتصاراتها وانكساراتها، وأفراحها وأتْراحها، نا... ـًا ومفسرًا ومعلقًا وناصحًا. وقد أحسن ... ـة الثانية - حينما جعل مصر هي راوية ت... ـث وذلك التاريخ العبقري الممتد، فجا... ـت صادقة واضحة؛ لأنها صدرت عن خير... .. عن مصر.. الأم.. هبة النيل.. والمصريين...

